الحائز على جائزة فلسطين للسيرة الذاتية للعام ١٩٩٩

حنّا أبو حنّا

ظلّ الغيمة

سيرة

ظلّ الغيمة

ظلّ الغيمة / سيرة
حنّا أبو حنّا / مؤلّف من فلسطين
الطبعة الأولى ، ٢٠٠١



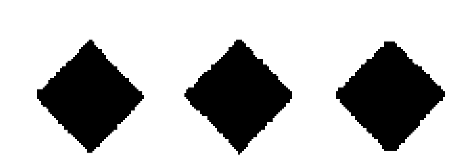
المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، ساقية الجنزير ، بناية برج الكارلتون ،
ص.ب : ٥٤٦٠-١١ ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٨٠٧٩٠١
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس : ٥٦٨٥٥٠١
E-mail : mkayyali@nets.com.jo
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
ستوك سيوس ®
لوحة الغلاف :
لِسْ بكْنِل / بريطانية
الصفّ الضوئي :
عمري غراف / حيفا ، فلسطين

الحائز على جائزة فلسطين للسيرة الذاتيّة للعام ١٩٩٩

حنّا أبو حنّا

ظلّ الخيمة

سيرة



إلى
رفيقتي سامية
وحفيديّ
سامي وديمه
وإلى عائلتي وقريتي

أسماء الأشخاص في هذا الكتاب غير حقيقية
وأي تشابه أو تماثل مع اسم حقيقي صدفة محض
ولا صلة للاسم الحقيقي بالأحداث التي في الكتاب.

العناوين

1. إسمه يحيى

قَطَعَتْ حَبْلَ سُرّته نفّجَه
بَعـدَ عـامٍ مِنَ الزَّلزَلَه

قال الشّارح: أما نَفّجَه فهو اسم القابلة – الدّاية باللغة الدارجة على ألسنة الناس. ففي تلك الأيام ما كانت النساء من القرى تلد في المستشفيات. فإذا اشتد الطلق وأحسّت المرأة أنِ اقتربت الساعة تُستَدعى الداية إلى البيت. وكانت نفّجَه، هي الداية في تلك القرية، تُستدعى ولو كانت في أحلى منام، فتهبّ مسرعة تلملم نفسها وتشدّ العصابة السوداء على رأسها تهرول حافية، وإذا بها أسرع من سيارة الإسعاف في الوصول دون زعيق أو هدير.

كانت رقيقة القامة طويلة كأنها الشاروط.التجاعيد في وجهها وأطرافها كالغضون في لحاء شجرة زيتون روميّة، ألمّ بعض الانحناء بظهرها ولكنها نشيطة واسعة الخطوات تتحدّى أنشط الشباب في سرعة المشي.

تمتلئ الغرفة بالنساء، قريبات أو جارات ممّن تمرّسن بأسرار الولادة. هذه تسخّن الماء، وتلك ترتّب المساند والوسائد. وتتعالى التمتمات: «اسم الله عليك يا بنتي، اسم الله حولك وحواليك».

يُلفّ رأس المرشحة للأمومة بعصابة شديدة تساعدها على احتمال غزوات المخاض المتتالية. إنها بكريّة. هذه هي الولادة الأولى، ولذلك تلقى عسراً وعنتاً. ثلاثة أيام دام

الصراع. تجرب مختلف الاقتراحات. تحبو .. قالت إحداهن إن هذا هو الذي ساعدها على الولادة. وتمدّ إحدى النساء يدها بالكمادات الدافئة.. على الجبين حيناً، وحيناً آخر على الخصر. وتقدم امرأة أخرى بعض عروق الميرمية لتعضّ عليها وتمضغها، فالألم سهام تخترق الرأس والجسم كله.. والصراخ المكتوم يغور في الأعماق.

في قاع اللاوعي تطوف أسماء بعض النساء اللواتي مِتْنَ - «على الجورَه» أثناء المخاض. ولذلك تتعالى الأدعية والابتهالات بخضوع: «يا ربّ الخلاص والخلقة زيّ الناس».

الزوج بعيد، متنقل في عمله من بلد إلى بلد، ولكن أم سليم - عمة الزوجة وخالة الزوج، وجارة الزوجين الجديدين، هي التي تكفّلت رعاية الموعودة بالميلاد وحضنتها بدفء، وهي المشرفة على العمليات بمحبة كبيرة وقدرة خبيرة.

في اليوم الثالث أطلّ المولود على هذا العالم محتجًا صارخاً.. وفي صراخه شيء من البكاء.

قالت الأم لابنها عندما وَعَى إن أباه فرح بولادته كثيراً ووزّع الحلوى على عابري السبيل:

- «ماذا نسمّي الولد؟» السؤال موجّه إلى الأب.

«ما هو الإسم؟» تتساءل جولييت في رواية شكسبير التي تحمل اسم حبيبها روميو واسمها، وقد استثارها العداء بين العائلتين.. والتسميتين، وتضيف: «إن ما يسمّى وردة سيحمل العطر نفسه تحت أي اسم آخر».قال أبو عُبَيدَة: «وإنّما الأسماء علامات ودلالات لا توجِب نسباً ولا تدفعه».

قيل: لكن الاسم أكثر من ثوب يُطرح على مُسمّى، إذ يصبح العنوان اللصيق ويُشحن بظلال وأبعاد وتداعيات. بل إن ستيفن ديدالس في رواية جيمس جويس «صورة الفنان شاباً» يرى أن هناك صلة بين اسم المرء وكرامته.

وهل يرضى معلم التاريخ أن تخلط الأسماء فتنسب للإسكندر ما فعله كورش أو تنسب لعمر بن عبد العزيز ما فعله هولاكو؟

عندما سرق يوسف البشارة كتاب قريبه الذي كان يتعاطى كتابة الحجابات والكشف

بالمندل وغير ذلك من شؤون السحر، وجاء ليفتح بخت أصحابه كان من الأسئلة الأولية لمعرفة البخت: ما اسمك؟ ما اسم والدتك..؟ وكان لحروف الإسم وما تمثله في حساب الجمَّل الأثر الهامّ في تقرير المصير ومعرفة البخت.. وما كُتب على الجبين.

ابن الجيران – في الناصرة – وكان اسمه فاروق – أثار القلق في والديه بتصرفه المزعج وعدوانيته وعدم اتّزانه، فحسب له العرّاف وغيّر اسمه إلى عادل.. فركَزَ وهدأ، مع أن معنى الكلمتين يكاد يتقارب، فالفاروق هو الذي يفرّق بين الخير والشر، وعلى العادل أن يحسن تلك التفرقة.لكن المهم هنا هو الحروف. فلكل حرف حسابه. عندما كبر عادل أصبح سائق حافلة توكّل إلى مسؤوليته واتّزانه أرواح كثيرة.. والواقع – قال الراوي – أن جدة ذلك الطفل وأمه تطيّرتا من اسمه الذي ردّد لهما أصداء الفرقة والفراق، فشكتا سلوكه إلى والده وطلبتا تغيير ذلك الاسم الذي اختاره الوالد.. نقلاً عن اسم أمير مصر الفتى آنذاك، فاروق ابن الملك فؤاد.

أما اسم الداية – نفْجَه – فلم يخطر ببال أحد أن يفسره. فالأسماء في القرية – عادة – لا يُقصد بها إلا التمييز. لا شك أن الذين وضعوا الأسماء في الماضي اجتهدوا ليختاروا، ولكن الكثيرين ممن جاء بعدهم أخذوا يسمّون على التقليد أو الوراثة. فالابن البكر يحمل اسم الجدّ، والمرأة يعجبها اسم فتاة فتسمي به ابنتها. وقد يسمّى المولود باسم مناسبة أو شهر أو ظاهرة فريدة. فقد سُميت إحدى البنات «ثلجة» لأنها وُلدت في سنة سقط فيها الثلج – وتلك ظاهرة نادرة – وسمي طفل رمضان لأنه وُلد في ذلك الشهر الكريم، وسُمي آخر بشارة لأنه وُلد في عيد بشارة العذراء. ومن الطريف أن نتأمل الأسماء والمسمّيات والمثل القائل: «لو أن الأسماء تُشترى لسمّى الفقير ابنه...». ولكن الأسماء مجانية، ولذلك قد يكون الاسم أحياناً زهرة المساكين. ومن طريف ما حدث أنه في عهد قادم عندما أخذ الناس يغربون في التسمية – سمى أحدهم ابنته «لقيطة» بعد أن شاهد مسلسلاً على التلفزيون بهذا الاسم.

لكنّ هذا الاسم – نفْجَه – نادر جداً، وإذا استنجدت بالقاموس «المنجد» فقد تجد عدداً من الإيحاءات، ولكنك لا تجد الصيغة ذاتها. فالنافجة هي السحابة الكثيرة المطر أو البنت لأنها تعظّم مال أبيها بمهرها. والنافجة كذلك: وعاء المسك. وفي اللغة الدارجة: نفجت بمعنى نضجت وكبرت.

يحاربون وأد البنات بالتأكيد على أن البنت تعظّم مال أبيها بمهرها.. فهي نافجة. ذلك كان الوأد الجسدي. أما الوأد الروحي والمعنوي فهو ما يزال.. وفي كثير من المجتمعات.

كانت نفْجَه - رحمها الله - تُقبل على عملها بشعور من القداسة. فهي تخلّص روحاً من روح كما كانت تقول بصوتها الرفيع الذي يخرج من حنجرة بخيلة بالوتر والنفَس. لقد اتّخذها الله وسيطاً يستقبل مخلوقاته، تقطع السرّة وتخلّص الخلاصة - أو كما تقول الفصحى: السَّلى - وتنطلق بين يديها أول صرخة يرفعها المخلوق عند وصوله إلى هذا المنفى.

وهي ترفض أن تتقاضى على عملها أجراً أو هدية أو أي شكر يتعدى الكلمات.

وهي فريدة في كل شيء تقريباً. لا تأكل اللحم. قالت إنها أكلته مرة فمرضت، وفيم حاجتها إليه والبقول والقطاني والخضار هبة الأرض، ولذلك حافظ قوامها على دقّته ولم يتخذ له بطانة من الدهن. نشيطة كالنملة تعمل في أرضها وتوسع من نطاق ملكها باقتناء المزيد مما يوفره عرق الجبين.

تذكُرُ كل الذين استهلوا حياتهم على الأرض على يديها. تعرفهم بأسمائهم وتسألهم عن حالهم وحال أهلهم، وتحسّ - وهي الفلاحة بامتياز - أن الأغراس التي تعهدتها قد رسّخت جذورُها وارتقت في الفضاء أشجاراً كريمة. فهي أمّ القرية.

وقد عمّرت طويلاً، فلم تودع هذه الدنيا إلا بعد أن قفزت عن جدار المائة وتجاوزته بثماني سنوات. ولذلك طال بها عهد الترمّل فاحتضنت ابنتها وردة وابنها نعيم برعاية بالغة. إلا أن وردة عندما كبرت عنست، ومن عملها في الأرض ومن بعض دخل قنّ الدجاج وحليب بقرتين، وفّرت نقوداً أخذت تزيدها من فائض القروض التي كان يضطر البعض إلى استدانتها، شريطة أن يرهنوا شيئاً ما ضماناً، وهذا الشيء لا يكون إلا ذهباً - سِواراً أو قَبِيَّة - وإذا لم يستطع المستدين أن يسدد المبلغ كلّه وفوائده فإنها تمتلك الرهن حلالاً زلالاً، وكم فعلت.

كانت وردة تخطو نحو الثلاثين حين سنحت فرصة ودقّ الباب عريس. إنه أرمل كهل من قرية غير بعيدة، وله عدد من الأولاد. أمّها عارضت، وقد فسّر بعضهم معارضتها بأنها سعي لإبقاء ابنتها عندها تعينها على أعمال الفلاحة وشؤون المصلحة. اشتد النزاع بين الأم وبنتها. تمادت البنت، رفعت صوتها في وجه الأم وتسلح عنادها بكثير من الكلمات القاسية واللهجة النابية فضربت الأم ابنتها بِدقّة قاسية فكسرت ساعدها. هرع الجيران على صراخ المصابة،

وسرعان ما تطوّعوا - بمساعدة الأم - لتجبير الساعد المكسور. ظنّت الأم أن هذا الكسر سيفسد مشروع الزواج، ولكن خاب فألها.

ويؤكّد الراوي أن وردة لم تتنازل عن أي من طقوس العرس ومباهج العروس. وماذا يضير أن يكون العريس أرمل كهلاً ومعيلاً؟ هي العروس، وهذا حقها ولا يمكن أن يكون حظها ناقصاً. وفي أحد هذه الطقوس اجتمعت النساء في احتفال النّتف أو المَعْط وهو احتفال يُعَدّ فيه جسم العروس لمراسيم الزواج. غادرت الأم البيت غاضبة ثائرة: «شحار يشحّركوا». الخبيرات منهمكات في إعداد «العقيدة» وهي لدائن يعقد فيها السكر وحامض الليمون لانتزاع الشعرمن خريطة الجسد. يقول المثل العامي: «بارك الله في الزلمه المشعراني والمرة الحلتا الملتا». ويقول القاموس: «الأحلَت من نُتف شَعرُه أو صوفُه». وقد شاهد مثل هذا الاحتفال بعض الأطفال ممن هم في سن الخامسة أو السادسة، فالأهل يرون فيهم صغاراً لا يدركون. إحدى الأمّهات أرادت أن تُبعد ابنها عن المشهد فأعطته قطعة من العقيدة الجاهزة على أن يغادر المكان. استطاب اللدينة التي امتزجت فيها الحلاوة بالحموضة المنعشة. طالب الأطفال الآخرون أمّهاتهم بمثل ذلك. تطوّعت إحداهن بتوزيع قطع صغيرة على الجميع وهي تضرب كلاً منهم على مؤخّرته قائلة: «يلا. إوْعَ ترجع!». والأولاد يتقافزون بين النساء. مشهد يُحفر في الذاكرة ويكمن فيها: صبايا ومكتهلات عاريات، الضفائر محلولة والشعور مهدولة والتضاريس كالثمار منها اللامح ومنها اللافح ومنها الفاضح، والحركة تزيد من حيوية المشهد. اعترف أحدهم حين شبّ أن جسم المرأة يقترن عنده بطعم العقيدة الحلوة الحامضة المثيرة التي أفاضت لعابه آنذاك. واللغط يتقاطع وفيه الكثير من التغامز والتلامز والتهامز والإشارات الصريحة بحجة تفقيه العروس وتعليمها حقائق الحياة. والمكتهلات المجرّبات أكثر صراحة وأبرع تدريباً. وقد أشرفت على إعداد العروس إحدى من شهدوا لها بالخبرة، خفيفة اليد وهي تكنّي المواقع والأشياء كنايات شعريّة، فهذا عشّ البلبل وهذي تلّة الحبق ولكن التصريح سرعان ما يفاجئ التلميح.

كان النتف مؤلماً، فجسم العروس لم يعتد بعد على هذه المواسم والطقوس، فانطلقت صرخاتها المكبوتة: آخ.. آخ..

قالوا: وقف خليل السعدي مع مجموعة من الشباب أمام باب بيت العروس وهو يصيح بين الحين والحين كأنه يردّد صدى ألم العروس: «آخ..آخ» فتردّد شلّته تلك الشكوى في جوقة

كمكبر الصوت المتحشرج وقد اجتمع أمام البيت كثيرون من النساء والشبان فتدحرجت الضحكات وتمادت الجوقة في غيّها كلما وجدت تجاوباً. ظلّوا كذلك إلى أن مرّ أحد الوجهاء فانتهرهم شاتماً إياهم لاعناً قلّة حيائهم فتفرّقوا.

لكن الأزمة الكبرى كانت حينما وصل موكب العروس إلى البير الشمالي وقد زفّها الشباب بالرواديح، وجاء موكب قرية العريس ليتسلّمها، فطلب موكب العروس الدّرنْك، وهو مبلغ من المال يدفعه قوم العريس للشباب من قرية العروس، ليقدّمه هؤلاء للعروس المتغرّبة هدية. رفض الشباب من موكب العريس دفع الدّرنك فغضب الشباب في موكب العروس وكاد يقع اصطدام بالأيدي، وكاد العريس يعود بلا عروس، فتعود العروس وساعدها الملفوف المجبّر إلى بيتها بالخيبة. ولكن تدخل «أبو سالم» – وهو أحد الوجهاء – حلّ الأزمة. انتحى جانباً برؤوس الشباب وأفهمهم أن إصرارهم سيؤدي إلى أن يعودوا بالعروس منكّسي الرؤوس. هدأ الشباب وسُلّمت العروس بدون درنك، مع أن بعض شباب قريتها ظلوا غير راضين، فهمس أبو سالم في آذانهم: لو كنتم صادقين في غيرتكم عليها لوجدت في واحد منكم من يمنع غربتها، فكُفّوا عن الوجهنة والنّدخ الكاذب.

لم تطُل إقامة العروس عند العريس، فاختصرت الشهر الثاني وعادت إلى موقعها لا سالمة ولا غانمة. أرادت أن تسيطر على البيت كلّه واصطدمت بالأبناء الذين كان بعضهم شُبّاناً، فارتفعت حرارة المشاكسة إلى درجة التفجّر.

كانت سليطة اللسان والإشارة. سرعان ما تسخر وتُطلق صوتها الحادّ قائلة: «إشمَرَّه» – وهي صيغة خاصة يُستعاض بها عن قول «اسم الله»، وتُنغّم بالهزء والاشمئناط، وقد تُحرك كفيها في وجه غريمتها كحركة الفَراش، ولا تخجل أن تتيح لبعض أصابعها حريّة الحركة.

حتى بعد عودتها الذليلة إلى البيت ظل صندوقها مستقلاً، وظلت تجمع المال مثلما تبقّل العكوب، لا تبالي بالشوك وهي تعمّق غرز السكين لتحيط بالجذر، ثم وهي تزيل ذلك الشوك تحضيراً للطبخ والوجبة اللذيذة.

– هل سمّيتَه؟

كان في سؤال الوالدة شيء من الزهو.. فهو ولد.. وبذلك تحظى برضا من حولها.

– إسمه يحيى.

«يا زكريا إنّا نبشّرك بغلام اسمه يحيى».

قال الراوي: بعد أكثر من ستة عقود التقى يحيى صديقاً قديماً في الولايات المتحدة، وكان ذلك الصديق غيّر اسم عائلته. ظهر الاسم الجديد على منشوراته وكتاباته. وقد اقترح على يحيى أن يغيّر اسمه المحبوك قائلاً: ألا تعتقد أن لاسمك هذا ظلالاً حاسرة؟

ولن ينسى ذلك الاستفهام الذي ورد في مسرحية عادل إمام «شاهِد ما شافْشِ حاجَة»: «ودَه اسمٍ تقابِل بيهْ ربِّنا»؟

تململ الراوي واستأنف: أما الزلزلة التي وُلد صاحبنا بعدها بسنة فهي تلك التي ضربت البلاد سنة ١٩٢٧ طولاً من صفد إلى نابلس وما بينهما وما عبرهما. كانت قاسية هدّمت كثيراً من البيوت وقتلت العديد من الضحايا، ولما كانت الرينه ـ قرية الطفل على خط الطول هذا كانت إصابتها بالغة، فقد دُمّر من بيوتها الكثير مما اقتضى بناء حيٍّ كبير جديد على التلة الجنوبية الشرقية سُمّي القرية الجديدة. وأصبحت هذه «الهزّة» مرجعاً تاريخياً في القرية، فهذا الطفل وُلد سنة الهزّة، وهذا البيت بُني أيّام الحصاد بعد «الهزّة» بسنتين.

وظلت تلك الهزّة موقعاً تاريخياً إلى أن غاب الجيل الذي شهدها وهزّته.

2. رام الله

مثل غيمة تنقّلت طفولة يحيى في سماء بلده. «مَرُّ السَّحابَةِ لا رَيْثٌ وَلا عَجِلُ».

كان أبوه موظفاً في دائرة «مساحة فلسطين». ولأن الأراضي لا تسعى إلى المسّاح فإن على المسّاح أن يسعى إلى الأراضي حيث هي ليقوم بمسحها ورسم خرائطها بمقياس الرسم المقرّر. لا بدّ أن يذرع هذه الأراضي بقدميه، يتسلّق الصخور ويغوص في الرمال ويناور المواسم والفصول لأن عمله في أحضان الطبيعة العارية. وقد يعيش في الخيام حيناً وهو على أهبة للرحيل القريب إلى الغاية القريبة. أما الدواب فتُستعمل لحمل الآلات والشواخص.

والعائلة تنتقل مع الوالد من بلد إلى آخر ومن قرية إلى أخرى. يستأجر حيثما حلّوا بيتاً، وأحياناً غرفة واحدة، لمدّة لا تطول كثيراً إلى أن يكون الانتقال. ظلّ هذا شأن العائلة إلى أن ثقل الحمل وزاد عدد الأفراد، ونشأت متطلّبات المدارس. فلما ولد الطفل الثالث صعبت الرحلة، فاستقرّت الأم والأطفال وظل الوالد متنقّلاً يجيء في أوقات تختلف باختلاف البُعد.

الذاكرة مسرح كبير معتم. تسلّط عليه دوائر ضوئية متفرّقة تجلو مشهداً أو موقعاً أو شخصاً أو حدثاً أو صوتاً أو رائحة.. أما ما لا يصل إليه الضوء فيظلّ كامناً في العتمة. مشاهد تغتسل بالوضوح، ثم انقطاع مظلم ومشاهد أخرى يتثاءب فيها الضوء وتضطرب الملامح.

ذاكرة للعين فيها تلك السفوح المطرّزة بكروم اللوز والتين والزيتون في الطريق إلى القدس، وتلك القباب الشامخة وراء السور في القدس، وكروم العنب والأجاص في رام الله وجفنة، وهيبة الجمّيز الوارف الظلال وتلاعب هامات النخيل مع الريح في أسدود ومجد في

قطاع غزة، ولهفة انحدار جبل الكرمل لعناق الشاطئ في حيفا، واحتضان الخضرة لبحيرة طبريا، وخرير القنوات المنسابة بين البيوت في بيسان، والحجل يكرج على سفوح الجرمق، وأمواج المتوسط تتلاطم صاخبة متدافعة في مغارات رأس الناقورة.

وذاكرة للفم تنتعش لعصير العنب ومذاق الجُمّيز والزبيب والقطّين وفستق العبيد، وسمك المرمور وسمك المشط.. في خريطة مترامية تتداخل فيها المشاهد وتتعانق الصّلات.

وذاكرة للأنف تحمل ما عرضه العطّارون في سوق الأربعاء في أسدود، وأنفاس المباخر المترنحة في كنيسة القيامة في القدس وإغواء لهاث الفستق المحمص عند باب الخليل في القدس، والروائح المنبعثة من مواقع الحمامات المعدنية في الحمّة، ولذع العطر الذائع من القناني المكسّرة على الجثّة في التابوت أثناء الجنّاز في القرية، وتلك العطور الناعسة الساحرة التي يطلقها شلال شعر متألق أو ثوب حسناء يَعد ولا يفي.

وذاكرة للأذن تستعيد أصواتاً أشتاتاً، آنسةً ونافرة. وللصّوت في روع يحيى وقع خاص وذاكرة خاصة. وكلما كان الصوت أنعم وأشفّ كان له مسرى الحرير في عروقه. وتختلط الأصوات.. صوت الليل يدندن ليسلّي نفسه بثرثرة الصرصار الذي لا يكلّ، صوت الدّلو يهبط خليّاً يترنّح على جوانب البئر، وصوت جدار البئر يحتضن الدلو المليء ويشرب من كفّيه، صوت إجفالة الهدهد وقد ذُعر في كرم الزيتون.. أصوات إنسانية متنوعة كتنوّع بقول الحقل: صوت مرفرف بالدهشة والفرحة، صوت صوّانيّ وصوت رخو، صوت كامن في حفرة لا يدهش ولا يقلق وصوت ترتعش فيه الشيخوخة بأناة وثقل، ونشيج الثاكل كحبل الحزن علّقت عليه ثياب مبلولة تقطر تفجعاً، شهقة كرمة وقد فاجأتها النشوة وهي تغرق في بحر العسل البارد، صوت الأب الغاضب وقد توشح بالشوك وصوت الأمّ المستعطف في لين واعتذار. غابة أصوات حافلة تستثير الكوامن وتنفتح على مشاهد زمكانية مزوبعة.

العائلة في رام الله. انتقلت إلى هذا البلد قبل شهور قليلة.

صباح صيفي ينتشر فيه عطر ناعم تبوح به أشجار الصنوبر، ولحن السكينة يعزفه النسيم النشيط على ضفائر تلك الأشجار.

أم يحيى تعصر العنب وتقدم لولديها كأسين تفوران بالعصير الحيّ. هذا الشراب أصبح من طقوس الصباح. «العنب صحّة بحت» تقول الأم لجارتها أم فؤاد، وتقدم لها كأساً لطفلها.

أنهى يحيى كأسه مسرعاً وأراد أن يركض إلى الحاكورة ليتفرّج على الطاووس الذي في حاكورة الجيران. أخوه الأصغر يتوسّل باكياً أن يذهب ليرى الطاووس أيضاً.

- «خذ ابراهيم معك. دير بالك عليه».

تردّد يحيى فأخوه الذي يصغره بثلاث سنوات لن يتيح له أن يتفرّغ للمشهد. لكنه مع ذلك انتظر أخاه حتى يفرغ من شرب كأسه. حثّه أن يسرع. أمسكه بيده وسارا في الحاكورة نحو السياج. اشترط على أخيه أن يتفرّج ساكتاً. قال له: «إذا حكيت بِزْعَل الطاووس. خليك ساكت». وافق الصغير. كان قصيراً لقّبوه «الصاع».

المشهد باهر. الطاووس ينشر قوس ألوانه في عين الشمس، يتشامخ الذيل، يتمايل قليلاً ويزداد التألق في الاهتزاز. ثم يمشي الطير العملاق فوق جذوع خشبية رُفعت وصُفّت مسرحاً لكبريائه. هذه الزهرات المذهّبة وما فيها من زرقة خضراء داكنةٍ انتظمت في قوسٍ يُعجز البيان. الطير يتهادى، العنق المتقوس يتحرك مع الخطوات الليّنة، والشمس تراجع زينتها في مرآة الذيل الساطعة.

أخرس المنظر الأخ الصغير فظلّ ساكتاً، ويده في يد أخيه وهما يتقدمان نحو السياج بكثير من الرهبة فالطاووس يسير نحوهما. اكتشف يحيى هذا الطاووس قبل بضعة أيام. الجار - وهو موظف في دائرة الزراعة - أحضره في الأسبوع الماضي ورتّب له في حاكورته مبيتاً ومسرحاً. لم يكن الطاووس يعرض فتنته دائماً، فقد يكون في قنّه أو وراء جدار ذلك القنّ، أو يسير دون أن ينشر الذيل.. ولذلك لا بدّ من الترصّد لتتصيّد مشاهدته وهو في معرض السحر.

وقفا قبل السياج بعيدَيْن قليلاً حذراً واحتياطاً. عندما وصل الطاووس إلى آخر الجذع استدار فكشف لهما عن مؤخرة مروحته، وسار بكثير من الخيلاء والرشاقة اللتين تحاول أن تستلهمهما عارضات الأزياء على المسرح.

فجأة تمزق الفضاء واحتضن يحيى أخاه بقوّة وقد لفّهما الذعر. زعق الطاووس زعيقه المنكَر. صوته جارح كسكين مثلّمة تشلّخ جلد الجو.

تراجع الأخوان وقد التحمت يداهما الطريّتان بكل ما وسعهما من قوّة. انفجر الصغير بالبكاء.. جرّه يحيى إلى البيت راكضين.

لم يصدق يحيى أن هذا هو صوت الطاووس. لا يمكن أن يصدر مثل هذا القبح عن مثل هذا الجمال.

تذكّر يحيى هذا الطاووس بعد سنين حينما سمع حكاية الحسناء التي دخلت متجراً مقدسياً فبهرت التاجر بجمالها، فلما سألته بلهجة وعرة خشنة عن ثوب من القماش: «بيش المتر من هاظ؟» قال لها: «تقبريني وانتِ ساكته واقبرك لما تحكي».

الحاكورة ملعب يحيى، والتراب مسرح الخيال.

إنه مستغرق في مراقبة قوافل النمل. الحركة الدائبة لا تكلّ. كل نملة واثقة الخطوات، لا تتسكّع ولا تلتفت إلى غير المسيرة المنضبطة.

يقطع يحيى الطريق على واحد من حبال النمل.. يضطرب الصفّ قليلاً ثم يعود ليلتئم. كيف تتعاون نملتان على حمل ثقيل؟ كيف تتفاهمان؟ يثرثر ويبربر، يخاطب النمل بصوت عالٍ. أحبّ يحيى هذه المخلوقات، أعجب بها وصانها. لم يرد أن يمسّ بها، مع أنه أحسّ بالقوة حيالها.. هو ذلك الصغير في البيت ولكن هنالك ما هو أصغر منه وأضعف.

أراد أن يعرف مساكن هذا النمل الذي يهبط تحت التراب ومعه القمح والقش وغير ذلك. أحضر عوداً وأخذ يوسّع ثقباً ينبثق منه النمل. التراب يهيل ويغلق الثقب. يتابع الحفر. من النمل ما يُدفن تحت التراب، ومنه ما يضطرب ويصاب بالفزع، ولكن المسيرة سرعان ما تُستأنف.

راح يحفر ويكوّم التراب قرب الحفرة ولكنه لم يكتشف بيوت النمل. تسلقت على يديه وهما تحفران بضع نملات سوداء مذعورة، أزعجت جلده فراح ينفضها ويشعر بحكّة مؤلمة.

كان يحب الحفر في التراب، وهو يثرثر حالماً.. يريد أن يصل بعيداً في الأرض. ويرسم لنفسه لقاءات مع مخلوقات مختلفة هناك. لكن الذي يدهشه حتى اليوم تلك العادة الغريبة التي اعتادها. كان يحمل معه إلى الحاكورة بعض الدمى والألعاب التي يشتريها له أبوه من القدس ويحفر حفراً عميقة يدفنها فيها ثم يغطيها ويغادرها هناك. كيف هان عليه التخلّي عنها ولماذا؟

كان في هذا البيت حضن دافئ آخر يرتاح له يحيى ويطمئن. أم جليل الجارة في الطابق

الثاني تسير نحو العقد الخامس، وهي ملء الثوب الأسود الفلاحي المطرز الذي رُصف ألواناً يغلب عليها الأصفر والأحمر والأخضر وقد تشكلت زهوراً وأوراقاً، أحاطت بذيل الثوب وبجانبيه، إلا أن الصَّدر كان يحظى بالصدارة من الجهد وكثافة التطريز.

وأم جليل أرملة حملت عبء الترمّل وتربية جليل وبديعة من كدّ يديها وضياء عينيها وعرق جبينها، فهي تطرّز تلك الثياب الجميلة الباهرة تلبّي طلب نساء من البلد ومن القرى المجاورة، وقد استعانت ببديعة في عملها هذا، فأتقنت هذه المهنة بل نافست أمّها في الإبداع. أما جليل فقد تزوّج وفرحت أم جليل بحفيد منه، ولكنه يسكن في القدس، فباب الرزق هناك أرحب.

وفي وجه أم جليل أنس يشع ورقّة لا يوحي بها لأول وهلة جسمها الكبير ووجهها الممتلئ الذي لا يترك للجدّية أن تأخذ إجازة. وكان يحيى يعد نفسه إذ يزورها بحفنة من الزبيب وبعض حبّات القطّين، وذات مرة قدّمت له مربّى السفرجل الذي كانت تتقن صنعه.

إلا أنه كانت تجتذبه بديعة التي تحضنه بحنان شديد، تقبّله وتطلب إليه أن يقبّلها في هذا الخدّ مرة.. ثم في الخد الآخر لئلا يزعل. وترتاح يده لشعرها تسرح فيه وهو يقول لها: «إنت حلوة»، فتقول: «تتزوجني؟». وكثيراً ما كانت تأخذه معها إلى الحائك في السوق لتشتري منه الشّقق، كل شقّةٍ محدودة بعرض النول. وقف يحيى أمام هذا الحائك يتأمل حركته وحركة النول – والنسيج يلتئم شيئاً فشيئاً ويطول رويداً رويداً. ثم حمل شقّةً صغيرة سمحت له بديعة بها، ومضى معها إلى دكان آخر فاشترت لفّات من الخيطان الملوّنة، وقد أكّدت على نوعها ومكان صنعها لتضمن التطريز الذي ترهَق فيه العينان وتنهَك اليدان فلا يبهت اللون أو يغيّر ملامحه الغسيل. فالثوب لا بدّ أن يكون طويل العمر، صابراً على كل تقلّبات الحركة والسكون.

أما جارتهم أم فريد فقد بقيت في رام الله مع ابنها الصغير تترقب أخبار زوجها الذي سافر إلى الولايات المتحدة مع آخرين من بلده يطرق أبواب الرزق بيديه ورجليه ورأسه. يحمل ألواناً من البضاعة في حقيبة ويطوف بالبيوت يبيع ما تيسّر، ويعيش مع آخرين مثله في بيوت يصعب على غيرهم أن يأوي إليها. وكانت أم فريد تنتظر ما يصلها من المال لضمان عيشها وعيش ابنها. وتلجأ كلما وصلتها رسالة إلى الجار أبو جريس الموظف في دائرة الزراعة ليقرأها لها ويفسّرها.

وفي الليل يجتمع الجيران جميعهم في عقد أبو فؤاد، زميل والد يحيى وابن قريته. كان بارعاً في سرد الحكايات يرويها بنبرات ملوّنة وحركات دراميّة. وفي تلك الحكايات كثير من العجائب والغرائب. يذكر يحيى حكاية الدَّلو الذي يلبّي النداء ويخرج مليئاً بأنواع الطعام: «يا سطل إطْلِعْ لحم!».

وأبو فؤاد يبهّر التفاصيل ويتبسّط في رسم الشخصيات ويدحرج الأحداث إلى موقع متأزّم فيتوقف ويرجئ الحديث إلى الليلة المقبلة. وقد أعجبه تعلّق العيون بشفتيه وملاحقة الأنفاس لمجرى الحكاية تتوتر حيناً وتنبسط حيناً آخر. وفي السهرة الكثيرات من الجارات الصبايا ومن ما زلن يجرين مع مطلع العشرين وفيهن أم فكتور الطيبة القلب البريئة الصراحة. أساء أبو فؤاد تفسير طيبتها وحسن نيّتها وزقزقة ضحكتها فترصّد وغافل ودخل يوماً إلى العقد الذي تسكنه عائلتها وقد غاب زوجها في العمل وغابت زوجته وابنها في القدس. حاول أن يغازلها ولم تفهمه لأول وهلة، وعندما أمعن صاحت تستنجد بالجيران، فهرعت أم يحيى إلى أم فكتور.. انهارت الخطة وانهار أبو فؤاد.. وخرج بعد حين وهو يتلعثم بالاعتذار متوسلاً أن يبقى الأمر مكتوماً. وكانت المجابهة العسيرة حينما علم أبو يحيى بالأمر فوبّخه بعنف ولم يقبل منه اجتهادات التفسير المختلفة. سمع يحيى أم فكتور وهي تروي لأمه التفاصيل وتصف ذهولها وخوفها من عينيه الذئبيّتين اللتين كان ينبعث منهما شرر الشرّ حين مدّ يده اليها وقد ارتخى فكُّه وغامت الكلمات في فمه.

علم أبو فكتور بالأمر، ولكن أم فؤاد ظلت تجهله، ولا تفهم سبب الجفاء المحنَّط الذي أصاب العلاقة مع أولئك الجيران الذين ما عادوا يأتون للسهرة. أما موهبة أبو فؤاد في رواية الحكايات فإن شيئاً قصم فقارها، فلم يعد يأنس في نفسه ذلك التدفّق والإلهام.. شَرْخٌ في زجاج الأنس الصّافي ينذر بالتحطّم التامّ.

3. يا قدسُ

الشمس عذبة ... حضن ناعم.

ومن نوافذ الباص تطلّ أشجار اللوز المزدهرة تتأوّد كارتعاشة القلب للقبلة الأولى.

الطفل في الرابعة من عمره يحاول أن يرسم في خياله صورة للمدينة التي تسافر اليها العائلة لتقيم حيناً. يحاول أن يركّب الصورة من قطع من مدن رآها. قال أبوه: القدس هي العاصمة، المدينة الرئيسة، فزاد ذلك من صعوبة تركيب الصورة. عندما أشرف الباص على المدينة من جهتها الشمالية – قبل الهبوط في الوادي للصعود التالي – كان المشهد باهراً، قبّة من الذهب يحضنها الأفق، مآذن وجرسيّات تلمع في عين الشمس الربيعية، وامتداد بيوت وأشجار.

بعد حين كان الباص يدخل المدينة والطفل يتطلّع بلهفة يريد أن يلتهم المشهد.

صورة المشهد المترامي، الصورة البانوراميّة تتقلّص، العدسة تنحصر لتقطف تفاصيل صغيرة. يلتوي الباص مع أحد الشوارع.. بيوت من الحجر الأبيض نبتت مع البساتين. الشبابيك والأبواب من الحديد. الألوان تتراوح بين الأخضر والبنّي. يمعن الباص في اختراق المدينة. هناك حوانيت ومشاغل لا تفتخر بكثير من النظافة، والشارع هنا يداعبه الوسخ.

يمضي الباص، يلتوي مع أحد الشوارع، ويبطئ قليلاً، بل ينفخ في البوق المعلق إلى يسار السائق نفخات مزعجة محذّرة. هناك في فسحة صغيرة على هامش الشارع أطفال في

مثل سنّه أو أكبر قليلاً يلعبون. إنهم يلعبون بالبنانير مثله، ومثل أبناء قريته! سذاجة الطفولة كانت ترسم لأطفال القدس صورة كبيرة غامضة أعلى من قامته الصغيرة.

ولكن صورة الأطفال هذه على خلفية العمارات والحوانيت الكبيرة والصغيرة، والمدينة الحلم سرعان ما عقدت بينه وبين القدس صلة وثيقة منسوجة بالكثير من الخيوط الملوّنة. القدس.. أطفالها مثلنا في ألعابهم ولغتهم وقاماتهم.

البيت الذي سكنته العائلة في حارة «الطوري» حوله حديقة كبيرة يحيطها سور حجريّ مرتفع، أما الطابق الثاني فتسكنه عجوز حبشية تتكلم العربية بلكنة تلتوي وتتعثّر استلطفها الطفل كما استلطف الحلوى التي كان يظفر بها منها كلما زارها. وكان بيتها واسعاً حافلاً بالأثاث الجميل الفاخر يشاركها فيه عدد من الكلاب والقطط المدلّلة.

زوّار البيت من زملاء الوالد في مخيّم المساحة، ومنهم عدد من أبناء قريته. يبدو أن أوائل من عملوا في المساحة كانوا يرشّحون أبناء قريتهم من الأقارب والمعارف لهذا العمل، وبذلك عوّضوا عن الاغتراب الطويل عن القرية.

تختلط الصور والروائح. كان بيتهم خارج أسوار القدس، ولكن تلك الأسوار كانت توحي له أن عمالقةً بنتها. حين ينظر اليه باب الخليل من مساميره الضخمة الشامخة يحسّ بالرهبة ويتساءل من هو الجبّار الذي يفتح هذا الباب أو يغلقه؟

لكن عند باب الخليل رائحة ذكيّة، رائحة الفستق المحمص، يحمّصه على عربة واسعة بعض الباعة السود، ممّن يلفّون رؤوسهم بعمائم بيضاء رقيقة، ويرطنون بلهجة عربية يصطدم فيها حرف الحاء بالهاء، وتضيع الضمائر المتّصلة بالأفعال بين المتكلّم والمخاطَب والمذكّر والمؤنّث. وينطلق الدخان من مدخنة على العربة فيُذيع رائحة الفستق الذي أغواه عشق النار فنفخت فيه نكهة ذكيّة وشقّقت ثوبه البنّي، وذرت فوقه الملح. إنه «فستق العبيد» الذي يلفّون لأجله مخروطاً من الورق، ورق الصحف أو الكتب، أو ورق امتحان التلاميذ الذي وصل بطريقة مجهولة إلى أيدي هؤلاء الباعة.

وكان التمتع بتلمّظ الفستق الدافئ واحتضان الكف لمخروطه، وتسلّل الرائحة إلى الأنف لتبعث شهية لا تكتفي بمخروط واحد - كان ذلك أرخص وأخف على الجيب من الاتجاه إلى الناحية المقابلة في الشارع حيث الحلوى الشرقية من الكنافة وأخواتها، وقد اصطفّت كلها

تحت الآية التي عُلّقت مكتوبة بخط الثلث الجميل: «كلوا من طيّبات ما رزقناكم». أدرك ذلك عندما جاء إلى القدس بعد سنين وقد أصبح فتىً في الخامسة عشرة، ليدرس في «الكليّة» ويقيم أربع سنوات، تفتّحت فيها أكمام شخصيّته، وقوّت علاقته بهذه القدس الساحرة.

الطفل وأخوه الأصغر يقضيان أيامهما في البيت ويتسليان بشتى الشؤون ومنها اللعب في الحديقة، والصراع والقتال. كان الأخ الصغير يرابط عند المدخل في الساعة المقدّرة لعودة الوالد، فلا يكاد يفتح الباب حتى تنهال الشكوى عن أخيه أنه اعتدى عليه، وتبتلّ الشكوى ببعض الدموع فيُستثار غضب الوالد ويكون تهديد ويكون وعيد.

وقد نبّهت الأم ذلك الأخ الأصغر ليكفّ عن فعلته تلك فالأب منهَك يريد الراحة ويجب أن لا نستقبله بمثل هذا المشهد.

ذاتَ أصيل كانت العائلة تتنزّه في شارع يافا. كان الازدحام شديداً على الرصيف. الأم تمسك بيد ولد والأب يمسك بيد الولد الآخر. السير مع الأطفال في هذا الزّحام ليس بالأمر اليسير. كيف ينظر الأطفال إلى بحر الناس الذين يغطّونهم بطولهم وثيابهم وحركات أيديهم وأرجلهم العملاقة؟ المسرعون يفكّون بحركتهم العصبية يد الطفل من يد أمّه، أما الذين يبطئون ويتلكأون فإنهم يعرقلون المسيرة. وإذا كان الكبار يستطيعون أن يمدّوا أبصارهم إلى بعيد وأن يحيطوا بعيونهم بما حولهم، فإن الأطفال في هذه الغمرة يضيقون ذرعاً بالكبار والزحام، لكنهم كان يسلّيهم التفرّج على واجهات الحوانيت، وأكثرها استثارة حوانيت بيع لعب الأطفال... إذ تطل منها دمى صغيرة وكبيرة ملوّنة، وتطلّ منها سيارات مختلفة الأشكال والأحجام.

فجأة افتقدت الأم طفلَها في الزحام فلم تجده. ارتعبت وهاج الأب. وعادا مع الطفل الآخر يبحثون. كيف يسألون؟ ومن يسألون؟

أجّل الوالدان النقاش حول من المسؤول عن ضياع الطفل، وإن يكن الوالد مازال يرطن غاضباً بكلمات تنطلق بعفوية نزقة. عادوا أدراجهم بذعر سالكين السبيل الذي جاءوا منه متفرّسين في كل شيء. وكانت المسيرة عكس التيار مما زاد الأمر صعوبة. وأخيراً بعد دقائق كانت ثوانيها تسكب على الأعصاب جمراً وجليداً محرقاً وجدوا الطفل واقفاً أمام واجهة زجاجية كبيرة تصطف خلفها الألعاب باستفزاز بارع. كان وجهه ملتصقاً بالزجاج وهو يحاول

أن يمدّ يده إلى سيارة حمراء هي في متناوَل اليد... لولا الزجاج العنيد الأصمّ.

لم يحسّ أحد كيف سحب يده من يد والدته بخفّة حينما لمح تلك الواجهة، وانطلق يتصيّد الحلم الذي يرفّ أمامه، فتلك هي المرة الأولى التي يرى فيها مثل ذلك المشهد، وشفافية الزجاج خادعة، وهذا الحشد من الدمى والسيارات يدغدغ الخيال بعنف.

اختلطت فرحة العثور على الطفل بانفجار غضب الوالد على الأم على التفريط والإهمال. أية مسؤولية هذه؟ كيف يفلت يده من يدك ولا تحسّين؟ أهكذا يكون التفريط؟ وتدافعت الكلمات وارتفعت النبرات. لكن الأم كانت مستعدة أن تسكت عن كل شيء وتحضن الإبن بلهفة من ترتدّ اليه روحه بعد فراق.

وكان من الصعب الآن إبعاد الطفلين عن الواجهة، فقد انتبه لها الطفل الصغير الذي أخذ يتأمّل المعروضات بحسرة.

*

أشباح ذكريات، بعضها واضح والبعض الآخر مرتبك غائم لا حدود له.
سبت النور.

الأجراس تملأ الفضاء برنينها. والأجراس مختلفة الأحجام والأنغام وهي تُقرع بإيقاع بارع، كأنما تتحاور.

الربيع تتمطى أنسامه في الفضاء، والعائلة تجتاز باب الخليل نحو كنيسة القيامة. الأزقّة مزدحمة، البلاط زلِق، والحوانيت على الجانبين تفغر أفواهها جشعاً أو دهشة أو بلاهة. والطفلان مشدودان كل بيد واحد من الوالدين، والتلكّؤ معناه سحب ودفع مؤلم من اليد إلى أعلى وإلى أمام.

الاقتراب من الكنيسة اختراق لأزقة تغرق في الرنين المتعالي، رنّات الأجراس تتدحرج وتتلاطم على الجدران.

مرة أخرى اقتحام لزحام خانق عند باب الكنيسة، ولكن أنظار الأطفال ترتفع إلى أعلى فترى سقوفاً عالية مزخرفة، وإيقونات غريبة الأشكال والألوان، والبخور يقتحم الأنوف بعنف. زوبعة من الرائحة والرنين والمشاهد والتدافع، وأصوات تراتيل لا تميّز كلماتها، ولكن أنغامها

عليها مسحة من الحزن وإيقاع حاد يصدر عن صولجانات نحاسية كبيرة تتقدم مسيرة الزعامة الكهنوتية.

الوصول إلى حيث تجري الطقوس في مثل هذا اليوم من المستحيلات التي لا يتحداها إلا رجل عنيد التصميم كالوالد. ولكن هذا التصميم يتحدّى كتلاً بشرية احتلت لها مواقع قبل أن تختنق المداخل والممرات والمقاعد. كل ما يعرفه الطفل أن تلك كانت مغامرة عسيرة تلقّى فيها جسمه الكثير من لطمات الارتطام بالناس، وزحمة العرق. كادت يداه تنخلعان من الكتفين لكثرة ما عانتا من الشدّ والدفع.

بحر الضجيج والبخور والتراتيل والتمتمة يتلاطم والترتيل سجال بين فريقين لا تدرك منه سوى أصوات تترنّح وتتأرجح، تعلو وتهبط، تلتوي ثم تستقيم. والطفل يحسّ أنه في سجن من الأجسام المعتمة المحيطة به، يتشبّث بثوب أمه، ويحاول أن يرتفع بعينيه إلى فوق فيتأمل الرسوم التي على السقف العالي.

فجأة لمع في المكان نور باهر.. قالوا: «إنه سبت النُّور الذي يسبق أحد قيامة المسيح». انطلقت الأجراس بنغمة نشيطة، ونُفخت في الترتيل روح قوية فيها العزم والأمل، ولكن اشتداد الحركة حوله هدّده بالاختناق، فتوسّل أن يحملوه ليتنفّس بشيء من الحرية وليرى ما تُتاح رؤيته بين الرؤوس التي أينعت بالإيمان.

4. الكهف المعلق

- «أين اختفى هذا العفريت؟»

تمتمت الجدة بقلق، ثم استدركت بسرعة: «اسم الله».

أخذت تناديه. توجهت إلى البستان تبحث عنه وتنادي. لم تجده تحت الدالية، ولا تحت التينة، ولا تحت أي من المشمشات التي كان يحفر تحتها ويدفن البذور.

عادت إلى البيت تنادي وتفتّش، ثم صعدت السلّم إلى المتخّت الخشبي الواسع - العليّة الداخلية المدعّمة بجسر حديديّ، والتي لا تبعد عن السقف أكثر من متر.

كان المتخّت معتماً، وهو مليء بأمور مختلفة. صندوق خشبي، وبعض أشياء من عدّة النجارة، وبعض الأكياس. لا شيء يُرمى أو يُستغنى عنه، كل شيء يمكن أن يُستعمل، ولذلك تحتشد على المتخّت أمور عجيبة غريبة.

كان يحيى يتسلّل إلى هذا المتخّت كلما سنحت الفرصة. فكأنه في كهف مسحور معلّق. هذه العتمة الشاحبة تتيح رؤية الأشياء وكأنها محاطة بهالات مضطربة بين الغموض والحدس. فكيف إذا كانت كلها جديدة لم يلمّ بها وعي الطفل بعد؟

ومع أنه خفض رأسه ليوازي حافة الصندوق، إلا أن غطاء الصندوق كان مفتوحاً.

العينان القادمتان من الضوء خارج البيت احتاجتا إلى شيء من الوقت لاعتياد العتمة ورؤية الأشياء فيها. وعندما سارت الجدة محنيّة الظهر إلى الصندوق رأته:

- «يا مسخوط، شو بتعمل. ليش بتردّش؟»

زاد الخوف من احتباس اللسان. كان يحيى يرتعد.

- «كيف لقيت العلبة؟».

كانت تلك علبة من الصفيح مخبّأة بجهد، عليها أشكال نافرة، وبعض الشخوص عليها ملونة. لعلها كانت يوماً ما علبة حلويات، ولكنها كانت مخبأ الجدة. فيها أوراق نقدية مما وفّرته، وفيها بعض الحلي الذهبية والفضية. حتى الجدّ لم يكن يعرف بوجودها، ولا بما فيها.

- «ألله يشحّرك، كيف لقيتها؟».

ظل الطفل صامتاً، وهو يحس الرعدة في جسمه.

أخذت الجدة العلبة، عدّت النقود وتفقدت الحلي، وعادت تسأله:

- «كيف فتحت القفل؟»

لم تصدّق أنه وجد القفل مفتوحاً، فحركه قليلاً، وحرك الغطاء.

من فتح القفل ونسيه؟ من يصعد إلى المتخّت؟ البنات؟ أيّ منهن؟ وماذا تفعل بالصندوق؟

أسئلة كثيرة خامرت الجدة، ولكن يحيى تسلّل لينزل عن السلّم. فقالت الجدّة:

- «استنّى.. أنا بنزّلك.. استنّى».

لم ينتظر ونزل عن السلّم، وما كادت قدماه تلامسان الأرض حتى انطلق يركض خارجاً من البيت، لئلا تلحقه عصا الجدة بعد أن تنزل.

لكن أجواء المتخّت كانت مغناطيساً يجذبه إليه، فيتسلل كلما أتيحت الفرصة. هناك أوراق مكتوبة وعليها بصمات أصابع. هناك كتاب، وبعض الصور التي صعب عليه أن يفك عقدتها.

كان دائماً يسرق تلك اللحظات، أثناء غياب جدّته. لم يكونوا يبعدون السلّم فهو ثقيل وطويل. كما أنه مُثبت مع المتخّت في موضع الإلتقاء.

كان في بعض الأحيان يريد أن يسمع صوتاً خارجاً من الصندوق الذي خبّأوا مفتاح قفله. أو من تلك الزاوية البعيدة المعتمة. هل يمكن أن يظهر له جنّي أو عفريت ينام في النهار ويتجول في الليل. يستيقظ على حركته فيهبّ غاضباً يصيح في وجهه مهدّداً.

ليت ذلك العفريت يظهر. لا.. لا، قد يكون جنّياً شريراً.. وبين روح المغامرة واستطلاع المجهول وبين الرهبة مما قد تتكشف عنه الأمور - أرجوحة مرهقة.

- «شبّيك لبّيك، عبدك بين إيديك».

هل كان ذلك صوت العفريت المنفلت من الصندوق، أو صدى صوت خالته التي كانت تبرع في رواية الحكايات.

إنه عفريت قزم وليس في مثل جسم العفريت الذي حدّثته عنه خالته.. كانت تحدثهم عن عفريت عملاق، ولو كان هذا العفريت مثله لاخترق رأسه وكتفاه السقف.

وهو ليس غولاً أو غولة.. إنه مستعد للخدمة وتلبية ما تشاء. هل هو جنّي؟ لعلّه كذلك، فمن الجنّ خيّرون.

في العتمة الشاحبة لا تدري كيف ينطلق الخيال ليمحو الحدود بين الواقع والحلم. والطفولة تميل إلى أن تعيش الحلم، تحاور وتنسج الأحداث.. تعيشها ولا يخامرها أي شك في حقيقتها.

يحمله العفريت على كتفيه وينطلق به في الفضاء. يحوّم فوق قصر تلمع في قلاعه جواهر باهرة الألوان.

- أنا بنيت هذا القصر، فهل يكون القصر الذي تريده مثله؟

- أريد مثله في ساحة البلد، هناك على البيادر.

أصدر العفريت أوامره إلى رجاله للبناء، وقال: سينتهون من بنائه بعد ساعتين. تعال أطوف بك في البلاد.

لم يزل يمتطي كتفي العفريت. كيف أمن ولم يخف؟

- أريد أن أفهم لغة الطيور والحيوانات - قال يحيى.

- كنت من جنّ سليمان الحكيم، ولذلك أستطيع أن أعلّمك تلك اللغات.

..

رأى يحيى اللقالق تتجمّع، وقد رفعت ساقاً واستندت إلى ساق واحدة.

قال الجنّي: هل تسمع ذلك اللقلق ماذا يقول؟ أنصت جيداً. إنه يقول للفلاح: «أحصد

ودقّ أحلب ولقّ»، فإن قطعان اللقلق تزور البلاد في موسم الحصاد.

تذكر يحيى أنه سمع هتاف اللقلق هذا ترويه جدّته.. فهل كانت هي أيضاً تفهم لغة الطير؟

- أتعرف كنية اللقلق عند الفلاحين؟
- نعم، أبو سعد، وهو يأكل الحيات.

وطالت الرحلة وكثرت أسراب الطيور المارّة بهم.. سمع بعضها يحث البعض الآخر على متابعة الرحلة.. «سنشرب ونأكل بعد حين.. لا يمكن أن ينزل السرب كله ليشرب واحد».

عندما حوّم الجنّي عائداً بيحيى إلى قريته رأى في ساحة البيادر قصراً كبيراً يحيط به سور عالٍ، وحوله حدائق وبساتين.

قال الجنّي: هذا هو قصرك قد جهز فتعال أطوّف بك فيه. دخلا القصر وقد فتح لهما الحاجب المدخل.. أي دهشة وأية روعة..

هل نام يحيى قرب الصندوق؟.
لما أفاق كان ريقه جافّاً والبرد يلدغه في قدميه وساقيه.

*

جدّته لأمه اسمها نجمة. يبدو أن هذا الاسم كان رائجاً في زمن ما، فهنالك عدد من «النجمات» في الحارة. أسماء الفتيات يمكن أن تُقسم إلى قسمين - إما أسماء موروثة مثل مريم وخديجة وفاطمة أو فيها شيء من الجهد: حلوة، باسمة، جميلة، رهيجة، وما إلى ذلك من الصفات. أو استعارات: نجمة، وردة، كوكب، سروه.. أما الذين كان الموت يختطف أبناءهم أطفالاً فكانوا يسمّون الذكور بأسماء الحيوانات: نمر، فهد، أسد، ذيب.. فيخشى ملاك الموت الاقتراب منهم، ويعمّرون.

كانت نجمة قديرة مدبّرة، وفيها ميل للسلطة والإمساك بزمام الأمور، وفيها الكثير من الثقة بالنفس. كان أبوها مخمّناً للأملاك، ويملك أراضي واسعة. ونجمة ابنته من زوجته الأولى، فقد ترمّل وتزوّج أخرى. ويبدو أن وفيات النساء عند الولادة كانت لعنة سائدة. فقد كان جدّاً يحيى، لأبيه ولأمه، قد فقد كل منهما زوجته وطفله أثناء الولادة - على الجورة -

كما يقولون، ولذلك تزوج كل منهما مرة ثانية.

وكان لنجمة أربعة إخوة وأختان. أحد هؤلاء الإخوة انطلقت رصاصة من مسدّسه وهو يركب على فرسه فقتلته. ودام الحداد عليه سبع سنين.

وهاجر منهم اثنان إلى الولايات المتحدة، فقد عرفت القرية مثل هذه الهجرة في مطلع القرن، بحثاً عن الرزق. وكان أحدهما متزوّجاً، ترك زوجته وسافر ليموت في المهجر فتزوجها أخوه الباقي في البلد. أما الثاني فانقطعت أخباره، ولكن بعد أكثر من خمسين سنة تعرّف أحفاد أخيه على زوجته في أميركا، ورأوا قبره في المقبرة العسكرية.

كانت نجمة في مطلع شبابها حينما زار والدَها وجيه ثريّ من السلط في الأردن، فأرادها عروساً لابنه. بعث فرساً أصيلة عليها خرج مليء بالهدايا، وعباءة من الجوخ.

لم توافق أم نجمة أن «تغرّب» ابنتها، فكيف يكون الرفض؟

قبلوا الفرس المهداة بما عليها، وأعدّوا فرساً أخرى أصيلة، ملأوا خرجها بالهدايا، وحمّلوها أيضاً عباءة من الجوخ، وقد فُهمت الرسالة ولم تتعكّر المودّة.

وهكذا رضيت أن تكون فيما بعد زوجة لأرمل، على أن تتغرّب وترحل.

ولدت نجمة ذكوراً وإناثاً. لكن الذكور كانوا يموتون وبقيت الإناث ـ ثلاث بنات.

وقد عُرفت بأناقتها. يذكر يحيى أحد أصدقاء العائلة وهو يتندّر متسائلاً: كيف تتقن نجمة إمالة عصبة رأسها متغاوية، وكيف تضفر قراميلها وقد علقت قطعاً من العملة الفضية في أطرافها. وكان وشم أخضر عند ذقنها، وعند زندها.

كانت تحتفظ بأحد الثياب من جهاز عرسها، تصونه ولا تلبسه، ليكون «ذهبة» يلبسونها إياها عند موتها – وهكذا كان.

5. لم تطر الحمامة

صاحت أم عباس بهلع.

مذعورةً قفزت عن السنسلة الحجرية المنخفضة الفاصلة حاكورة بيتها عن حاكورة عائلة يحيى. ركضت إلى يحيى وانتزعت من يده السكين وهي تنادي جارتها أمّ يحيى بقلق.

ذُهل الصبيّ لهجوم الجارة وصراخها فاضطربت يده، وتطلّع حوله بارتياب. كان قد غافل أمّه وتسلّل إلى المطبخ فأخذ منه سكّيناً، وخرج فجلس على عتبة الباب الشرقي بحذاء الحاكورة. أغلق الباب خلفه، فهو لا يريد أن يراه أحد، ولكنه نسي أنه كشف نفسه على الذين خارج البيت. أخرج حمامته من مخبئها وبدأ يحزّ السكين عليها يريد أن يختن نفسه. لحسن الحظ، أو لسوئه، كانت السكين مقلوبة فلم تجرح، ورأته الجارة قبل أن يفطن فيقلبها، فذُعرت واقتحمت البيت لتمنع المأساة.

خرجت أمّه في لهفة تسأل الجارة ما الأمر؟ ثم رأت السكين بيدها، والحمامة تتطلع في دهشة وتنصت للحوار متعجبة بليدة:

قالت الأمّ: «شو السيرة يا جارتنا؟».

- إسأليه.

أجاب يحيى: «بطهّر حالي».

- «إنت؟».

- «أيوَه، بدّيش المطهّر يطهّرني»!

المطهّر وعملية التطهير كانا مبعث رعب في الصبيّ. كان المطهّر يمرّ بهذه القرية وبالقرى المجاورة راكباً فرساً حمراء ومعه حقيبة جلدية بنّية كُتب عليها بدهان أبيض بالخط القارسي: «مطهّر أولاد». وكان بعض أطفال الجيران من ضحاياه رآهم يحيى وقد لبس الواحد منهم ثوباً سابغاً واسعاً ولُفّت حماماتهم الدامية من تحت الثوب، واضطربت مشيتهم. كانوا يتألمون ولكنّهم بعد أيام كانوا يشاركون في اللعب صابرين على الألم. أولئك لم يُختَنوا في الشهور المبكرة من العمر، وكلما تأخر الختان كان الإحساس بالألم أشد عنتاً وتعذيباً.

وكانت أمّ يحيى وخالتاه وأحياناً جدّه وجدّته يخوّفونه، إذا خالف إرادتهم أو تقاعس عن عمل، باستدعاء المطهّر «ليقصّها». وقد تكرّر هذا التهديد كثيراً وصار شبح المطهّر وفرسه وحقيبته مصدراً للرعب. كان وقع حوافر فرس المطهّر كأنه في صدره. ورأى سكّين المطهّر تقترب منه أكثر فأكثر.

اقترنت صورة المطهّر في ذهنه بملاك العذاب بُعث ليعاقب المخالفين. فالطهور عقاب وعذاب. وقد سأل أحد الأطفال المطهّرين مرة عن الذنب الذي ارتكبه وكان سبباً في ختانه.

أخذ يحيى يفكّر كيف يتخلّص من هذا التهديد فيقهر هذا الشبح، ويرتاح من العذاب الذي يبعثه اسم المطهّر ووقع حوافر فرسه، وما اختبأ في حقيبته من سكاكين أو مقصات..

وأخيراً توصّل إلى الحلّ. لماذا يترك لذلك المطهّر القاسي أن يهدده ويعذّبه؟ ولماذا عليه أن يحتمل ما يحتمله إخوانه الذين لحقتهم سكين المطهّر وعدّته الرهيبة؟ سيعالج الأمر بنفسه.

سيطهّر نفسه، سيقصّها هو لا المطهّر.

تكتّم على الخطّة.. وأخيراً شرع في التنفيذ.

كان قد جاوز الرابعة بقليل، وقد بقي المشهد مرسوماً في الذاكرة، بكل التفاصيل، بكل الأضواء والظلال.

دعت أم يحيى جارتها فدخلتا البيت وكل منهما تحذّر الصبيّ من خطر العودة إلى مثل هذه التجربة.

وصارت حكاية هذا التطهير موضوعاً للتندّر في العائلة بل وفي الحارة، وكانت مَثاراً للتعجّب من ردّ الفعل المذعور الذي كاد يكون مأساوياً.

*

قال الراوي: قال بعضهم: سُمّيت حمامة لأنها ترقد على بيضتين، وهي كناية لطيفة تنطوي على ملامح من براءة الطفولة وتبرعمها.

ولذلك ثار الدكتور عبد العال طبيب دائرة الصحة المصري الذي عمل في الناصرة أيام الانتداب حينما جاءه رجل يشكو ألماً في حمامته ففحصه وقال مستهجناً بلهجته المصرية الظريفة: «ألله! دي حمامة؟ دا غراب!»

وإلى التلاعب على هذه الكناية لجأت بعض الصبايا.

كانت زفّة العريس في عزّها. العريس يلبس عباءة بنّية مقصّبة، وعلى رأسه الكوفيّة وقد مال العقال جانباً بعض الشيء، ويده مرفوعة في الفضاء. لجام الحصان يمسك به شاب من أقرباء العريس ويقوده بيُسر وبطء. والحادي يشحذ حنجرته ويلمّع نشيده بشراب السكّر الفضّي بين الحين والحين يحتسيه فيجرد الصوت:

يا شمس غيبي من السّما عَ الأرضِ فيه عنّا عريس

وينتقل إلى اللازمة بعد حين: «هدا البلبل عَ الرّمّان»، فيردّ عليه صف الشباب وقد اشتبكت أذرعهم وتوالى تصفيقهم بحماس ونشاط يغالب العرق الذي يسيل على الوجوه.

وخلف موكب الرجال موكب النساء ينشد في جوقة أخرى وعلى إيقاع مختلف وقد حملن على الرؤوس صدوراً نحاسية كبيرة تربّع فوقها جهاز العروس محاطاً بباقات الزهور وأغصان الليمون، وهنّ ينشدن:

هاتوا لْنا هالعريسْ تَنشوف حَلاتُهْ

مالت إحدى الصبايا على جارتها فحوّرت كلمات الأغنية بصوت مسموع:

هاتوا لْنا هالعريسْ تَنشوف حَمامْتُهْ

وانفجرتا ضاحكتين بمرح وشيطنة، فصُوّبت اليهما النظرات، منها الضاحكة ومنها المستنكِرة.

وبعد، أليست هذه الكناية خيراً من تلك التي اتخذها مطهّر آخر من أهل المدينة؟

زعموا أن رجلاً ذهب من قريته إلى المدينة في يوم عاصف ماطر، وكان عليه أن يجتاز

وادياً تدفّق فيه السيل، فارتحل حذاؤه مع السيل، ووصل الرجل إلى المدينة حافياً. مشى في أحد الشوارع حتى رأى دكاناً رُسمت على واجهته الزجاجيّة صورة جزمة جلدية شامخة. فدخل وطلب أن يشتري حذاءً بدل حذائه السليب، فنظر إليه صاحب الدكان متعجّباً وقال: لستُ بائع أحذية.

- إذَن، ماذا تبيع؟
- أنا مطهّر!
- فلماذا رسمتَ جزمة على واجهة الدكان؟
- وماذا تقترح عليّ أن أرسم؟

وللحمامة تسميات تحبُّب أخرى في أغاني الأمهات لأطفالهن، وفيها ذلك التأكيد على الفخر بالذكورية والشماتة بأم البنت:

يا جارَه لَتحسديشْ   هذا رَبّي اللّي عَطا

أو ذلك التبجّح:

يا جارَه خبّي بِنتِك   كِبِر إبني وَاعْلَمتِك

وتلك الرؤية الظالمة لسرحة الحمامة وسرحة الأنثى حيث تقول أمّ الولد:

الحمامِه زيّ المُهره   تسرح في الليل تيجي بُكرَه

أما سرحة الأنثى فهي مأساوية قاتلة

ويبدو أن هذه الكناية غير شائعة في كل أنحاء البلاد.

اكتشف يحيى ذلك بعد العديد من السنين وفي مناسبة غير عادية. فقد كانت قصيدة يحيى «من هديل الحمامة المطوّقة» من البرنامج الدراسي المقرر في اللغة العربية للمدارس الثانوية لامتحان الاجتياز. اتّصل به صديقه الدكتور فاروق وقال: أعددت كتاباً للطلاب أشرح فيه النصوص المقرّرة وقد ألحقتُ بكل نصّ أسئلة تُعين المعلم والطالب على التعامل مع ذلك النصّ ولذلك أردت أن أعرض عليك بعض الملاحظات والأسئلة. فوجئ يحيى وهو يسمع صديقه يقرأ عليه - على التلفون - سؤالاً يشير إلى قول أبي العلاء المعرّي: «أبَكَتْ تِلْكُمُ الحَمامَةُ أمْ غَنَّتْ على فَرعِ غُصنِها المَيّادِ»، ثم يقول: «قارِن بين حمامة أبي العلاء وحمامة يحيى».

صاح يحيى: هل تمزح؟

قال الدكتور فاروق: وأي وجه للمزاح هنا ؟

فشرح له يحيى الكناية وعجب الدكتور قائلاً: هذه الكناية ليست معروفةً عندنا في قرى المثلث. وضحك مما سيثيره ذلك السؤال بين الطلاب في الجليل لو أنه أثبته مطبوعاً في كتابه.

6. أسدود

إنه موسم الجنوب.

انتقلت العائلة إلى أسدود الواقعة بين يافا وغزة.

البيت الذي استأجرته العائلة حوله سور. تدخل من باب أخضر على درجات ثلاث إلى ساحة واسعة اصطفّت على جوانبها مواعين للزهور، منها الفخاري ومنها أشكال من علب الصفيح التي مُلئت بالتراب وحفلت بالورد القدسي والحبق والقرنفل. يسأل يحيى عن الياسمين الذي ألفه في كثير من البيوت في الجليل. في زاوية من الساحة مغسلة عُلّق خزّانها على الجدار ودونه طشت ارتفع على حامل حديديّ يستقبل الماء المستعمل في الغسل. هذه الساحة هي المجال الحيوي المفتوح الذي يتيح لربة البيت أن ترى وجه ربها وتكون في الهواء الطلق دون أن تتعرّض للعيون المتطفّلة. فالسور عالٍ والبيوت المجاورة لا تتجاوز الطابق الأرضي. هنا كانت تستقبل أم يحيى جاراتها الزائرات كما تستقبل الحمام الذي كان يأنس ويهبط ليلتقط بعض الحبّ الذي تقدّمه له. وهي تحتمل ما يخلّفه الحمام أحياناً من الذرق ولكنها تحب حركته ومشيته ووجوده.

هنا كان يلعب يحيى وأخوه. أحبّ أن يسقي الزهور ويرشّ الحبّ للحمام.. ويستمع إلى أحاديث النساء اللواتي لا يحسبن حساباً لسمعه أو لوجوده.

قالت أم يحيى لزوجها: لا يمكن أن يظل يحيى في البيت. ألا توجد في هذا البلد مدرسة يتعلم فيها؟

استفسر الوالد. وفي اليوم التالي ذهب يحيى إلى «الكتّاب». لم يستطع الوالد أن يرافقه لأنه يبكّر إلى العمل، وبالطبع لا يمكن أن ترافقه الأم، أوكل الأمر إلى جارهم أبو العبد الذي كان ابنه يتعلم في الكتّاب.

هدير الأطفال المنطلق في جوقة حادّة الأصوات وهي تعيد الترتيل وراء الشيخ أعلن عن مكان الكتّاب.

عندما دخل أبو العبد ويحيى أمر الشيخ الأولاد بالسكوت. شرح أبو العبد غايته هامساً فاستقبل الشيخ تلميذه الجديد مرحّباً، فتلك زيادة مرتقبة في الدخل. وضاع يحيى في غابة من عيون الأطفال التي حدّقت فيه تتفحّصه.. فهو غريب حتى في ملابسه.

تربّع يحيى على الحصير مع الآخرين. ولكن البنطلون القصير يعرّض لحمه لحزوز يرسمها الحصير وتؤلم، فكان يرفع جانبه هذا حيناً وذاك حيناً آخر ليرتاح بعض الشيء. إلا أنه انغمس حالاً في الدرس. راح يرتّل في الجوقة مقلّداً لفظ الشيخ ونبراته: «بسم الله الرحمن الرحيم. قل أعوذ بربّ الفَلَق. من شرّ ما خَلَق. ومن شرّ غاسقٍ إذا وقب. ومن شر النفّاثات في العقد. ومن شر حاسد إذا حسد».

والشيخ يعود ويعيد. والأطفال ويحيى فيهم يكرّرون ويتبارون في رفع الصوت. والشيخ يُشبِع حروف العلّة يمدّها ويعطيها حقّها ويجسّد كل حرف بلفظ مبين.

قبل أن يعود الأطفال إلى بيوتهم في الظهر دعا الشيخ أحد الأولاد وأوصاه أن يعلّم يحيى ما فاته من السوَر، ولم يكن فاته الكثير.

ويعود يحيى إلى البيت مع ابن الجيران نشيطاً، وإن آذى الحصير رجليه. كان الاستقبال في البيت حاراً. عانقته أمّه ونظر اليه أخوه بشيء من الغيرة والضيق بالوحدة نصف النهار في غيبة أخيه.

رتّل يحيى السورة لأمّه. وفي المساء رتّلها أمام أبيه والجيران الذين جاءوا يسهرون. وأثنى الحاضرون عليه ورضي عن نفسه.

لم يسأل عن معنى الكلمات في السورة، ولم يفسّرها له أحد. أحسّ أنه أمام كلام مهيب لا يحاول أن يتجاوز عتبته.

أخذ يتمعّن في المعاني عندما كبر. وشُغل بكثير من التفسير والتأويل. يذكر فرحته

حينما قرأ شرح الإمام محمد عبده لسورة «التين». لم يكن يرتاح للشرح السطحي القائل بالقَسَم بالتين والزيتون.. الشجرتين كما هما. فإذا بالإمام يرى في التين رمزاً لعهد الجنة الذي عصي الأمر فيه آدم وحواء وسترا العورةبورق التين، ذاك عهد أساسٌ في تاريخ البشرية، وقد تلاه عهد آخر من العصيان والعقاب والأمل، فقد كان الطوفان وبعد العسر عادت الحمامة تحمل غصن الزيتون بشرى بالوصول إلى أرض. أما طور سينين فهو عهد الوصايا لموسى.. ثم جاء العهد «وهذا البلد الأمين». واختلف مفسّرون آخرون في تأويل تلك الرموز إلا أنهم اعتبروها رموزاً. وأعجبت يحيى قولة العلماء التي ينهون بها اجتهادهم أو تأويلهم «والله أعلم».

كان الاحتفال بختم «جزء عَمَّ» يوماً مشهوداً. دخل الأولاد إلى ديوان تصدّره الشيخ وعدد من الرجال وفيهم أبو يحيى. أقبل الأولاد يقبّلون أيديهم. لكنّ يحيى سلّم ولم يقبّل يداً حتى ولا يد الشيخ المعلّم. أثناء التسليم رفع أحد الرجال يده إلى فم يحيى ليقبّلها فأزاحها وعندما سئل لماذا يرفض؟ نظر إلى والده وقال: لا أعرف إن كانت يداه نظيفتين؟ فضحك الجميع. وقال الوالد لذلك الرجل «أعجَبَك؟».

عندما جاء دور يحيى انطلق يرتّل السور بصوت واثق، يحسن إخراج الحروف، يُشبع حيث يجب ويخطف حيث يجب ويتقن الإدغام بِغُنَّة.. أعجب الشيخ والحضور بترتيله وتجويده فأثنوا عليه وقال له أحد الرجال: «أليس خسارة أن لا تكون مسلماً؟».

ظلت اللغة العربية وجلالها راسخة في وجدان يحيى يطرب لها وتستهويه أغوارها وكنوزها.

ولا يذكر يحيى من الذي علّمهم تلك المحفوظة التي لم ينسها أبداً، أهو الشيخ أم رجل آخر:

أنا عـــربي – من قوم النبي
أنا لا أرضى – حكـم الأجنبي
حبّ بلادي – مـلء فـؤادي
سيفي يُفني – جيش الأعادي

كان يلقي تلك المحفوظة بحماس أمام الزوّار في السهرات ويرتّل لهم بعض قصار السوَر.

ويحسّ بتقدير يدفعه إلى المزيد من المعرفة والتعلّم.

لم تتّسع جولات يحيى في البلدة ولم تتجاوز الكتّاب إلا إلى مزرعة جارهم أبو العبد. كان ابن الجيران يزور يحيى ليلعب معه بالألعاب التي اشتراها له أبوه من يافا: سيارات صغيرة ملوّنة، عجلاتها من المطاط، يمكنك أن تنزع العجل عن دائرته ثم تعيده. وكانت اللعبة المفضلة أن يطلق كل واحد سيارة يدفعها بقوة وهو يهدر كالسيارة ويطلق من فمه زاموراً بين الحين والحين. في زيارته التالية أحضر هذا الولد هدية ليحيى بضع عيدان من قصب السكر من مزرعتهم. وعندما أعرب يحيى عن رغبته في زيارة المزرعة تحمّس الصديق وحدّث والده. وجاءت والدته تدعو أم يحيى وابنيها إلى المزرعة. في الطريق سمعوا القطار العابر بين حيفا والقنطرة في مصر ماراً عن كثب وقد ملأ الجو بشقشقته.. وصفير الاقتراب من المحطة. أما البحر فكان قريباً يغري بزيارة لم تتحقّق.

ويذكر يحيى تلميذاً لا ينساه ولا يتذكر اسمه. كان الفنّ ينساب من أنامله على الورق من ينبوع موهبة مدهشة. بخطوط سريعة كانت ترتسم أشجار النخيل يتسلقها أولاد يجنون ثمرها وتحلق في الفضاء طيور تتفاوت في حجمها وحركات أجنحتها. وكان يرسم صورة للشيخ يتلاعب فيها بملامحه ليثأر من إهانة أو توبيخ. وكان الأولاد من حوله يوجهون إليه اقتراحاتهم لمواضيع رسم مختلفة. طلب إليه أحدهم أن يرسم قطة تفترس فأراً، فقال له: إجلس أمامي حتى أرسم الفأر. وكادا يتخانقان لولا تدخّل الآخرين.

سألت الأم جارتها أم العبد أين يمكن أن تشتري بعض القماش تبيّت به لحافاً ومخدّات. قالت الجارة: «السوق يوم الأربعاء، وفيه كل شيء من الإبرة حتى الثوب ومن الإبريق حتى الثور». وسعد يحيى بمرافقة أمّه إلى السوق. كان ذلك مشهداً جديداً وتجربة جديدة ظلّ عبقها يعشّش في نفسه وتستثيره العطور المشابهة.

يختلف سوق الأربعاء في أسدود عن السوق في القدس القديمة. فالسوق هنا في الفضاء الطلق، كلّ يعرض بضاعة إما على الأرض أو على دكّة مرتفعة. الجو مشبع بروائح التوابل والعطور. زجاجات عطر الـ«ميكادو» تطلّ برؤوس موشحة باللون الذهبي وعلى الصدر إتيكيت أخضر زيتوني عليه صورة لم تعد واضحة في الذاكرة. اجتمعت قرب البائع نساء يساومنه، وترك البائع للعطر الذي يجربنه من زجاجة مفتوحة أن يرجّح موقفه.

من القماش شِقق معروضة في جفن الشمس تلمع فيها الخطوط النبيذية والصفراء البرّاقة، وأخرى تتشكل فيها المساحات النيليّة والحمراء بأشكال تأسر العين وتنفذ إلى النفس.

قالت أم العبد: لنمرّ أولاً بالبسطات التي تبيع القماش، نفحص ونسوم، ثم نقرّر قبل أن تشتري. وهكذا كان. طالت وقفات الفحص والمساومة وتأرجح السعر قبل أن يستقر على حال. لكن يحيى كان مأخوذاً بالألوان، وبأشكال الأواني الفخارية وببعض الأشكال النحاسية التي احتضنت مرايا وتدلّت منها سلاسل تنتهي بأهلّة صغيرة. وأعجبته أشكال من النسيج الصوفي الملوّن التي قالوا له إنها لزينة الخيل أو زينة الجِمال.

ليس بعيداً يعلو نهيق وصهيل ورغاء وثغاء، وينشر الروث روائحه. والمساومة على شراء الدواب تحتاج إلى خبرة بالأصول - كيف تفحص أسنان الدابة وتتحسس فقرات ظهرها للتأكد من عمر البهيمة وصحّتها. من كان يتصور آنذاك أن تصبح للسيارات بعد بضع عشرات من السنين أسواق مثلها تُفحص شِياتُها وأحشاؤها وتنتشر في هوائها الرائحة الخانقة المنطلقة من عوادمها؟

وتظلّ «سوق الأربعاء» في أسدود لوحة كبيرة مرسومة في الذاكرة ، حيّة بالروائح والأصوات والألوان والحركة. هناك سوق الخميس في بير السبع، وكانت «سوق الإثنين» في الناصرة، وأسواق أيام أخرى تنشأ في قرى الجليل، بل هناك أسواق في العديد من المدن الأوروبية تحتل مساحات مكشوفة، زارها يحيى عندما كبر، ولكن تظل للسوق في أسدود نكهة خاصة وموقع خاص.

أشار المثل الشعبي إلى ما يفعله البعض حينما تتّسع بهم الحال المادية فيستأنفون الزواج بعد أن تكون الزوجة الأولى قد كدحت وشقيت في دعم الزوج وبليت في تأسيس حياة عائلية. وقد أخذت تنتشر في أسدود ظاهرة استيراد ضُرّة تركيّة من قبرص. السعر معروف: خمسة جنيهات فلسطينية. والجنيه الفلسطيني كان أغلى من الليرة الذهبية. «أغربوا تنجبوا». وإذا فعل فلان ذلك فلماذا لا يجاريه فلان؟

كان الاحتفال بعروس قبرصية في بيت مجاور. وكان ذلك العرس موضوع تعليق النساء المجتمعات في الساحة عند أم يحيى، وكيف أن الزوجة الأولى حملت المهرجان على رأسها، تطوف بالطعام وترحّب بالضيوف وتلقم العروس الضرّة قطع اللحم المنتقاة:

- «عزا المشحّرة على إيش فرحانه؟».
- «المعونة مليحة. أجاها مين يعينها على بليّتها».
- «يا ستّي اللي بجيه ضيف بكرمه. وهاي ضيفه ومتغرّبه».
- «قال أم محمد بدها تتعلّم تركي. وهاي جايبلها اياها أبو محمد معلّمه».

وسألت أم يحيى: «لو كنتِ محلها يا عايشه شو بتعملي؟».

«قال شو بعمل قال؟ بطلب الطلاق والنفقة أو بَخْنُقْه».

كان الضحك يتخلل التعليقات الساخرة ولكن المرارة كانت هناك، فالضرّة مُرّة. وهذه ليلة لها ما بعدها بالنسبة لأم محمّد، فالغيرة جحر عقارب. وبعض الناس لا يحسّون بالألم حالاً لهول الصدمة، فإذا ما بردت الضربة كان البكاء وصرير الأسنان.

ولكن يبدو أن أم محمد كانت- أذكى من الأخريات. ضيّفت وأكرمت واحتفلت لكنها بيّتت.. أمراً.

عندما انتهى الاحتفال وودّع الضيوف وأراد «العريس» أن يخلو بالعروس، قام الأبناء: محمد وفاطمة وخديجة وخالد بالهجوم على العروس. فوجئت وهي تتلقى الضربات، وعندما هجم الوالد العريس على أولاده تدخلت أم محمد تحمي العروس وتدخلها إلى غرفة وتغلق الباب عليها «لحمايتها» من غضب الأولاد. ويخطف خالد المفتاح ويهرب. ويهيج الأب ويعربد يضرب كل من حوله ويصيح، فيهددونه بالصراخ طلباً للنجدة فتلتمّ البلد. فليكن غُلب بستيرة ولا غلب بفضيحة.وما كان له إلا أن يرضخ وهو يرغي ويزبد ويشتم ويهدّد.. ويا فرحة ما تمّت.

ذات ليلة جاء أحدهم يعرض على والد يحيى نقوداً أثرية وجدها في وعاء فخاري وهو يحرث في حقله. تأمل الوالد القطع وسأل أسئلة، لكنّه لم يشتر. قال إنه موظف، ومثل هذا الأمر يهدّد عمله. ونصح الرجل أن يحذر فلا يعرضها هنا بل يأخذها إلى المدينة، ويحتاط في السؤال. قرّب يحيى رأسه يتأمل النقوش وشكل العملة، أخذ إحداها بيده وتفحصها من وجهيها. رأس إنسان وبعض الإشارات من حولها. قيل ليحيى: «بهذه النقود كان الناس يشترون ويبيعون قبل أكثر من ألف سنة». في تلك الليلة كان الصبي يجتاز سوقاً كبيرة مثل سوق الأربعاء وحوله ناس يلبسون ملابس غريبة ويتحدث معهم بلغة أخرى، ويتعاملون بتلك النقود. امتدّت يده إلى جيبه فأخرجت مبلغاً اشترى به ثوباً جميل الألوان كأنه قوس قزح.

ومضى يمشي في دهليز عميق يسمع أصواتاً عجيبة، وتمرّ به جماعات من الفرسان تتلاحق، وصوت حوافر الخيل يرنّ صداه على جدران الدهليز، ثم ينفتح أمامه فضاء رحب وبحر متلاطم فيه الزوارق والسفن وبضاعة ينقلها الحمّالون إلى الشاطئ فإذا امرأة تسأله: من أنت وإلى أين تسافر؟ مضى يجتاز متاهات ودهاليز ولم يجد نفسه إلا حين أفاق من حلمه.

ظلّت أسدود تقيم في خاطر يحيى بعد أن شبّ وشاب واكتهل. وراح يقرأ ما أتيح له عنها. قيل إن معنى اسمها «الحصن»، وإنها من المدن الخمس التي سكنها الفلسطينيون القادمون من جزيرة كريت. حفل تاريخها بالمعارك بين الفراعنة والأشوريين. سمّاها هيرودوتس: «مدينة سورية الكبرى». احتلها الإسكندر وكانت عاصمة المنطقة في العصر الهليني. تنصّر أهلها في إحدى المراحل وصارت مركز أبرشية اشترك أسقفها في مجمع نيقيه. وأقيم فيها مسجد على مزار الصحابي سلمان الفارسي..

لم يدُر بخلد يحيى آنذاك أنه يتصل ببلد ستُمحى صفحته بعد قليل، وأن أهل أسدود سيُشرَّدون من بلدهم بعد أقل من عقدين. وأن البلدة الهادئة الوادعة سوف يحتلها آخرون يقيمون فيها ميناءً كبيراً ومدينة تتّسع وتمتد لاستيعاب قوم لا يُرضيهم أن يعيشوا مع أصحاب الأرض الأوّلين، وأن اسم البلد سيصير «أشدود»، وكم تتغير الأمور حين تنقلب السين إلى شين.

بعد سنين عندما التقى يحيى في رام الله صديقه أبا خالد وعرف أنه من أسدود شرِّد منها أيام العاصفة القاصفة، أحسّ بقرابة شديدة تجمعهما.. ففيهما نُسغٌ من تلك الأيكة - أسدود.

7. لسان العصفورة

«نجد» قريبة من «أسدود» إليها انتقل مخيم المساحة، فانتقلت العائلة معه.

البيوت كلها من اللّبِن. سكنت العائلة في غرفة أخلاها أصحابها، واكتفوا بغرفة صغيرة - طمعاً في الأجرة الشهرية.

يذكر أن هناك ثلاث درجات ترتقي إلى الباب. أرض الغرفة لا تعرف البلاط ولا الإسمنت، لكنها كانت متلبّدة جاسية. وعلى الأرض حصير يمنع الاتصال المباشر بالتراب.

جاء الجار في الليلة الأولى بالعشاء. زغاليل وأرز. الضّيافة سبع ليال، حتى سابع جار. في كل ليلة يحمل أحد الجيران مواعين الطعام، وفيها عشاء الضيافة. كانت الغرفة ضيقة فانتقلت العائلة فيما بعد إلى بيت آخر قريب. بوابة كبيرة تُفضي إلى ساحة قدّام غرفتين، وإلى جانب البوابة دكّان يفتح بابها على الشارع. تدير الدكّان وضحا، وهي ابنة أصحاب البيت، صبيّة مرحة، دينامو نشاط.

لعلّ هذا البيت كان في طرف القرية، فوراء الجمّيزة الكبيرة في الناحية المقابلة تمتد بيّارات، وعطر نَوْر البرتقال.

الأرض رملية. تحت الجمّيزة يجتمع الأولاد للعب. في الليل يطيب اللعب مع القمر، تسير رافعاً رأسك نحو السماء، فإذا بالقمر يسير معك، إذا أسرعت أسرع، وإذا أبطأت سايرك كذلك.

حبّات الجميز مثيرة، لم يرَ مثلها هذا الطفل القادم من شمال البلاد، والشجرة تغرق عند السَّحَر في تغريد العصافير وخشخشة رفيف الأجنحة المنطلقة.

لا مدرسة ولا كتّاب في القرية. أين يتعلم الأولاد؟ بعضهم يتعلم في أسدود أو غيرها. أما هو فقد جاءه أبوه بكتاب للقراءة فأخذ يعلمه فيه بعد الظهر، بعد أن يعود من عمله، ويعيّن له فرضاً لليوم التالي.

الأب العائد من العمل المرهِق في مساحة الأراضي الوعرة والرمال لم يكن دائماً ذا مزاج رائق للتعليم. كان يثور لأقل غلطة أو تلعثم، وكان يهمّه التدقيق في انسياب كل حرف وتميُّزه. «لا.. لا يمسكون القلم هكذا. الأصابع تحضن القلم برفق. لا داعي لهذا الضغط على السبّابة.. الدال غير الرآء.. لماذا ترتعد يدك...؟».

أحياناً كان الوالد يبدأ بالتدريس ومراجعة الفرض حال وصوله من العمل وهو ينتظر إعداد الطعام.

أهمل الطفل فرضه مرة، فما ان سمع الخطوات القادمة من بعيد حتى تسلل مختبئاً تحت السرير، لعل الوالد إذا لم يره ينصرف إلى الاستراحة فيغسل وجهه ويديه وينتظر الطعام. لكن الأخ الأصغر لم يترك للكسل أن ينتصر. رفع الستار المنسدل على جانب السرير وكشف عن المخبأ والمخبّأ وشمت بالمذنب المعاقَب، ولكنه لم يسلم من نظرة تهديد.. «غداً صباحاً لن يكون من يحميك».

- «إنّه يهدّدني.. يريد أن يضربني».

ويأتي تأكيد الوالد: «أخلعُ رقبته إذا لمسك».

وتمتزج بعض الحروف بالدموع، وتختنق نغمة القراءة بالنشيج. والأم تسرع في إعداد المائدة لتختصر من عناء التسميع والعقاب، وتحضر المنشفة وتدعو الوالد لتصب الماء على يديه ورأسه.

السماء مزروعة بالأسئلة. هذا العالم عجيب، كل ما حوله علامات استفهام كبيرة. بعض الأسئلة تجيب عنها الأم إجابات مستمَدّة من الموروث الديني أو من تجاربها الحياتية. لم تتعلم في مدرسة. دائماً كانت تذكر ذلك بألم.

والسماء في الليل مسرح للخيال. النجوم يخفق ضياؤها. إنها تغمز باستمرار. حديقة كبيرة من الزهور المضيئة في العتمة. عالم رحب من العيون التي ترمش. كلها تتطلع إلينا ترصدنا، تراقب ما نفعله في الليل. وفي النهار - من يرصدنا؟ كل شيء واضح في ضوء النهار.. لا حاجة إلى تلك العيون الكثيرة.

كان يحاول أن يلتقط بعض الأجوبة من أحاديث أبيه مع زملائه المسّاحين الذين كانوا يجيئون للسهر أحياناً. يجلس صامتاً يسمع ويختزن. لكن تلك الأحاديث لم تكن دائماً تجيب عن الأسئلة الوجودية التي تستفز وعيه الطفولي. كان الحديث عن العمل، والعلاقات بين العاملين، وذلك الموظف الإنكليزي المسؤول - ماتكن - الذي لم يتحدثوا عنه بكثير من الودّ.

لم يكن له أصدقاء من الأطفال يبادلهم الأسئلة والأحلام. كان غريباً بين الأطفال الذين يجتمعون تحت الجمّيزة.. كل واحد منهم يلوي عنقه بشدّة ويقرّب ذراعه يحاول أن يقبّل كوعه.

قال له أحدهم: «هل تحب أن تصبح عصفوراً؟ إذن قبّل كوعك. إذا استطعت نبت لك حالاً جناحان وطرت وصرت عصفوراً».

مضى الأولاد يجرّبون بحماس. لكن الفم لا يصل إلى الكوع. الساعد لا يلتوي بما فيه الكفاية.

- «جرّب، جرّب لكي تطير معنا».

لم يفعل. خشي أن يصبح عصفوراً فيطير ولا يعلم أهله بالأمر. يضيع، يبحثون عنه بلهفة، بحزن، وهو يرفرف حولهم ولا يستطيع أن يخاطبهم ليقول لهم: أنا ابنكم.. أصبحت عصفوراً. ستبكي أمه. وسيفقد أمّه وأباه وأخاه والبيت.

- «هل تعرف لسان العصفورة؟». قال الطفل زعيم الحلقة. «نعم، يجب أن تتعلم لسان العصفورة حتى تتفاهم مع العصافير: أزَتَزا بَزَعْرِزِفْ أزَحْكِزي لِزسِزان إزِلْعَزَصْفُزورَزَه..».

وانجذب إلى هذه اللغة وتعلّمها بسرعة: تدسّ حرف الزاي بعد كل حرف من حروف الكلمة، حرف من الكلمة يتلوه حرف الزاي وهكذا.. سندويش حروف.

ودار الحديث بينه وبين الأطفال بهذه اللغة، وانكسر زجاج الغربة. لكن أحدهم لم يشأ أن

يتكلم. كان يكافح كفاحاً ملحّاً عسيراً ليقرّب كوعه من فمه. آلمته رقبته لشدّة ما شدّ عليها ولواها ومطّها. لا يريد أن يستسلم.

قال أحدهم ليحيى: «لماذا لا تجرّب؟».

مع أنه لم يقرّب كوعه من فمه إلا أنه فعل ذلك بخياله. خشي أن ينجح. ماذا يحدث لو نجح؟

أخذ يشجّعهم على تحقيق تقبيل أكواعهم ليرى كيف يحدث ذلك.

«ها أنت تقترب. شدّ أكثر، إلوِ ساعدك أكثر، مدّ شفتيك.. نعم.. نعم.. أكثر.. أكثر». لكن القبلة تنطلق فاشلة في الهواء. والأكواع تأبى أن تلمسها شفاه الأطفال.

عاد إلى البيت ومعه زاد سمين. جلس في زاوية الغرفة. فتح كتابه لكنه لم ينظر فيه. تخيّل أنه يلوي ساعده ويشدّ عضلات رقبته ويمطّ شفتيه.. نعم.. أكثر.. أكثر.. فيفلح في تقبيل كوعه.. وإذا به ينتفض، يتقلّص وينبت له جناحان.. يركض ويصفق بجناحيه.. يرتفع من الباب، يطير في الهواء.. يرتفع فوق النخيل، يقترب من الكتّاب في أسدود، يستمع إلى التجويد، يجوّد: «والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين..»، يقترب من الباب، تتحرك عصا سيدي الشيخ نحوه. هل يعرف سيدي الشيخ لسان العصفورة؟ لو كان يعرفه لخاطبه..

يرفرف فوق القرية.. أمواج البحر أكاليلها بيضاء وتقترب من الشاطئ. هناك مركب.. هل فيه عرائس من قبرص؟ العروس مهرها خمسة جنيهات.

ما أحلى الإنطلاق! لكن.. أين عشّك؟ أين تنام؟ ومع أي الطيور تنام.. آه أي عصفور أنت؟

وكثرت الرحلات العصفورية. اللعبة ممتعة جداً. لا داعي لوجود شركاء في اللعب، ولا خشية أن توبخك الأم لأنك مرّغت ثيابك بالتراب. لعبة نظيفة تلعبها متى تشاء، وفي أي مكان تشاء. تهرب من كل شيء. والرحلات أحياناً حنينيّة، يطلقها الحنين إلى بيت الجدّ في مسقط الرأس، وإلى حكايات الخالة، أو إلى الحديقة قرب البيت في رام الله حيث كان يدفن اللعب في التراب.. وأحياناً رحلات كونية إلى عوالم السماء والبحار.

ذلك الطفل الصغير تحت الجمّيزة هو الذي فتح أمامه عوالم جديدة، لامعة ممتعة. أي

انطلاق كانطلاق الطير، وأي عوالم كعوالم يرتادها الطير وأية لغة كلسان العصفورة؟

وظلّت أذن صاحبنا القناة الرئيسية لصلته بما حوله.. يلتقط أحاديث الكبار يفهم بعضها، ويحدس بمعنى بعضها ويلتقط عن بعضها الآخر صوراً غائمة، غَبِشة أو مرتجّة مهتزّة.

دار الحديث ذات يوم همساً بين النساء، وأمه تستفهم متعجبة، وبعض الكلمات تفلت بشيء من الارتفاع. ولا يدرك الكبار أحياناً أن الأطفال من حولهم يستمعون ويلتقطون.. الأم تسأل: وضحا تختتن؟ كيف يكون طهور البنات؟ ولماذا؟

ويأتي الجواب بين الهمس وعدم وضوح الكلمات، ليؤكد أن على كل أنثى أن تُختن.. حتى لو ماتت دون أن تكون قد ختنت، فلا بد من ختانها آنذاك.

التقط أخوه الصغير ظلاً من الموضوع بالحدس، وكان يلعب مرة وقد وضع فوق رأسه طنجرة لبسها كالخوذة فغطّت على عينيه وأذنيه، وسار في ساحة الدار يصيح «مطهّر بنات».. وإذا به بعد قليل يحسّ ضربة على طنجرته وصوت أبيه ينتهره بعنف.. فنزع الطنجرة بسرعة وركض إلى الداخل.

8. الشرفة البحرية

ذلك الساحر الممتد على مدى البصر في زرقة غامضة فولاذية هادئة ليّنة حيناً وهائجة مزبدة أحياناً، ذلك البحر احتل مشاعره وسكنها. وسحره ذلك اللقاء بين زرقة القبّة الفيروزية وزرقة البحر عند ذلك الخط الفاصل الواصل - الأفق.

كان يطل على ذلك المشهد من شرفة البيت الواسعة على سفح جبل الكرمل، وتتوطد صلته بالسماء والبحر يوماً بعد يوم.

لقبّة السماء تحوّلاتها وللبحر حالاته، وهو يراقب ويتساءل، يمعن به الخيال في التفسير والتعليل، ويعيش في عوالم لا تحدّها الشؤون اليومية من سعي إلى المدرسة وصلة بالأهل والتلاميذ وما إلى ذلك من الأمور. كان يرقى بخياله إلى ما هو عبر الحيثيّ والآنيّ. مشهد الشروق والأشعة تنطلق من وراء الغيوم، وألوان أطراف الغيوم وتبدّلها واضطراب الجو بالبرق والرعد والمطر المتكسر على الشجر والحجر، ومشهد البحر غاضباً يدحرج أمواجه العالية بعنف وهي تكشف عن أسنانها البيضاء فاتنة التهديد والوعيد، ثم تنتحر عند الشاطئ في لوعة وتتشظى لتتيح لأخواتها من بعدها أن تؤدي شعائر الانتحار..

ذلك البيت الجديد على سفح الكرمل في حيفا تظل له في نفسه محلّة خاصة، فإن الشرفة الواسعة أمام البيت والحديقة المحيطة بها كانت مسرحاً لحوار حيّ بينه وبين المشاهد الكونية الفاتنة ببهائها وغموضها.

كان السبيل إلى البيت درجاً عريضاً متلاحقاً يتسلق سفح الجبل، وتتخلله فسحات واسعة بعض الشيء يستريح فيها الدرج، ويستريح الناس الصاعدون والهابطون، وتتيسّر مداخل للبيوت المحاذية إلى يمين الصاعد، أما إلى اليسار فسور عالٍ متواصل تطلّ من ورائه بعض أشجار السرو المتطفّلة، وبعض رؤوس الأشجار التي لا يكشف عن هويتها عجزها عن التطاول والتطلع. إنه سور دير راهبات الناصرة المحيط بمبانٍ كبيرة وحدائق واسعة شاسعة.

البيوت التي على السفح لا يحول أحدها دون منظر البحر، وحول تلك البيوت أشجار مختلفة منها الزيتون والتين واللوز، ومنها ذلك الزهر الرائع بعرائشه الخضراء ونجومه المتلألئة البيضاء - الياسمين. وحول كل بيت حديقة فتّانة بألوانها عابقة بعطرها.

يجلس يحيى على الشرفة يرسل نظره طليقاً. المشهد عامر بالحركة. الحوار بين الضياء والبحر لا ينفكّ ينبض - فيه قدسيّة نديّة مع السَّحَر، وطراوة يافعة متدفقة مع الفجر، ثم موكب مهيب للشمس ترقى الأفق إلى السّمت، ثم تميل شيئاً فشيئاً إلى مهدها المسائي تغتسل وتذهب للنوم. وفي ذلك كله مهرجان للألوان والظلال. والميناء يودّع ويستقبل، ويطلق هتافات سفنه راحلة أو قادمة.

ويزيد الليل من روعة المشهد، ويتعانق بحر وبحر، وتتغامز النجوم في السماء، ويخطر القمر جليلاً فضّياً في موكب السكينة الرمادية.

من جمّيز مجد ونخيل أسدود ورمال الشاطئ الجنوبي ينتقل الصبيّ إلى الكرمل المنحدر إلى البحر في الغرب انحداراً خطيراً ليعانقه، فيزداد تشبّث الأشجار على السفح من مار الياس إلى الشاطئ النحيل حيث تمتد سكة الحديد التي يلهث فوقها القطار صاخباً رتيباً ويزعق معلنا وصوله.

وكانت لعبة الصبيّ المسلّية استقبال السفن بالنظر المتفحّص منذ إطلالة رؤوسها عند الأفق إلى انجلائها كلها شيئاً فشيئاً وهي تقترب كأنها البطة الغامقة المقبلة في خُيلاء، إلى أن تداور كاسر الأمواج برفقة الزوارق المرشدة.

ترتعش الروح للجمال وترتسم الصورة في النفس ترفّ ألوانها وتتردد أصواتها، فيُرهف الحس وتَغنى الذات.

كان على يحيى أن يذهب إلى مدرسة رسمية في حيفا، بعد الكُتّاب في أسدود والتعلم في البيت في مجد.

استقبله في مدرسة حيفا الرسمية للبنين معلم من أقارب والده يعلّم هناك. دخل معه إلى غرفة المدير ليقرّر في أي صف يقبله. كان على عتبة السابعة من عمره. وكان التلاميذ في تلك السن يُقبَلون للصف الأول. إلا أن المعلم القريب، وقد اختبر قراءته رأى أنه من الممكن قبوله للصف الثاني. ناوله المدير كتاب القراءة للصف الثاني فقرأ بطلاقة وثقة قطعة من آخر الكتاب، لكنه عندما سُئل بعض الأسئلة الأولية في الحساب لم يعرف شيئاً. لم يكن قد تعلّم العدّ إلى ما وراء العشرين. سأله المدير ما مجموع ٧ و٥ فسقط السؤال على صفحة جاهلة. حاول المعلم القريب مساعدته فقد يكون الصبيّ ارتبك. لم يفلح في الجواب على سؤال آخر بسيط في الجمع. تداول المعلم والمدير الأمر، وأخيراً اقتنع المدير أن معرفة القراءة والكتابة تؤهل الصبيّ للصف الثاني، وقبل كفالة المعلم القريب الذي تعهّد بمساعدته في الحساب ليسدّ الثغرة. وهكذا دخل يحيى رأساً إلى الصف الثاني، وكان أصغر من تلاميذ صفّه دائماً.

يلبس التلاميذ ملابس موحّدة، يذكر منها قميصاً وبنطلوناً خاكيّين وجارزة كحلية، فالفصل نحو الشتاء.

وكان لا بدّ أن يحلق شعر رأسه - على الصّفر، لتبقى جمجمة قمّتها بين رمادية وخضراء.

جلس عند الحلاق ينتظر دوره. كان هناك فونغراف على رفّ مرتفع وصوت فريد الأطرش ينطلق من اسطوانة سوداء تدور تحت إبرة حادّة دورات رتيبة:

يـا ريتني طـير　　لأطير حواليك
مطرح ما تروح　　عـيوني عليك

ويفترش النغم رنين مقصّ الحلاق خلفيةً إيقاعية. وتدور الأسطوانة بقوة زنبرك يعبئه الحلاق بيد معدنية بارزة يديرها باستمرار حتى يحسّ أنه شبع. يقوم بهذه التعبئة قبل أن يزاوج بين الإبرة وسطح الأسطوانة، أما إذا فرغ الزنبرك فإن الدورة تخف، ويتشوّه صوت المغني ثقيلاً بطيئاً مستنجداً.

للفونغراف بوق معدني كبير هو الذي يوجّه الصوت ويكبّره، وعلى الجهاز صورة كلب

مقعٍ أمام بوق فونغراف مشابه.

كان «الفونغراف» آنذاك صَرعة رائجة. وقد عرف في العربية باسم «الحاكي» لأنه يحكي ويقلد الأصوات التي يسجّلها على الأسطوانة السوداء تسجيلاً أميناً. يذكر يحيى كيف أن أباه اشترى حاكياً لا بوق له، ولكنه كان في صندوق خشبي صغير يسهل حمله ونقله، وفي خاصرته ثقب يستقبل «اليد» المعدنية التي تعبئ زنبركه ليستقيم سير الأسطوانة.

وقد راجت في ذلك الحين أغان طريفة ما زالت أصداء بعضها تتردد في ذاكرة يحيى. يذكر مطلع أغنية «اليويو»:

البابا جاب لي يويو
حتى ألعب مع الشباب
والماما قالت: يو يو
شو هالألعاب!

إلا أن هناك أغنية أخرى تردّدت كثيراً واشتهرت برشاقة لحنها ودعابة معانيها، تتحدث عن شاب اسمه يعقوب:

بتعرَف يعقوبْ .. بتعرَف يعقوبْ؟
بتعرَف شو سَوّى هالمغضوبْ
بالصيف بعزّ الحرارَه
عمّال يبصبص عَ الجارَه
والجارَه عمّا تتحمَّم ... الخ

ويضيف الراوي ما حكاه ليحيى بعد سنين عديدة المرحوم جبرا نقولا عن خبر طريف عن هذه الأغنية، قال جبرا: «في الثلاثينيات، عندما شاعت هذه الأغنية، كان موسوليني في إيطاليا قد رفع لواء الفاشية، وكان نظامه يروّج لنفسه - خاصة بين الشبان في الأقطار المختلفة، وكان يقيم مهرجانات للشبان يدعو اليها وفوداً من أقطار عديدة. ذات سنة سافرت مجموعة من الشبان من لبنان إلى أحد المهرجانات.. وكان كل وفد يسير في افتتاح المهرجان على إيقاع نشيد بلاده القومي تعزف لحنه فرقة موسيقية إيطالية. قبل الافتتاح سألوا الوفد عن النشيد، ولم تكن لبنان قد استقلّت بل كانت تحت الحكم الفرنسيّ. تداول أعضاء الوفد.

قيل لهم حتى وإن لم تكونوا مستقلين فلا بدّ من نشيد رائج على ألسنة الناس يمثّل الروح القومية.. وكان «النشيد» الرائج آنذاك هو «بتعرَف يعقوب» وما أسهل أن يُعطى إيقاع «المارش». فتمرّنت الفرقة الموسيقية على عزفه، وعلى إيقاعه الحماسيّ سار الوفد: «بتعرَف يعقوبْ.. بتعرَف يعقوبْ.. بتعرَف شو سوّى هالمغضوبْ..». كان جبرا يدقّ بقلمه على الطاولة يؤكّد الإيقاع وهو ينشد ذلك «المارش».

ابتسم يحيى وسأل جبرا: أهذه تقليعة يسارية ضد النشاط الفاشي آنذاك؟

قال جبرا: يمكنك أن تقول ذلك.

ويذكر الصبيّ أغانٍ أخرى طريفة انطلق بها صوت الحاكي، منها أغنية يتصوّر فيها المتحدّث (المغنّي) حالته لو كان حصاناً في بيت عائلة سرسق الغنيّة الإقطاعية، «لو كنت حصان في بيت سرسق»، لكان يتمتع بالمآكل والدلال «لوز وسكّر»، فحياة ذلك الحصان أفضل من حياة الآدمي المسحوق.

وكانت هناك أغانٍ أخرى لم يكن يَحسُن بالصبيّ أن يستمع اليها، ومنها أغنية تحسد الديك على النِّعم التي يتمتع بها في حريمه.. «يا نيّال الديك.. مين مثلُه يا شريك.. عشرين جاجه عَ حسابه».. الخ. لكن المغني لم يكن يتورّع عن بعض الألفاظ الفاضحة في هذا التعداد لامتيازات الديك.

وقف الصبيّ مع تلاميذ الصف الثاني في صباح اليوم التالي عندما قرع الجرسَ النحاس المعلم المناوب. جرس يَدَويّ له مقبض خشبي، يلوّح به المعلم مرات عديدة لتتأرجح مدقّته بين الأطراف النحاسية الأسطوانية.

عندما كبر الصبيّ وقرأ شعر أحمد شوقي الذي يصف جرس المدرسة، كيف يكون مطرباً عند الرواح، وغير مطرب في الصباح إذ يدعو إلى بدء الدرس:

له جرس مطرب في الرواح   وليس إذا جدّ بالمطربِ

تذكّر هذا الجرس الأول الذي سمعه هنا وانتظمه في سلك التلاميذ.

اصطفّ التلاميذ في صفوف يضبط كلاً منها مربي الصف المختص.

كان مربي الصف الثاني نحيفاً جداً، متأنقاً في ملابسه وفي تسريح شعره. نظرته حادة

كالنّورس. تأكد أولاً من استقامة وقوف الأولاد في صفٌ منتظم. وضع يده على رأس الولد الأول وطلب من كل ولد أن ينظر إلى «نُقْرة» رأس الولد الذي قدّامه.

بعد أن ضمن استقامة الوقوف أخذ يفحص الأولاد واحداً واحداً، بدءاً من الحذاء الذي يجب أن يكون لامعاً، وإلا كان التأنيب مصحوباً بضربة من المسطرة على كف الولد. ثمّ يرقى ببصره ليتأكد من الملابس الموحدة، ويرى منديلاً نظيفاً مطوياً بترتيب. ثم ينظر إلى الأظافر ليرى أنها مقلّمة ونظيفة، وإلا فالمسطرة تعرف سبيلها. ثم يلتفت إلى الشعر، فإذا شك في مدى قصره أمسك الولد من سالفيه ثم رفعه منهما عن الأرض ليقنع الألم الولدَ أن شعره بحاجة إلى حلاقة. عملية الفحص هذه تستغرق وقتاً، ويختلف المربون في مدى التدقيق والتشديد، وكأنهم الفقهاء في اجتهادهم. كان مربي الصف الثاني «يحنّف» الأمور كما تقول اللغة الدارجة (أي يتشدد). ولا يمكن أن تكون لهذه الكلمة صلة بالإمام أبي حنيفة، كما توهم الوهلة الأولى، لأن مذهبه أخذ باليُسْر واللين.

إلا أن بعض الأولاد لم يلبسوا الملابس الموحّدة، ولم يؤنَّبوا على ذلك. لبسوا ثوباً طويلاً سابلاً (شَنْتَه). وقد سأل الصبيّ عن هذا «الامتياز» فعلم أن هولاء الأولاد قد خُتنوا منذ عهد قريب. وهذا اللباس يتيح لهم شيئاً من اليسر الذي لا يتيحه البنطلون. فعادت إلى الذاكرة صورة ذلك المطهر الذي يطوف في القرى على حصانه ومعه حقيبة كُتب عليها «مطهّر أولاد»، وتوشّحت ذكرى الحادثة التي عرّض نفسه لها بوشاح مطرّز بعلامات التعجب الكثيرة.

أحبّ يحيى كتاب الجغرافيا. فقد زيّنته الرسوم والخرائط وطُبع بحروف كبيرة زرقاء، وهو يروي حكايات رحلات يقوم بها ولد اسمه أمين إلى أقطار مختلفة فيتعرف إلى أهلها وطبيعة بلادهم. أنهى قراءة هذا الكتاب في يومين، وظل يذكر ما فيه، بل يحفظ بعض عباراته.

وأعجِب بمجلّة للأطفال اسمها «السمير» قرأ فيها القصص وتمتّع بالرسوم والألعاب.

يذكر يحيى أمسية زارهم فيها ذلك الأستاذ قريب الوالد. جاء يستأذن أن يأخذ يحيى معه إلى القرية في عطلة نهاية الأسبوع. كان ذلك الأستاذ قد خطب عروساً من حيفا، ولا يستطيع أن يأخذها معه في رحلة إلى قريته دون رَصَد أو رقيب على السلوك الحميد، فلمعت في ذهنه فكرة دعوة هذا الصبيّ القريب، إذ لم يكن للعروس أخ يتفرّغ لذلك. ولم يفهم يحيى آنذاك من الدعوة سوى أنها نزهة يزور بها بيت جَدّه.. ولكنّه شارك في كل النزهات لأن ذلك

الأستاذ لم يشأ أن يُرى وحده مع خطيبته في القرية لئلا تنطلق الألسنة.

ذات يوم أحسّ يحيى بألم يحيط بأذنه اليمنى، وظهر تورّم مزعج فانزعجت العائلة، وأوصى الطبيب بنقله إلى المستشفى لإجراء عملية جراحية.

كان للمستشفى الحكومي في حيفا فرع قريب من المدرسة أدخِل إليه الصبيّ. وكان في الغرفة التي حُمل إليها صبيّان آخران. قبل إجراء العملية سأله الطبيب: «هل أنت شجاع؟»، فهزّ رأسه بالإيجاب، وهل بوسعه أن يعترف بغير ذلك؟
قال الطبيب لمن معه: «إذن بنج موضعي».

أحسّ يحيى أن منطقة الأذن أصبحت باردة كقالب الثلج، وعندما بدأت سكين الطبيب تسلك سبيلها كان يحسّ شيئاً حاداً يخدش صفحة من الزجاج أو يُحدث خطّاً في قالب الثلج.

نصحه الطبيب أن لا ينظر إلى السكاكين والإبر، وأن يغمض عينيه أو يتسلّى بالتطلع من الشباك، لكنه ظلت عينه على تلك العربة التي تكدّست عليها السكاكين والملاقط والقطن.. الدامي وغير الدامي، فلم يكن بوسعه أن يدير رأسه كما يشاء.

امتدحه الطبيب وضرب به المثل للصّبيَّين الآخرين في الغرفة، فكان عليه أن يحتمل الألم الشديد بعد أن زال مفعول البنج، فلا بدّ من أن يحقّق ما توسّمه الطبيب فيه، فتعلّم درساً بليغاً في معنى الصّبر الصامت.

كان غيابه عن الدراسة أسبوعاً عاد بعده معافىً يجتهد ليحصّل ما فاته.

وإذا كانت سوق الأربعاء في قرية أسدود قد ارتسمت في نفسه بألوان زاهية وروائح يختلط فيها عطر «الميكادو» بعطور حادّة عنيفة، وصخَب يجمع بين نداء الباعة وضجيج العابرين وأصوات الدواب، فإن «السوق الأبيض» في حيفا بهره بالأزقة المسقوفة والحركة الشديدة حيث يصطك المارة ببعضهم، وحيث متاجر القماش الكبيرة، ومطبعة تدور في ضجة ورجل يمسك بملقط يجمع الحروف من جوارير صغيرة ويرتبها على صحن معدني ليصنع منها كلمات ويفصل بين السطور بقطع من المعدن ثم يلف حول ما يشكّل صفحة خيطاناً متينة، ويديرها فتترك بصماتها على الورق. كان الرجل قصيراً جسيماً كبير الهامة على رأسه طربوش كبير. هذا هو صاحب جريدة «الكرمل» وصاحب مطبعتها، واسمه نجيب نصّار. وقف

الصبيّ عند المطبعة طويلاً يتأملها وينظر إلى حركات الرجل، ولم يشأ أن يتطفّل فيسأل، فليس لدى الرجل من يساعده، وليس له الوقت ليردّ على كل متطفّل.

عند مدخل السوق ساحة الحناطير، وقد اصطفّت فيها تلك المركبات بخيولها الجميلة وهي لا تنفكّ تحرك رقابها وتهشّ بذيولها كلّ منها حسب إيقاعه ووتيرته، ومدى تعرّضه لغزوات الذباب الملحاح.

للمدينة نكهة خاصة حين تجري الحناطير في شرايينها. وقع حذوات الحوافر على الأسفلت وأنين العجلات الخشبية الكبيرة اللابسة الإطارات المعدنية، وصوت الحوذي ينتهر أو يحث، وطرقعة السوط في الفضاء قريباً من جسم الحصان، والتناسق بين لون الزخارف النحاسية اللامعة ولون العربة الأسود.. كل ذلك باهر بحضوره وهيبته. وأنت ترى هذه الحناطير تصعّد في «شارع الجبل»، فلا بدّ من ضبط للعجلات لئلا تنقلب حركتها وتترنح الغاية.

وكان في هذه الساحة بعض الحوانيت التي تبيع المرطّبات، والبوظة التي لا ينسى الصبيّ طعمها. فإذا دخلت «السوق الأبيض» من تلك الناحية وشاهدت ما رآه الصبيّ ذُهلت معه. بضع درجات تؤدي إلى مدخل وقد جلست عليها ثلاث نساء سمينات فاض منهن الصدر وفاض بياض الفخذين وشحمهما، واتخذت كل واحدة جلسة فاضحة تطل عليك من الدرجة العالية فتشكف الخفايا والخبايا، وترتسم على الوجه ابتسامة داعية وغمزة عين مرحّبة.

وقف يحيى قليلاً عند هذا المدخل، فأحسّ بحدسه أن ثمّة أمراً غير عادي. قهقهت إحدى النساء ولم يسمع التعليق الذي أطلقته أخرى فقد أحسّ بهزة من الاضطراب والخجل انطلقت برجليه بعيداً عن المكان.

9. المدير واللفاف

الناصرة.

بيت في الطابق الثالث، في حي السوق، أمامه سطح واسع مبلّط ببلاط أحمر.

على الأفق ترتسم جرسيّات الكنائس العديدة ومئذنة المسجد القريب.

«ساعة الدير» ترصد الوقت وتعلنه بدقّات قويّة، وتعزف بضع مرات في النهار لحن ترتيلة تمجيد العذراء مريم.. «آفي ماريّا».

يختلف المشهد هنا عن حيفا. كان البيت هناك على سفح جبل الكرمل يطلّ على البحر. أما هنا فهذا الحيّ في وادٍ محاط بالتلال العالية يطلّ من قمة إحداها بناء شامخ سمّاه الناس «دير ابو اليتامى»، مظهره يوحي بالتعالي لكن اسمه موشح بالحنان. هو ميتم ومدرسة أقامته الكنيسة الكاثوليكية ليباري ميتماً للبنات مجاوراً أقامته الكنيسة الإنجيلية قبل ذلك، وعُرف على لسان الناس بتسميته الإنجليزية «الأورفَنِج».

تتقافز نداءات الباعة في السوق تتغزّل بالبضائع المختلفة. غناء وأسجاع تبدع في ابتكار الصور التي تتحدث عن خدود البندورة وقامات الخيار وحلاوة المشمش. لكنّ نداءً متميّزاً يجتذب أذن يحيى، صوت بائع البوظة وهو يلقم مخروط البسكوت شتى الألوان ويتغاوى في تحريك ساعده ويده وهي تنقل البوظة من الدلو إلى المخروط: «ثلاثة أشكال الفرجيته، حليب وإيما وشوكوليته». لم يعِ الصبيّ آنذاك معنى الفرجيته، وعندما رأى ذلك النوع من السفن الحربية في ميناء حيفا فيما بعد راح يحاول أن يجد وجه الشبه بين مخروط

البوظة وبين تلك السفينة. إلا أن الصوت والإيقاع وكرات البوظة المتعانقة بألوانها الثلاثة كانت تشدّ الأطفال الذين يشدّون ذيول أثواب الأمهات فيضيف البائع إلى أهزوجته: «عيّط لأمّك يا ولد.. » وتفلح الدموع ويفلح الإصرار في استنزاف الدكّو.

في اليوم الثاني للإستقرار في البيت الجديد سألت الأمّ والد يحيى عند عودته إلى البيت: «هل سجّلت يحيى في المدرسة؟».

- «نعم، ولكن حكاية ذلك طويلة. رفضوا تسجيله، فالصفوف مكتظّة والسنة الدراسية في منتصفها. ذهبت إلى بيت مدير المدرسة بعد الظهر دون موعد سابق. قرعت الباب ففتح لي الرجل وفي يده كشتبان، وعلى أرض الغرفة لحاف مفروش وهو يبيّته».

أحرِج الرجل.

عرّفته على غاية زيارتي معتذراً عن التطفّل واقتحام البيت لشأن من شؤون العمل.

قلت له: «قل لحكومتك أن تحسب حساب السنة الدراسية حينما تنقل المسّاحين وعائلاتهم من بلد إلى آخر».

كان والد يحيى عصبيّ المزاج وكان مدير المدرسة كذلك ولكنهما التقيا عند صيغة للحلّ، فقال المدير: «تعال مع ابنك غداً لنسجّله». عاد الوالد راضياً وهو مقتنع قناعة ذاتيّة أن افتضاح المدير وهو يقوم بـ«أعمال النساء» كان العنصر الحاسم في رضوخه لتسجيل الصبي.

الصف الثاني الإبتدائي. مدرسة المعارف الإبتدائية للبنين.

غرف الصفوف عقود كبيرة. أركانها في الزوايا راسخة عريضة ولكنها تتّسق وتدقّ تدريجياً في سموّها المنعطِف للالتقاء في مركز السقف الذي تتدلّى منه حلقة حديديّة كأنها الخزام في الأنف. وعلى خلفية الطلاء الأبيض الناصع للجدران نُقش بصباغ نيلي جميل وبالخط الفارسي هذا البيت:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن همُ ذهبتْ أخلاقهم ذهبوا

يحيى قصير القامة - ظلّ كذلك حتى سن الخامسة عشرة - ولذلك أجلسوه في أحد المقاعد الأمامية قريباً من طاولة المعلم. المقعد لاثنين، وجاره صبيّ رقيق البنية قصير دمث طيّب الخلُق. اكتشف يحيى بعد حين أن هذا الجار هو أخو أحد الأساتذة الذين يعلّمونه.

الغربة باردة كالثلج، والاستغراب شديد. وكانت الصدمة الكبرى في درس الحساب.

التلاميذ أنهوا تعلّم العمليات الأربع، وهم يحلّون مسائل عليها. ومعهم دفاتر قسموها إلى متن وهامش. أما المتن ففيه نصّ السؤال ثم خطوات الحل، وأما الهامش فتجري فيه عمليات الجمع والطرح والضرب والقسمة، ثم تنقل النتيجة إلى المتن، كل هذا التقسيم وكل هذه الخطوات كان يجهلها يحيى لأنه لم يتعلمها.

ومعلم الحساب ثقيل اليد يؤمن أن العصا من الجنة، وأنها ـ وهو رجل مؤمن ـ الوسيلة التي خلقها الله لفتح الأدمغة للفهم وتقويم السلوك.

أخرج المعلم بعض التلاميذ إلى اللوح ليحلّوا مسائل الفرض البيتي السابق، وكانت نبرته شديدة في تأنيبهم إذا أخطأوا في أي شيء. وقبل نهاية الدرس أملى على الصف أربعة أسئلة ليحلّوها في البيت.

ثم كان درس اللغة العربية وأحسّ يحيى أنه يسبح في هذا النهر نشيطاً مطمئناً. فهو يقرأ النصوص في كتاب «الجديد» للسكاكيني قراءة تعبيرية تشير إلى فهم النصّ وأدائه بثقة. ويحيى معجَب بهذا الكتاب وما فيه من طرائف ممتعة. وكيف ينسى حكاية الصبيّ الذي رسم خطّين وعندما سُئل قال إنه رسم قطاراً. هذان الخطّان هما سكة الحديد، وأما القطار فقد سافر. والطُّرفة عن الرجل الذي فتح دكّاناً لبيع السمك فعلّق عليه لافتة كبيرة كُتب عليها: «هنا يُباع السمك» فمرّ به أحدهم وقال: لماذا كتبت «هنا» وهل أنت بائعه إلا هنا؟ فمحا الرجل كلمة «هنا». ومرّ به رجل آخر اعترض وقال: لماذا كتبت «يُباع»، وهل يتصوّر أحد أن يأخذه مجاناً؟ فمحا الرجل كلمة «يُباع». ومرّ آخر فقال ما معنى هذه اللافتة تقول «السمك» والناس تشمّ رائحته من بعيد فمحا الرجل تلك الكلمة وأنزل اللافتة.

وجاء دور درس الدين. ما أزعجه في حيفا يزعجه هنا أيضاً. ينقسم التلاميذ: المسلمون يتعلمون عند معلم مسلم والمسيحيون عند معلم مسيحي. فجأة يكتشف الأصدقاء والإخوان أنهم فريقان مختلفان. بعد سنين عندما أصبح يحيى مديراً لمعهد تدريسي مركزي – رفض أن يقسم الطلاب تلك القسمة. كان الجميع يتعلمون مبادئ الإسلام والمسيحية معاً على أيدي معلمين مسلمين ومسيحيين – منهم كاهن ومنهم من أصبح قاضياً شرعياً. أما الطقوس والعبادات فمَهَمّة البيت والطائفة ترتيب تعليمها ورعايتها.

معلم الدين المسيحي هنا هو معلم الحساب. وجّه التلاميذ إلى «كنيسة البشارة» الأرثوذكسية ليرسموا الإيقونسطاس وهو الجدار الفاصل بين «الهيكل» وبين باحة الكنيسة.

صنع من الخشب الذي حُفرت فيه زخارف جميلة من التوريق الكثيف وعُلّقت عليه الإيقونات: صور الرسل والقدّيسين. وفي الجدار ثلاثة أبواب: إثنان على الجانبين وواحد في الوسط، وهذا الأخير لا يحقّ استخدامه لغير الكهنة.

جلس الأولاد متفرقين على درجات في الكنيسة وبين أيديهم الأوراق والأقلام وتجربتهم في الرسم أقل من معرفتهم الكتابة. لم يكن الأستاذ معهم ليرشدهم. عادوا بانتهاء الدرس وقد ارتسمت على الأوراق خرابيش قد تصلح للعرّافين ومن يكتبون الحُجُب، ولو رآها أحد دون أن يعرف ما وراءها لظنّ فيها الظنون. معلم الدين هذا سيمَ كاهناً بعد بضع سنين واتّخذ من الإيقونسطاس مَعْلماً رئيسياً في حياته - حيناً وراءه في الهيكل وحيناً آخر قدّامه - مع الرعيّة، لكنه ظل دائماً مع الإطار دون الروح.

عاد يحيى في ذلك اليوم إلى البيت وفي نفسه قلق وإحساس غائم. هذا الانتقال ليس سهلاً، فالوجوه غير الوجوه والمعلّمون غير المعلمين وصِلات الصداقة التي أخذ يعقدها في حيفا تنقطع فجأة، وعليه أن يبدأ من جديد في دنيا جديدة.

أمّه في المطبخ. يحمل دفتر الحساب إليها ويطلب أن تساعده في الحلّ.

«يمّا دايماً بدعي على ستّك اللي أطلعتني بعد يومين من المدرسة. قال البنات مش لازم يتعلّموا. لازم يعرفوا كيف يديروا البيت وهذا بتعلّموه بالشغل في البيت».

- «لكن إسمعي».

قرأ لها السؤال الأول فحلّته له، فكتب الجواب بدون خطوات الحلّ أو تفصيل أو تعريف بالرقم. مجرّد رقم. وهكذا كان شأن الأسئلة الأخرى. وفي اليوم التالي جمع المعلم الدفاتر وأخذها معه للفحص.

عندما وزّع المعلّم الدفاتر المفحوصة على التلاميذ فيما بعد، وجد يحيى كتابة حمراء تملأ الصفحة أثارت حمرة حروفها حمرة الخجل والاضطراب في وجهه. كتب المعلم: «أين الحلّ يا شاطر؟». وبالطبع هذه الـ«شاطر» ترشق بسهام السخرية اللاذعة.

لم يكتف المعلم بذلك لكنه طلب من يحيى أن يخرج إلى اللّوح ليحلّ السؤال الأول ويبيّن كيف توصّل إلى الحلّ. انكشف العجز فأعرب المؤشر الطويل الذي بيد المعلم عن الغضب والاستنكار. وعندما حاول هذا التلميذ الجديد أن يشرح الأمر انتهره المعلم وأمره بالخروج من

الصف مع آخرَيْن لم يحلا الفرض البيتي. لم يسأل المعلم هذا الوافد الجديد ماذا تعلّم وأين تعلّم ولكنه أراد أن يريه العين الحمراء منذ البداية. ظلت هذه الحادثة ندبة في نفس يحيى اقترنت بموضوع الحساب فكرهه، وبعد سنين عندما تعلم الجبر والهندسة رُزق بمعلم ماهر فأحبّ الموضوعين وكان فيهما تعويض لتعديل علامة الحساب البائسة.

كانت أم يحيى تنشر الغسيل على السطح وإذا بها تطلق صرخة فزع تمزّق الجو. فاجأها ظهور شخص غريب الهيئة مشعث الشعر الأبيض يلبس أسمالاً مهلهلة، وقد فوجئ هو أيضاً فتلعثم وسال اللعاب من فمه.

أسرعت الجارة للنجدة، وسرعان ما هدّأت روع جارتها:

«هذا جبر المسكين. شو أطلعَك لهون يا غلبان؟».

غمغم الرجل وبدا عليه الخوف: «بدّي سجاير».

قالت الجارة: «قطيعة تقطعك وتقطع السجاير معك. إن رجعت لهون بقطع إجريك.. يلا..» فعاد يهبط الدرجات.

– «اسم الله عليك يا بنتي. بتعرفيش جبر؟ مسكين محروم نعمة العقل».

– «كيف وصل؟ أكثر من ستين درجة، درْت وجهي وإلا هو قدّامي.. انحلّت مفاصلي».

عادت الجارة ومعها طاسة الرعبة. سقت أم يحيى وتمتمت بعض كلمات مبهَمة، ثم حكت حكاية جبر. هو من عائلة معروفة، ولكن ميزانه مضطرب. يعيش في مغارة في الحارة المسمّاة على اسم عائلته. أقاربه يحملون له الطعام إلى المغارة، لكنه مغرم بجمع السجاير. لا يدخّن ولكنه يخزن السجاير. يقال إن في مغارته مخزناً كبيراً فيه مختلف الأنواع. باكيتات، وسجاير مفردة يرتبها في باكيتات. يبعث له أقاربه بالثياب لكنه لا يغيّر. ويهرب ممّن يحاول أن يغسله ويطرد عنه رائحة الوسخ. متى جُنّ؟ لماذا جُنّ؟ لا أحد يعرف. ولكنه يطوف يستجدي السجاير ولا شيء غيرها. وهو هادئ لا يعتدي على أحد. قالوا: بعض الصبيان يغافلونه ويذهبون إلى المغارة حين يغيب عنها ويسطون على السجاير فيهيج ويتمرّغ حزناً حينما يعود ولا يجد كنزه. وبعض الصبيان يحاولون التحرش به حينما يرونه في الشارع، ينادونه ويسخرون منه هازجين: «جبر بدّو سيجاره – يخبيها بالمغاره».

وظلّت صورة جبر في تلك اللحظة المفزعة لا تبارح خاطر أم يحيى، فإذا رأت أحد

أولادها مضطرب الهندام مشعث الشعر صاحت به: «شو هالشكل اللي مثل جبرا».

ويل للمساكين الذين ابتُلوا باضطراب عصبيّ ظاهر لأنهم يصبحون محطّ شراسة الصبيان يفرغونها فيهم وينفّسون عن العنف الذي يلاحقهم في البيت والشارع والمدرسة بأن يتّخذ له ضحيّة ضعيفة. وقد عرفت الناصرة في ذلك الحين مبتَلين آخرين، منهم أبو شلاميش الذي كان يلاحقه الصبيان بالحجارة في الأزقّة وهم يطلون من طرف الزّقاق ينادونه مستفزّين إيّاه ثم يرجمونه، فيردّ عليهم بالشتائم والحجارة وقد سقطت حطّته وعقاله وأصابته بعض الحجارة فشحذت قاموس السّباب عنده فيفاجئ بالصورة البذيئة المبتكَرة تصيب الإناث والذكور وتبحش عن الشروش والجذور.

كان يحيى ذاهباً إلى السوق يوماً وبيده سلة وقائمة مشتريات. وأصوات الصبيان تعاكس أبو شلاميش وتملأ الأزقة المجاورة، فإذا بدبشة كبيرة تتفجّر شظايا قربه، ولولا قليل لأدركت رأسه وكانت نهايته. أسرع راكضاً عائداً فلحقه المسكين، فالتجأ إلى بوّابة بيت مفتوحة أغلقها وأدرك أصحاب البيت هذا الاقتحام. انتظر حتى هدأت الضجّة، وعاد إلى السوق فهو لا يستطيع أن يعلن خوفه أمام والده.

ومن أولئك المساكين ذلك الذي كان يملأ أوراقاً باللغة الإنجليزية، يؤلف كتباً ويقرأ صفحاته لبعض الناس الذين يسايرونه ويترحّمون على عقله الراحل. كان في العقد الخامس من عمره يلبس البدلة دائماً وإن يكن البنطلون قد اتخذ شكلاً اسطوانياً منذ زمن والجاكتة لا تستوي على كتفيه، ولكنه دائماً يحسن عقد ربطة العنق، يقول إنه يؤلف قاموساً، ويظل يحدّث روحه وهو سائر في الشارع، ولكن الأولاد لا يعاكسونه. هل حال الأولاد كحال الكلاب التي قال عنها الشاعر:

إنّ الكلابَ إذا رأتْ ذا مَلبَسٍ هشَّتْ إليهِ وبصبصتْ أذنابَها
وإذا رأتْ يوماً فقيراً عابراً هرَّت عليهِ وكشّرتْ أنيابَها

لماذا تتداعى هذه الخواطر هنا عن هذه الفئة من الناس؟ للفكر سبل ملتوية في كثير من الأحيان.

أنِس يحيى بجاره في مقعد الدراسة ـ جميل. عرّف جميل يحيى على عادات المعلمين وجوّ المدرسة. في الفسحات بين الدروس مشيا معاً يتحدّثان ويتعارفان. بعد بضعة أيام كان

يحيى يتفرج على مجموعة الطوابع التي حرص جميل على جمعها أو مبادلة الزائد منها مع الآخرين، وقد كتب ملاحظات حول كل بلد إلى جانب طوابعها. وكثير من تلك الطوابع من بلاد أمريكا اللاتينية - من الأكوادور ونيكاراغوا وغيرها لأن له بعض الأقارب هناك. ثم خرجا إلى البستان المحيط بالبيت وفيه التين والمشمش واللوز الزيتون.

توطّدت العلاقة بين يحيى وجميل. كانا يحضران الفروض البيتية معاً أحياناً، ويشاركان في الذهاب مع مجموعة من الأولاد عبر الناصرة إلى ضواحي قرية اكسال لجمع جذور عرق السوس والعودة بها غانمين وقد حذق بعضهم دقّها ونقعها لاستخراج الشراب.

وأكثر ما جمع بين الصديقين كان المطالعة. فقد كانت مكتبة المعلم شقيق جميل مليئة بالكتب وكان يحيى يستعير ويعيد. وكان أخو جميل الآخر خطّاطاً يقصّ البوص ويحسن كتابة الخط الفارسي، أعجب يحيى بذلك، وحينما عاد إلى البيت تناول ملقطاً خشبياً، فسخه ورقّق طرفه وقصّه بما يشبه قصّة البوص التي رآها، فأغرق الخشبة في دواة الحبر وأخذ يخطّ مقلّداً، وظلّت هواية كتابة أنواع الخطوط العربية تلازم يحيى، يطوّرها نحو الإتقان ويحسّن أدواتها، ينقل عن الكتب عناوينها ويلاحظ كيفية كتابة الحرف في كل نوع من تلك الخطوط.

توثقت الصداقة بين يحيى وجميل كلما تقدمت الصفوف. وظل جميل رقيق القامة هشّ القوام، متشدّداً في محاسبة نفسه، مجتهداً منافساً. فلما أنهى المدرسة الثانوية في الناصرة التحق بالكلية الرشيدية في القدس، بينما التحق يحيى بالكلية العربية في تلك المدينة.

وعاد جميل بعد التخرج ليعلّم في المدرسة الثانوية في الناصرة، ثم علّم في مدرسة أهلية.. وهناك انفتحت أمامه أبواب طائفة دينيّة جديدة ووعد ببعثة دراسية إلى أميركا.. ولا يعلم يحيى تفصيل ما حدث لجميل في تلك المرحلة فقد ساءت حاله ونُقل للعلاج، بما في ذلك العلاج العصبيّ. وطال أمد العلاج والأهل لا يصرّحون بحقيقة الأمر، لذلك لم يتمكن يحيى من زيارته. كان يحمّل أهله السلام له، وكانوا يقولون إنه يبادلك السلام.

وانقضت سنوات زادت على العشر، وجميل لا يعود إلى البيت.

عاد مرة ولم يعلن عن عودته. ظل في البيت بضعة أيام، وذات يوم سُمع من غرفته صوت نشيج وصراخ فهرعوا اليه ووجدوا الدم يسيل فقد جرح عضوه الذكري بسكين جرحاً مزعجاً، ولولا أن أدركوه لقتله النزيف.

قالوا: فسّر الطبيب ذلك أنه تعبير عن الكبت وتأنيب الضمير الديني. فكأنما أراد أن يتخلّص من مصدر الشر والعذاب. أعادوه إلى المستشفى ليكون تحت إشراف.

بعد سنتين من ذلك جاء جميل في إجازة إلى البيت. زاره يحيى فعرفه جميل ورحّب به كثيراً. كان جسمه ناحلاً جداً وداكناً، وعيناه تبعثان رسائل اضطراب وقلق موحشين.

- «إذن، تذكّرتني!» قال يحيى.

- «كيف لا أذكرك؟ أتذكر يوم كنا مسافرين في السفينة أدرياتيكا إلى بنما؟ كنا ننام على كرسيين على السطح، على الدك، وهبّت العاصفة المجنونة والسفينة تلاطمها الأمواج وترتفع تحتها كالجبال، والناس كحبّات البطاطا يتدحرجون. وسقط المطر فوقنا مدراراً.. نعم مدراراً كما تقول الكتب، والموج مِكرٌّ مِفَرٌّ - كما يقول امرؤ القيس. كنتَ تمسك يدي خائفاً فأنت لا تحسن السباحة وفجأة وجدتُ يدي فارغة، كنتَ في الهواء رأسك يسبقك إلى البحر. سقطتُ حالاً على ركبتيّ أصلّي بحرارة لينقطع المطر وتخمد العاصفة. فجأة هدأ كل شيء، وإذا ملاك يحملك على جناحيه ينقذك من الغرق ويعود بك إليّ. قال لك: أنجّيك إكراماً لجميل فهو التقيّ أما أنت فما زلت لا تؤمن. هذه علامة لك لكي تعود إلى الإيمان. يا يحيى عليك أن تنجّي نفسك من النار. سامع يا يحيى؟ هل تذكر تلك الرحلة؟».

كان يحيى ينظر في عيني جميل عندما بدأ هذا حكايته، ولكنه لم يستطع أن يصمد أمامهما طويلاً.. كان في عيني يحيى ذهول تمزّقه خناجر، أدار وجهه عن جميل ومسح من مآقيه دمعة حارّة.

10. «قفشة»

السنة ١٩٣٦.

دخان خانق في الجوّ.

الدكاكين في سوق الناصرة مغلقة. كأنما لبس السوق جلده مقلوباً. سوق الحدّادين المعروف بضجيج تطريق النحاس، وكأنما يتناوب النحّاسون الطرقات في جوقة غريبة، هذا السوق انخرس، ولا تسمع فيه إلا صدى الخطوات القليلة على الرصيف الزلِق.

جوّ جنائزيّ يلفّ البلدة. جوّ من الرهبة والتحسّب والتوقّع.

الإضراب شامل. منذ أكثر من شهر يستمر الإضراب.

على أعمدة الكهرباء والجدران المطلّة على الشوارع والأزقة ألصقت منشورات، منها المطبوع ومنها المنسوخ بخط اليد. يحيى يقرأ هذه المنشورات. تتردّد كلمات «الثورة» و«الأمة»، وما زال يذكر عبارة في آخر إحداها: «وقد أعذَر من أنذَر».

التلاميذ الكبار ناشطون، حماسهم شديد، يقودون بقية التلاميذ من مختلف مدارس البنين والبنات في مظاهرات حاشدة صاخبة. والصبيّ يتعلّم بعض الأناشيد التي يردّدها مَن حوله:

نحنُ جُنــدُ اللّه شُبّــانُ البِـلادْ

نكرهُ الظّلمَ وَنأبى الاضطهادْ

ويذكر «مسرّة» طالبة جريئة تقود فريقاً من التلاميذ ويتجاوب صدى النشيد:

هـذا الـوطن ـ حـقٌّ له ـ أن يُفتدى بالدِّما والـمُهَج

عـارٌ عـلينـا أن نـنـام   ونُضيع مجداً لم يُصَنْ

هبّوا ولو ذُقنا الحمام

بالروح نفدي / بالروح نفدي

هذا الوطن

المظاهرة تجتاز الشارع الرئيسي. هناك قرب عين العذراء اسطبل خيول الشرطة، وقد اصطفّ الخيّالة على أفراسهم استعداداً لأمر الهجوم.

حماسة التلاميذ تشتدّ. الصبيّ يشدّ قبضته على حفنة الكرسنّة التي أخذها مع إخوانه من التلاميذ الكبار، ليقذف بها على الإسفلت حين تهاجم الشرطة لتتزحلق الخيل وتهوي بمن عليها.

أراد أن يرى ذلك يحدث فعلاً، يحسّ أنه يتحدّى «العمالقة».

تحقّق ذلك. ما كادت الخيل تهجم حتى كان الإسفلت مغطى بحفنات الكرسنّة تتدحرج عليه حبّاتها ناعمة عنيدة.

سقطت ثلاثة أفراس بمَن عليها.

كان الأولاد قد أصبحوا في الزقاق وهم يركضون، ويتطلّعون إلى خلف. تألّم لما عانته الأفراس، فما ذنبها لتعاني في هذا الصراع؟ التلاميذ الكبار يرجمون الشرطة بالحجارة والهتافات تعلو. تُسمع بعض الطلقات.

أحد التلاميذ الكبار يجرّه شرطيان على الأرض وهو يحاول أن يتفلّت.

يُعتقل عدد من التلاميذ، ويعامَلون بقسوة بالغة.

تُرفع الأرجل مقيّدة بحزام البندقية، ويُجلد باطن القدمين جَلداً مُبرحاً. ويُستدعى الأهل ليكفلوا أبناءهم.

كيان يحيى، الذي لم يبلغ الثامنة بعد، يمتصّ الحدث. الحديث بين الأطفال يدور حول تفاصيل التفاصيل. ماذا فعل كل واحد، من رأى، وماذا رأى؟

هناك رنّة من الاعتزاز والفخر في ما يسرده هؤلاء الأولاد. فجأة تحسّ أن براعم طفولتهم تحترق ويتساقط منها الرماد، وأنهم يكبرون سنوات في أيام، كالصورة المتحركة المعجّلة لزهرة رُصدت وهي تتفتّح وإذا بك ترى ذلك التفتّح متسارعاً متفجّراً - ما يستغرق أياماً يُعرض في ثوانٍ.

*

الناس يتراكضون مذعورين في الأزقّة. يتصايحون «قفشة». فالجنود والشرطة يعتقلون كل من وجدوه في دربهم، يجمعونهم في ساحة «الحِسبة».

الوجوه إلى الحائط، الأيدي مرفوعة، أصوات غاضبة وأسواط ضاربة، جلّ «المقفوشين» ممّن يلبسون الحطّة والعقال.

في طرف «الحِسبة» سيارة مصفّحة يقف قربها الجنود الإنكليز، يرتّبون الناس في صفّ يمرّ من قدّام المصفّحة، حيث فتحة يطل منها «خارجي»، يرى ولا يُرى، يشخّص، و«يُعيّن» المتهمين الذين يُساقون إلى الاعتقال - وتهمتهم أنهم شاركوا في إحدى عمليات الثورة.

أما التسمية «خارجي» فهي مستعارة من التاريخ ويُراد بها معنى آخر: ذلك الذي خرج على أمّته وتعاون مع الإنكليز المستعمِرين.

وقد تكون «القفشة» لغاية أخرى، يُجمع من الناس كل من ساقه حظه أن تعثر به الشرطة والجنود، فتملأ بهم سيارة شاحنة تسافر بهم في مقدّمة قافلة كبيرة من السيارات فيها الإنكليز واليهود والموظفون. فإذا كان هناك لغم في الطريق انفجر بهم صيانة للآخرين، وإذا كان هناك كمين لإطلاق الرصاص على القافلة كانوا أول من يستقبل ذلك الرصاص برؤوسهم وصدورهم. وقد تفتّحت قريحة أحدهم عن سبيل لتفادي الكمين، فأنشد وشاركه كلّ من في الشاحنة:

على دَلعونا على دَلعونا
ع الأوّلاني لا تِضْرِبونا

وانتشر هذا البيت وأصبح على ألسنة «المقفوشين» تعويذة لهم تقيهم شرّ رصاص إخوتهم، إذ يعرف أهل الكمين من يتفادون.

شهد يحيى أكثر من «قفشة» وتألم للإذلال الذي يتعرّض له الناس. وحينما كبر رجع إلى القاموس يبحث عن الفعل «قَفَشَ» فوجد معانيه: «قفش الشيء: أخذه وجمعه»، و«قفشهُ بالعصا: ضربه». وقد عانى شعبنا من المَعنَيَيْن، ولكنه وجد أن المصريين يستعملون «القفشة» بمعنى النكتة، فهل ذلك من باب: «شرّ البلية ما يُضحك»؟

كان القرويون يشكّلون العمود الفقري للثورة: وكانوا يلبسون الكوفية والعقال، فتعمّد الإنكليز اعتقال لابسيهما – في قفشاتهم. ولكي «تفوّت» الثورة على الإنكليز ذلك التمييز باللباس فرضت على جميع الرجال في المدن أيضاً أن يتّخذوا الكوفية والعقال ستاراً لرؤوسهم.

أطاع الناس الأمر، وتغيّر المشهد في المدن. ويُروى أن بعض التجار في إحدى المدن، وكانوا يتعالّون على الفلاحين، أطاعوا الأمر على مضض، فقال أحدهم: «ألله لا يجبرهم. طول عمرنا ما قدرنا نمدّنهم، بيوم وليلة لبّسونا التياسة!!». وقد اشتهر هؤلاء التجار بلوثتهم الطبقية، فكان الواحد منهم، حين يفتح دكانه في الصباح يقول: «لا أفلحَ الفلاح»، ويقول زميله: «إن ضاق صدرك إلعن الفلاح!».

ولكنّ «الأمّة» يجب أن تتّحد في الملمّات، ولا بدّ من كبت هذا العسف الطبقي ولو إلى حين.

*

كانت أصوات بائعي الجرائد – «فلسطين» و«الدفاع» تطلق العناوين المثيرة، وفيها أنباء الكمائن، والضحايا والاعتقالات.

وتطعّم حديث الصغار بكثير من الكلمات الجديدة الغامضة، بل تعلّموا بعض الشتائم الإنكليزية التي كانوا يسمعونها من الجنود، وأخذوا يتشاتمون بها.

وكان يحيى يقرأ في الجريدة لبعض الأميين الكبار في السن، يأتونه بها، ويستمعون بانتباه، وقد تمرّ به كلمات لا يفقه معناها، ولكنه يحيط بالمعنى العام للنبأ.

وينصت إلى الأحاديث التي تدور في البيت بين والده وأصدقائه.

تطلّ صورة مشوّشة مضطربة، ثم تقترب شيئاً فشيئاً لتجلّى أطرافها وتتّضح معالمها، هكذا كان شأن يحيى و«الثورة»، فقد بدأت في أحداث وكلمات مجرّدة بعيدة عن مرمى إدراكه: «إستعمار»، «أمّة»، «خوارج»، «سماسرة»... الخ.

أخذت أطراف الصراع تتحدّد في إدراكه، مع مَن وضدّ مَن؟ العدوّ أمامه - هؤلاء الإنكليز الذين يراهم بملابس الجنود جاءوا من بلادهم البعيدة الباردة فاحتلوا بلده، ووعدوا أناساً آخرين بالمساعدة ليأخذوا بلده منه. وشيئاً فشيئاً أخذت تُرسم الملامح لبعض التعابير.

11. عن «الزرقا» والرصاصة الفاجرة

الليل أبو ساتر.

يحيى يراجع دروسه في البيت الآخر الذي انتقلت إليه العائلة في الناصرة. ضوء الكهرباء لا يتراقص كضوء القنديل، لذلك أمكنه أن يتركّز في الدرس. فقد كان ضوء القنديل برجفاته يشتّت فكره، فيلاحق ما يرتسم من ظلال على الجدران ويسرح بخياله، ثم يضطر أن يوقظ نفسه من تلك الرحلات الصغيرة ليعود إلى الدرس. لكن... ألا ترتسم ظلال في ضوء الكهرباء؟ بلى، إلا أنه يجهل سبب التجاذب مع ضوء القنديل.

الساعة متأخّرة. دقّات على الباب.

الوالد يسأل بقلق: «من الطارق؟».

يَفتح الباب بحذر. يُفاجأ بزيارة ابن عمه الذي يسكن في القرية، وهو يحمل بندقية صيد.

يرحّب الرجل بابن عمّه، ويستقبله بلهجة تشوبها الدهشة والاستفسار. فليس حَمله البندقيّة أمراً عادياً، وليس مألوفاً أن يغادر بيته في القرية ويأتي ليبيت في الناصرة في ساعة كهذه. كان ابن عمّ الوالد موظفاً مسؤولاً في «دائرة الأشغال العامّة»، وكان يُشرف على عشرات العمال في تعبيد الشوارع. لم يكن يتعامل مع العمال بيُسر، ولم يصُن لسانه وقت الغضب.

وقد بنى في القرية بيتاً كبيراً حديثاً، لعلّه آنذاك من أكبر بيوت القرية وأكثرها وجاهة، يتألف من طابقين واسعين، ويحفل بالأثاث الوثير.

أرهف يحيى السمع، فقد كان حديث الضيف أقرب إلى الهمس. وانشغلت الأم بإعداد الفراش.

جاء ابن العمّ خشية تهديد «الثوار». لقد تبرّع للثورة أكثر من مرة. اقتاده بعض الملثّمين في الليل إلى خارج القرية وفرضوا عليه مبلغاً، فدفعه في اليوم التالي، وأعادوا الكرّة بعد أيام قليلة.. اقتادوه في الليل.. ودفع. وتُنّبئ الليلة أنهم سيجيئون، فغادر البيت مسلّحاً.

وراء الملاحقة سببان: الأول اعتباره «مقتدراً» ذا مال، والشاهد على ذلك بيته. والثاني أن بعضاً من عمّاله الذين قسا عليهم كان مع الثوار فأرادوا الانتقام، ووضْع معادلة أخرى للعلاقة بين الطرفين.

تعرّف الرجل على هؤلاء العمال الثوار الملثّمين حينما ساقوه في الليل وفرضوا عليه المبلغ وهدّدوه. لكنه لا يريد أن يشتكي إلى الشرطة. وقد تساءل أثناء حديثه: «ومن قال إن ما دفعتُه ذهب للثورة فعلاً ولم يذهب إلى جيوبهم؟ فلا وصل ولا أي دليل!».

كانت للوالد صلات كثيرة بفضل عمله وتنقّله في البلاد، وكان معروفاً بروحه الوطنية. اتّصل في اليوم التالي ببعض الجهات، وتمكّن ابن العم من العودة إلى بيته دون مزيد من الإزعاج.

انتقلت عائلة يحيى الى القرية. وكان على الصبي - وهو دون العاشرة - أن يمشي من القرية إلى الناصرة يومياً لمتابعة دراسته هناك. وكان يمشي معه عدد آخر من التلاميذ الكبار، من قريته ومن القرى المجاورة، وهو أصغرهم سناً. كانت الرحلة قاسية جداً في فصل الشتاء، فليس في الطريق أي مكان تلتجئ إليه من المطر، لا مغارة، ولا بيوت يمكن الوقوف تحت شرفاتها. حوالي خمسة كيلومترات في كل اتجاه. وحين تتبلّل الثياب وينتقع الحذاء في الصباح تحلّ الرطوبة ضيفاً ثقيلاً على الجسم تدخل من مسامه كلّها.

يذكر يحيى كيف توقفت له في أحد الأيام الماطرة، وهو عائد بعد الظهر من الناصرة، سيارة موظف إنكليزي كبير، في طرف المدينة عند «الخانوق» وأخذه معه إلى البيت في

القرية. كانت الكلمات الإنكليزية التي يعرفها الصبي قليلة ولكنها كانت كافية ليعرّف ذلك الرجل أين موقع بيته.

يذكر هذا الوجه الإنساني - على الصعيد الفردي، ويذكر حياله شراسة الجنود الإنكليز في «القفشات»، كما يذكر ثورة الجنود الإنكليز على حمّال نخَسَ حمارَه بقسوة شديدة، فهجم الجندي عليه ونخسه بالمنخاس نفسه. وقد انتشر الحديث آنذاك عن «جمعية الرفق بالحيوان».

*

اقتنى الوالد نصف فرس - نعم نصف فرس - فهو كثير التجوال في الأودية والجبال ولا بدّ من دابّة تيسّر له الانتقال.

كان شريكه، صاحب الفرس، رجلاً من القرية، وكانا صديقين. الفرس عند الوالد يطعمها ويرعاها ويستخدمها، فللشريك فرس أخرى. والأبناء يحتفلون بكل ما له صلة بها: يساعدون في غسلها وجلب زينتها، بل يشاركون في تدليلها بإطعامها مكعّبات السكّر. ويُشار إليها باسم «الزرقا»، ففي بياضها زُرقة خفيفة تنتشر فيها آلاف النقط الصغيرة جداً. وكان ينال الأبناء شيئاً من المكافأة على اهتمامهم، فيركبون تحت إشراف.

والخيل - كما تعلم - طبقات: فالفئة الكادحة منها هي «الكُدش» (جمع كديش أو كديشة)، وهي التي تحرث وتجرّ وتنقل، وكَسِواها من الكادحين لا تظفر بالكثير من الطعام، تعاني من الجوع. وقد قال المثل: «عيش يا كديش تا يطلع الحشيش».

أما الأصيل من الخيل فيُقتنى للركوب، ويدرَّب للسباق، ويدوَّن نَسَبه في «حجّة» (شهادة) تثبت عراقة أصله وتسلسل نَسَبه الكريم. رأى يحيى في بيت أبو سالم حجّة فرسه، وقد حُفظت في إطار وعُلّقت على الحائط. ولهذه الطبقة من الخيل زينتها من سروج جميلة، وشُبُنْد، ورشم، وغير ذلك من آيات التجميل. وطعامها الشعير، وقد يختلط به شيء قليل من التبن. واقتناء الأصيل من الخيل باهظ الكلفة. قال المثل: «اللي ما عنده عيله يقنى له كحيله».

وكأي أمر ثمين - يقسم إلى قراريط - كذلك امتلاك الخيل الأصيلة، فالواحد الصحيح يساوي ٢٤ قيراطاً. وكان والد الصبي يمتلك ١٢ قيراطاً في «الزرقا».

وللمحافظة على سلامة النسب لا بدّ من اختيار الجواد الأصيل الثابت النسب العريق ليكون أباً للمهر أو المهرة المرتجاة. وكان في القرية جواد كهذا، مهمّته أن يوزّع نسبه على الأفراس الأصيلة. وكان صاحبه خبيراً بكل شؤون العلاقة ومواسمها وطقوسها. ولخبرته ونِعَم حصانه ثمن معروف.

شهد يحيى أحد هذه الطقوس. عندما سيقت فرسهم إلى هذا الجواد لينعم عليها بمواهبه، وأدرك أن لصاحب الجواد دوراً هاماً في التمهيد لهذه المهمّة وتحقيقها. يمدّ يده في حقل الفرس يعدّه للزرع ثم يستثير شبق الحصان ويوجهه إلى غايته وهو يقول: «أملي بالله ـ مُهرَة».

تُفضَّل الأنثى على الذكر لأنها تَعِد بولادة المزيد.

توثّقت الصداقة بين الشريكين حتى وصلت «المؤاخاة».

*

فتحت الأم الباب، تأمّلت في الطارقتين اللتين لا تعرفهما، فهما ليستا من القرية، ثم رحّبت بهما ودعتهما إلى الدخول. اعتذرت الأم عن كون يديها مغمورتين بالعجين، وذهبت تغسلهما وعادت بسرعة.

طلبت إحداهما شربة ماء.

كان يحيى ينظر إليهما باستغراب وترقّب. إحداهما محجّبة رفعت حجابها وكشفت عن وجه حسَن. لعلّها أكبر من أمّه سنًا. أما الثانية فكانت أصغر منها، وهي سافرة، وقد سألت الصبيّ عن اسمه.

عادت الأم بكأسين من الشراب. وبعد أن شربتا، قالت الكبرى: «نجمع تبرّعات لعائلات الضحايا وشهداء الثورة»، وأخرجت من كيس معها صورة كبيرة ملوّنة.

تناول الصبيّ الصورة: الرجل في الصورة مألوف بعمامته ولحيته ونظرته، فوق رأسه قبّة الصخرة، وعلى الجانبين علمان عربيّان بالألوان الأربعة، وفي قاعدة الصورة كُتِب بالخط الثلث: مُفتي فلسطين الأكبر الحاج أمين الحسيني.

ومضت المرأة تقول: «بعض البيوت، ممّن لم يكن لديهم نقود، تبرّعوا ببعض الحليّ. الصورة هي الوصل».

دخلت الأمّ غرفة أخرى، ثم عادت ومعها نصف جنيه. مبلغ كبير في ذلك الحين. يكدح

العامل في شركة السجاير نصف شهر بطوله ليحصّله. وسوف يظهر أثر ذلك على ميزانية البيت، ومصروف يحيى.

لم تنتظر المرأتان لشرب القهوة، فما زال أمامهما الوصول إلى الكثير من البيوت.

*

ذات صباح، عندما فتحت أم يحيى الباب باكراً لتذهب إلى العين لجلب الماء، وجدت على العتبة شيئاً غريباً. رصاصة فارغة فاغرة فاها تحتها ورقة. أثار المنظر خوفها. ناولت الورقة للوالد. قرأها بدهشة: «مطلوب منك للأمّة ثمن ٣ بنادق»، والرصاصة الفارغة تهديد بالقتل إذا لم يُلبَّ الطلب.

انفجر غضب الوالد: مَن هؤلاء الذين يتحدّثون باسم «الأمّة» ويطلبون هذه المطالب؟ وكيف يقرّرون؟

إن رواتب سنة لا تكفي ثمناً لتلك البنادق.

لكن من الذي سيحمل البنادق. وإذا اقتضى الأمر فإن السلاح الذي أشتريه أحمله أنا – قال الوالد.

كان يدرك أن وراء ذلك يداً تستعمل اسم «الأمّة»، وتسعى إلى السرقة.

قرّر أن يحصل على سلاح يدافع به عن نفسه من أمثال هؤلاء. لكن أحد الأقارب تدخّل وقال: «لا. يجب أن لا تقتني سلاحاً بهذه الروح. إنك سريع الغضب وقد تتطور الأمور إلى ما لا تُحمد عُقباه».

عرف بالأمر أبو السعيد – الشريك في الفرس، وكشف أنه «قائد فصيل» في الثورة. قال: سأعرف مَن وراء هذه الورقة. أما إذا شئت السلاح دفاعاً عن النفس فهاك مسدّسي خبّئه عندك ولكن لا تُسرع إلى استخدامه.

تعلّم يحيى صيانة المسدّس البارابيلو – كيف ينظّفه ويزيّته أحياناً ويلفّه ويخبّئه في سنسلة الحديقة حيث يبقى في النهار. أما في الليل فيدخل المسدّس إلى البيت ليكون في مُتناوَل اليد.

بعد أيام جاء أبو السعيد بالنبأ. فقد عرف من كتب الورقة. لم يكن بيته بعيداً جداً عن بيت يحيى. أراد أن يحصل على بعض المال، وقد اعتذر عمّا فعل.

*

في السهرة يستمع يحيى إلى حديث الكبار متذرّعاً بلفّ السجاير. يُحضر التبغ المفروم فرماً دقيقاً كأنه الشعرُ الأشقر الناعم، ويحضر دفاتر ورق اللّف وصمغاً ومقصاً وقلم رصاص جعل فيه شقاً يحبس فيه غلاف دفتر ورق اللّفّ وقد ربط طرف الشق. كل هذه العدّة لها علبة خاصة فلا يحتاج كل مرّة إلى البحث عن التفاصيل. العملية سهلة وممتعة: توضع ورقة السيجارة في ورقة الغلاف المثبتة في القلم، ويوضع التبغ في الورقة بمقدار معلوم، ثم يُلفّ الغلاف ليتكوّر حول التبغ ويُشدّ بمعونة القلم. يُلصق طرف الورق بالصمغ وتُقصّ أطراف التبغ الزائدة بالمقص، وتُستخرَج السيجارة الناجزة وتوضع مع أخوات لها في علبة نحاسية مبيّضة الظاهر. كان الصبيّ ينجز الكثير في السهرة الواحدة. أما الأجر فهو سماع الحكايات والأنباء.

كان «قائد الفصيل» يحدّث عن سفراته إلى «القيادة» في الشام، وتتردّد في أحاديثه أسماء قادة الثورة: «أبو درّة»، «أبو ابراهيم الكبير»، «أبو ابراهيم الصغير»، وغيرهم. ويروي أخبار المواقع التي شارك فيها «فصيله» بشكل درامي يشدّ يحيى ويوتّر خياله.

12. مدرسة الزيتون

إلى المدرسة الرّسمية في الرينة ذهب مع سلامَه الذي يكبره بسنوات، فقد كان سلامه تلميذاً في تلك المدرسة يعرف الطريق اليها. أما يحيى فملتحق بها اليوم.

وهذه المدرسة غرفتان ومدخل. في المدخل غرفة المعلم المدير ومعلم آخر. وفي كل غرفة صفّان يعلمهما معلّم واحد.

اصطفّ التلاميذ في الساحة المسيّجة ببعض أشجار السرو. المدير وسيم طويل القامة، له شاربان طرفاهما مدبّبان مفتولان مصوّبان إلى أعلى، وعيناه حادّتان كعيني النسر وصوته عابس. هذا المعلم - واسمه سامي - من الناصرة. أما المعلّم الآخر - الشيخ قاسم - فهو من القرية.

أخرج المدير عدداً من التلاميذ جانباً، وكان يحيى فيهم، فقد كان على رؤوسهم الشعر.. حتى لو لم يبلغ في طوله عرض خنصر الطفل.

- إحلقوا شعركم «على الصفر».

كان على سلامَه أيضاً أن يحلق شعره، فذهب الصبيّ معه إلى الحلاق.

الحلاق: سعيد الأخرس، لقبه اسمه، والخرس صفة أصيلة فيه.

أسرع سلامه ليكون الأوّل في الدور عند الحلاق، وهرول الصبيّ معه.

استقبلهما الحلاق في ساحة بيت: كرسيٌّ قربه وعاء فيه أدوات الحلاقة. عليك أن تخاطبه بالإشارة وهو يسألك أو يجيبك ببعض الأصوات الخام المنبعثة من حنجرته، وببعض الإشارات من يديه.

أشار سلامه بيديه إلى رأسه إشارة ماسحة ماحقة فردَّ سعيد بلجلجة أعرب فيها عن فهمه.

جلس سلامه على الكرسي، فاستلَّ سعيد موسى الحلاقة، ثم بصق في كفّة يده بصقة كبيرة حولّها بعد ذلك إلى رقبة سلامة ماسحاً إيّاها على مساحة واسعة ليرطّب المنطقة فتسهل حلاقتها.

زعزع المشهد بدَن يحيى، وأحسَّ بغثيان شديد، فهرب من المكان. أوّل الرقص حنجله..

بعد الزلزال تهدّم قسم كبير من بيوت القرية، فأقيمت القرية الجديدة على سفح محاذٍ مقابل، وأصبحت القرية اثنتين في واحدة، وبينهما مساحة واسعة من كروم الزيتون.

المدرسة والحلاق في القرية القديمة، وبيت الصبيّ في الجديدة.

هرب إلى كروم الزيتون – في المابَيْن، وانتظر هناك حتى عاد التلاميذ ظهراً إلى البيوت للغداء، فعاد معهم، تغدّى وكأن شيئاً لم يكن، وحينما سُئل عن يومه الأول في المدرسة قال: «ماشٍ». لكنّه لخوفه من والده لم يكشف شيئاً عمّا حدث، وترك الأمور لتحلّ نفسها، لعلّ شيئاً يحدث، فتنفرج.

عاد بعد الغداء إلى كرم الزيتون. مرّ التلاميذ عائدين إلى المدرسة. وبعد حين سمع الجرس يقرعه المعلم، يهزّه هزّات منتظمة، وتنطلق القرعات.

ما أحلى صوت جرس «الحَلّه» كما يسميه التلاميذ، ولا شك أن في التعبير إيحاء بالفكاك من رباط يحلّه الجرس الذي قرع سابقاً فربَط وسجَن.

الوقفة في كرم الزيتون رغم حرجها بدأت تستثير الاهتمام. أجنحة ترفرف مجفلة، طير على رأسه تاج من الخيوط الطويلة المدبّبة، وطير صغير جداً منقاره طويل نسبياً يتقمّز مذعوراً، أخافه وجود الصبيّ القريب. سقسقة تتجاوب بين الزيتون، وحفيف الشجر، وعند

جذوع الزيتون أغصان لدنة من الأجيال الجديدة وبعر المواشي. الأرض محروثة إلا بعض الطرق الدقيقة التي لبّدتها الأرجل لكثرة ما سلكتها بين «البلدين».

هل يقف هكذا متأملاً؟ ماذا يقول المارّة؟ يبحث عن أعشاش الطيور؟ هل يفهمون معنى أن تهرب من بصاق الحلاق، وتخشى أن تبلغ أباك بذلك، ثم تقف تتأمل الأشجار والأطيار والتراب؟ لا بدّ من التظاهر بالتشاغل. هل يتظاهر بصيد العصافير فيرشق الأشجار بالحجارة؟ هل يتسلّق زيتونة يجلس على أحد فروعها الكبيرة إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً. قلّ من يعرفه بعد سوى الأقارب والجيران. وقد مرّ جارهم زوج خالة أمه - حبيب الأيوب - من هناك فرآه وسأله ماذا تفعل؟

قبل أن يعرّج حبيب الأيوب على بيته مرّ على بيت الصبيّ وسأل عنه، فقالوا إنه في المدرسة.

- أي مدرسة؟ هو في مدرسة الزيتون.

عندما قرع جرس المدرسة - جرس الحلّة، وتراكض التلاميذ إلى بيوتهم، اندمج يحيى بهم، ومحفظته في يده، وعاد مع العائدين.

- أين كنت؟
- في المدرسة.
- مدرسة الزيتون..؟ رآك حبيب الأيوب فلا تكذب. ماذا حدث؟

روى حكاية المدير وسعيد الأخرس والبصاق على رقبة سلامه. وانفرج همّه. فهمه والده، وأسفرت المداولات عن الرأي بأن يلتحق «بمدرسة اللاتين»، وهي مدرسة أهلية، لا تفرض قصّ الشعر. والمعلم فيليب الذي يعلّم هناك - وهو من بيت جالا - معروف بطيبته وذكائه.

ومدرسة اللاتين، في البلدة القديمة أيضاً، مواجهة للمدرسة الرسميّة، لكنها ليست أكثر من عقد واحد في دير اللاتين، حيث توجد كنيسة كبيرة، وفي الطابق الثاني يسكن الخوري ومن يخدم شؤون البيت. حول الدير ساحة مسيّجة بالصبر المتشابك العالي.

في العقد أربعة صفوف مختلفة يديرها معلم واحد، وقد لا يزيد الصف على مقعد طويل يجلس عليه أربعة أو خمسة تلاميذ. والمعلم أشبه بقائد فرقة موسيقيّة تلتقي عند شارات يديه كل الآلات في لحن واحد متناغم.

التعليم يتجاوز العربية والحساب إلى الانكليزية والرسم والتعليم المسيحي.. الخ. التلاميذ المسلمون - معفَون من التعليم المسيحي - وكم كان إخوانهم المسيحيون يحسدونهم لهذا الإعفاء. فقد كان هذا التعليم ببغاوياً يُدرّس في كتيب يسأل السؤال ثم يعطي الجواب، وعليك أن تحفظ نصّ السؤال والجواب، ومن قال إن الجواب كُتب ليفهمه هذا التلميذ الذي لا يتجاوز السادسة أو السابعة. فهل تعلم ما هي الأقانيم؟

- «الأقانيم ثلاثة: الآب والإبن والروح القدس». بهذا ينتهي الجواب. وإذا لم تحفظ كان العقاب: الركوع في زاوية الليوان، وإذا تكرّر الكسل - كان الركوع مع رفع اليدين إلى أعلى طيلة الوقت، أما إذا تفاقم، فالعقاب هو الركوع على حصوات صغيرة تحفر في ركبتك حفراً مؤلمة، ولا تثير في نفسك الكثير من الورع ومحبة الله.

لمدارس اللاتين كتب تدريسية أعدّها بعض الآباء. كان تعليم العربية في سلسلة «حدائق العربية»، والانكليزية في كتاب خاص أيضاً. أما كيف كان المعلم يدير الصفوف الأربعة معاً ويفلح في ذلك فأحجية لا يعرف حلّها سوى ذلك المعلم. يدرّس هذا الصف بينما الصفوف الأخرى تقوم بحلّ فروض معيّنة. ويستطيع الطالب من صفّ أدنى أن يشارك في الإجابة على أسئلة من صفّ أعلى، وهكذا يستطيع المتفوّقون أن يتجاوزوا حدود صفّهم.

تبدأ الدراسة في الصباح بالمشاركة في الصلاة في الكنيسة. بعض التلاميذ يلبسون ملابس خاصة - بيضاء عليها إطارات حمراء، ويخدمون القدّاس، منهم من يحمل المبخرة يبخر في الهيكل ومنهم من يدق جرساً صغيراً في طقس خاص وآخرون يشاركون في الترتيل، والأطفال يركعون ويقومون ويتلون الصلوات التي حفظوها غيباً: «أبانا» و«السلام..» والخوري يقول كثيراً من العبارات باللغة اللاتينية والأطفال يحفظون بعضاً منها.

الطقوس تشتّت التفكير، فيتساءل لماذا يقرع الجرس خلف الكاهن وهو منحنٍ، ويحاول الصبيّ أن يجد تفسيرات منها الجدّي ومنها الهازل. وأحياناً يسرح مع الكلمات: «يا أرزة لبنان صلّي لأجلنا». وعلى الجدار لوحة زيتية ألوانها غامقة وعليها صورة رجل معذّب، مهيب بياض اللحية، وقد كُتب تحتها «بعد أربعين يوماً تخرب نينوى».

أحبّ هذه المدرسة، رغم عقوبة الركوع، التي عوقب بها مرة واحدة، فقد كان المعلم طيّب القلب مشجّعاً، لا يقتصر في توجيهه على التوبيخ والتأنيب، ولكنه كان يقدّر الجيد ويحفّز

ويشجّع، مما يساعد التلميذ أن يبني لنفسه صورة ذاتية ملوّنة بالثقة.

ولم يقتصر دور المعلم على ذلك فحسب، بل أعدّ «للكوميديا» في نهاية السنة، والكوميديا هو الاسم الذي شاع بين التلاميذ والناس للحفلة المسرحية التي كان التلاميذ يقدّمونها في آخر السنة الدراسية، وكانت تعرض في القاعة التي في الطابق الثاني حيث يسكن الخوري. لا يذكر يحيى المسرحية التي قدّمت في تلك السنة، ولكنه يذكر الجمهور الكبير من الناس الذين شاهدوا الاحتفال، والستار الذي غطى المنصّة قبل المشاهد، وتصفيق الجمهور ثم الشراب الذي وُزّع على الناس، والحلوى التي نال منها.

ويذكر مرّة أنه شارك إخوانه التلاميذ في إعداد سجلّ طويل ألصقوا أوراقه ببعضها بالعجين، وألصقوا عليها صوراً دينية، وكان طول السجلّ أكثر من مترين لفّوه على عصا قصيرة من جانب وألصقوا به عصا قصيرة من الجانب الآخر. هذا «سجلّ العازار» والعازار هو الذي أحياه المسيح بعد الموت. وحفظوا نشيداً، وطافوا على البيوت، فإذا كان هناك طفل في سرير نشروا السجلّ فوقه ثم تلوا النشيد: «عازر عازر قُم إنهض وكلّمني...» وبانتهاء الطقس يحصل الأطفال على شيء، قد يكون نقوداً، أو بيضاً.. أو غير ذلك، والجود من الموجود.

كان المعلم فيليب يتّخذ نظارات طبية قويّة، وبعض الناس يتندّرون على ضعف بصره، فالضعف في القرية مثار للسخرية. حدّثوا كيف أنه كان ذاهباً إلى المدرسة فمرّ بالبيادر في الموسم، فلم يرَ البيدر، على ارتفاعه، فعثر به ولكن سرعة خاطره أسعفته، فرفع حفنة من القمح قائلاً: «سبحان الله ما أكبر هذا القمح». وفي مرّة أخرى عثر بكلب جاثم فقفز الكلب يعوي فلحقه الأستاذ مهدداً، وكأنه كان يلاحقه منذ زمن لذنب اقترفه.

13. بطاح كلاب

أديب أكبر من يحيى بسنتين. وكان قد نبت في تراب القرية، سمّدته بسمادها وسقته من عيونها. فإذا هبّ عليه أي شيء من حوله تناغَم معه وأسمعك أسجاعاً يرندحها وترتسم فيها صور شعرية تتفلّت فيها المعاني من إطارها ليستقيم لها السّجع.

كانا عائدين من «مدرسة اللاتين». اجتازا كروم الزيتون التي كانت تفصل بين القرية القديمة والقرية الجديدة. انطلق من تحت جذع زيتونة حرذون راح يركض بثوبه الرماديّ، أو كما يُقال في القرية - السّكني. ارتقى الحرذون كومة حجارة. وقف عليها.. اشرأبّ وسرّح عينيه الجاحظتين فيما حوله ثم راح يحرك جذعه إلى فوق ثم إلى تحت، يرفعه ويدنيه في حركات رتيبة بجهد المُجدّ، وإذا بأديب ينشد:

صَـلِّ صلاتك يا حـرذون

أمّك وابوك في الطابون

أنشد أديب ذلك وكأنه مقطع من طقس كهنوتي يلمّ الإنسان على كل ما في الطبيعة حوله. فكلّ ما في الطبيعة يسبّح الخالق، وهذا الحرذون في حالة من التعبّد، وحركته تلك على كومة الأحجار - صلاة. والدجاجة التي تحتسي شيئاً من الماء ثم ترفع منقارها إلى العلاء مقوّسة عنقها إلى الخلف، لا تفعل ذلك لتسهّل عملية انسياب الماء إلى جوفها بل توجّه رأسها ومنقارها إلى السماء حامدة شاكرة. واليمامة التي تبرقم في الصباح الباكر في نغم متكرر عبر وقفات قصيرة إنما تقول إذا تمعنتم في نطقها وتأملتم إيقاع سجعها: «سبُّحوا

ربّكم.. سبّحوا ربّكم..».

ولكن ما هي صلة البيت الثاني - في نشيد أديب - بالبيت الأول؟ ما صلة صلاة الحرذون بزجّ أمه وأبيه في الطابون؟ أغلب الظن أن نعمة التسجيع/التقفيّة أو نقمته هي المسؤولة عن هذا «التزويج» القسريّ.

ألا تذكرون حكاية الشاعر بشار بن بُرد الذي ظلّ يلوك بيت الشعر يبحث له عن قافية، حتى مرّ به صديقه «تسنيم» فاستقرّ اسمه في نهاية ذلك البيت ليلبس ثوب هجاء مقذع؟

والأطفال يحفظون الأسجاع الكثيرة التي تُروى جيلاً عن جيل، وقد نجد الأسجاع ذاتها منتشرة في العديد من القرى، مما يشير إلى رحلة طريفة تحتاج إلى تحقيق. بل تمتدّ الرحلة عبر الأقطار. أنظر كيف يلتقي أطفال بلادنا وأطفال مصر في تلك الأهزوجة:

يا طالع الشجرة
جيب لي معك بقره
تحلب وتسقيني
بالمعلقه الصيني

وأديب يحفظ كثيراً من الأسجاع، ويتعامل معها بإيمان ورهبة. بل يحفظ منها ما يخاطب به آلته يستثيرها أو يستنيمها، مردّداً ذلك السجع بكثير من الرصانة. كما يحفظ سجعاً يخاطب به نبات الشومر وهو يبرمه بين كفّيه ليستخرج لبّه شيئاً فشيئاً.

وأديب يتقبّل ما يسمعه من الكبار وخاصة العجائز على أنه حقائق ومعرفة ينقلها إلى من حوله، خاصة أولئك الذين هم أصغر منه سنّاً.

قال: هذا اللمعان في الجو والذي نسميه «البرق» هل تعرف ما هو؟

- ما هو؟

- هذا لمعان سيوف الملائكة وهي تقاتل الشياطين. و«الرعد» هو صوت الشياطين وهي تهرب خائفة أمام الملائكة، ودائماً تتمتم أمّي لمّا ترى البرق: ألله ينصركم يا ملائكة الرحمن.

وأديب هو أحد الذين يرتدون في الكنيسة ذلك الزيّ الأبيض ذا الأطراف المخرّمة الحمراء، ويقرع الجرس الصغير خلف الكاهن أثناء الطقس الصباحي، ويحفظ ترتيلة «العازر»، ويلصق

الصور الدينية في تتابع طويل تتخللها أوراق عليها صلوات: «أبانا...» و«نؤمن...»، ويتفنّن في إطالة الشريط. يعدّ الطحين المجبول بالماء للصق الصور، وقد يجمع أحياناً صمغ جذوع شجر اللوز أوالمشمش يعالجه بطريقة خاصة، ويتطوّع دائماً أن يشرح لك طريقة الصنع.

كانت مجموعة من التلاميذ عائدة من المدرسة، وقد حلّق فوقهم سِرب من الطيور. فقال أديب: من منكم يعرف أيّ هذه الطيور ذكر وأيها أنثى؟ توجّهت اليه الأنظار بدهشة. هذا السؤال لم يخطر ببال أحد.

قال: أنظروا. وقف رافعاً رأسه إلى السماء، وحصر فمه بين كفيه كأنهما بوق ونادى: «يا طير يا طير، إن كنت ذكر بتتعلّى وإن كنت أنثى بتتجلّى». كرّر ذلك ثلاث مرّات، والطيور في حركتها الدائمة تعلو، تهبط وتتسابق. راح يتأملها والأولاد من حوله ينظرون متعجّبين. ثم نظر إليهم قائلاً: تلك أنثى، أنظروا كيف تتجلّى... تنزل إلينا وتتجلّى. أما ذلك فهو ذكر. إنه يتعلّى. كان أديب يؤمن بما يقول، وكان يصدّق أن الطيور تتحرك تلبية لندائه. لكن يحيى لم يقتنع بهذا التصنيف، فقال: ولكن ألا ترى هذا الطير الذي كان يتجلّى كيف يتعلّى الآن، والذي تعلّى هبط يتجلّى، فهل تغيّر جنسهما؟

ظلّ أديب مصراً: ما فعلاه أولاً كان جواباً على طلبي، وحركتهما بعد ذلك حرّة! العصافير الآن في حالة «إسترِحْ»، حين يقول معلم الرياضة: «إسترِحْ» نفتح الرجلين بارتخاء ونتحرك كيفما نريد، ولكن عندما يقول «إستعِدّ» نقف كلنا في حالة استعداد!

*

وصل الأولاد إلى «الساحة» في البلدة الجديدة. وهي واسعة تتوسط هذا الجزء من القرية، تنحدر بتدرّج يسير جداً من الجنوب إلى الشمال، وفيها ثلاث زيتونات معمّرة ومتباعدة. وهي مركز الحياة «الاجتماعية» للأولاد. فهي ملعب تجري فيه مختلف الألعاب مثل لعبة «الماد»، وهي قريبة من لعبة «البيسبول»: فريقان، أحد الأولاد من الفريق الأوّل يحمل مضرباً، بينما يحمل ولد آخر طابة يرفعها له فيضربها ساعياً أن يبعدها إلى أقصى ما يستطيع، ثم يركض إلى نقطة معيّنة هي «الماد» وعليه أن يعود إلى منطلَقه دون أن تصيبه الطابة التي يركض الفريق الآخر لالتقاطها وضربه بها. وقد تكون الطابة من الخِرَق، فتكون انطلاقتها وحركتها فقيرة كحالها.

والساحة أيضاً هي «المطار» حيث يطيّر الأولاد طيّاراتهم الورقيّة التي تعبوا في إعدادها فحصلوا على الورق الملوّن وألصقوه على ذلك الإطار الخشبي السداسي، وقد يكون الإطار من القصب، ولا بدّ من براعة في ربطه بالخيطان بشكل منتظم وفي دقّة معادلة «الميزان» للتحكم بالخيوط التي يتّصل بها الخيط الطويل الذي بيد الطفل. ولا بدّ من ضبط مقدار «الذيل» فإذا كان قصيراً أصيبت الطيارة بالدُّوار منذ بدء انطلاقها ثم هوّت على أمّ رأسها في حركة دائريّة يائسة. ولا تسأل عن الاضطراب الذي كان يُحدثه يحيى في البيت حيث يتناثر العجين والماء والصحون والورق والخيطان التي تُلَفّ حول بكرة أو خشبة في نسق خاص. وكم طورِد الصبيّ من مكان إلى مكان في البيت وخارجه لئلا يعرقل مسيرة الحياة اليومية.

والساحة في الصيف بيادر. النوارج ـ ألواح الدراس ـ تجرّها الدوابّ والأولاد يركبون عليها مرحين مغنّين، وبعد حين تبدأ المذاري عملها ترفع السنابل المهروسة في الهواء تتيح له أن يفرّق التبن عن الحَبّ.

وقد تحتل الساحةَ في بعض المواسم خيام النَّوَر، ومنهم الحدّاد الذي يصنع السكاكين والمناقر وغيرها، ومنهم المبيّض الذي يقف في وسط الدّست يحرّك جذعه ذات اليمين وذات اليسار وهو يبيّض ذلك القدر وغيره من الأواني النحاسية. إلا أن ما لا يُنسى هو حين يقيم النَّوَر ألعابهم البهلوانية، فيربطون حبلاً معدنيًا بين عمودين متباعدين يمشي عليه بهلوان يوازن مشيته بعصا طويلة يحملها بين يديه، وترقص بعض النوريّات بغنج ورشاقة وينطلق صوت ناي يصاحب الرقص والأغاني. تتثنى الراقصة أمام بعض الوجوه أو الشباب ويطلق المغني بعض أبيات المديح للقرية وأهلها، فتمتدّ الأيدي إلى الجيوب تخرج بعض «النقوط» تودعه عند الراقصة. كان مرة مع إحدى هذه الفرق قرّاد معه سعدان ذكيّ ظريف سريع الحركة يسأله الرجل أن يمثّل مواقف وحالات إنسانيّة فيلبّي: كيف ينام الأرمل؟ كيف تنام الأرملة؟ كيف تنام العجوز؟... والناس المتحلقون في الساحة نساء ورجالاً، شباباً وأطفالاً يُغرِقون في الضحك ويتمتعون بهذه المشاهد. وبعد حين يعرب السعدان عن تعبه وتبرّمه من الإرهاق، فيقرّبه الرجل منه ويهمس في أذنه شيئاً، فيلحق السعدان بصاحبه إلى حيث يجلس المختار وبعض الوجوه. يصيح القرّاد: سلام تعظيم للمختار والوجوه، فيضرب طبل من طرف الساحة ضربات احتفالية مَهيبة ويرفع السعدان يده إلى رأسه بالتحية العسكرية ثم ينحني إجلالاً عدّة مرّات، يقف، يحكّ رأسه بيده قليلاً ثم يمدّ كفّه أمام الوجوه يتلقى ما تَكرم به نفوسهم، والقرّاد

يقوده بالسلسة أمام صفوف المشاهدين يتقاضى ما يتبرعون به لقاء إمتاعهم.

ولكن هذا الاحتفال قد ينقلب حزناً أحياناً على البعض. فقد كان بعض هؤلاء النَّوَر يستغلون انشغال الناس بالمهرجان فيمضون إلى البيوت فإذا وجدوا شيئاً خارجها من قدور أو أوانٍ، أو غسيل على الحبل، عادوا به. وقد تُقتحم بعض الأبواب، ولا تُكتشف الأمور إلا في اليوم التالي حيث يكون هؤلاء النَّوَر قد انتقلوا إلى قرية أخرى.

وكان يجري الهمس أحياناً بين الشباب أن بين النوريّات مَن تُكرِم إذا أكرِمت. ويصل إلى آذان يحيى بعض ذلك الهمس من الصبيان الآخرين يروون ما سمعوا من الشباب الذين لم يحترسوا وهم يحكون لبعضهم عن التجربة. فكثيراً ما يحسب الكبار أن الأطفال من حولهم صغار لا يدركون، إلا أن هؤلاء يحسّون مناطق الحرام ويهديهم إلى الإدراك حدس رهيب.

*

وصلت مجموعة الأولاد إلى الساحة. كان يجلس في ظل الزيتونة العليا عدد من شباب القرية، منهم من قرفَص وبيده قضيب من الزعرور ينكت به الأرض، ومنهم من افترش بعض العشب وقد أخذت أصابعه تداعب مسبحة، ينصت لوقع رنينها المتلاحق، ومنهم من كان طَرْفُه سارحاً لعلّ فتاته تعبر في طريقها إلى العين.

التفت أحدهم إلى الأولاد ونادى: تعالوا يا أولاد... تعالوا.

وفيما الأولاد قادمون اتّفق مع أصحابه على التسلية. قال: سنُجري بينكم مباراة في المباطحة. من خاله رَدي ولا يريد أن يشارك؟

قال يحيى: ليس لي خال ولذلك لا أريد أن أشارك.

قال: خوّيف؟ جبان؟

لم يردّ الصبيّ. تطوّع عدد من الأولاد للمباراة. أما الحكَم فهم الشباب كلّهم.

وقف خليل وأمامه نايف. الطول متناسب. أعطى كل منهما محفظة كتبه لزميل، وفتح باعَيه وفشّق رجليه. صدر الأمر بالهجوم. الصراع عنيف ليقلب الواحد الآخر إلى الأرض ويثبّته. كلّ يعالج الآخر يحاول أن يجعل رجله خلفه ليسقطه. الملابس تشارك في المعركة، وويل لمن تتمزّق ثيابه، فأكبر مصائب الفقير أن تقدّ قميصه. اللهاث يتعالى والفم يرغي

ويزيد. والجمهور منقسم في تأييده، هذا يحمّس وذاك يرشد ويوجّه. المداورة على أشُدّها. نايف يشدّ بذراعيه على مَتنَي خليل بقوّة يزلزله فيسقط. لكن خليل سرعان ما ينقلب فوق نايف، ويتقلّب الإثنان لا يُرسي أحد ندّه على الأرض.

- «بطح كلاب... هذا بطح كلاب» صاح أحد الشبّان، وأيّده الآخرون، وأمسك بهما، أنهضهما عن الأرض، وكل منهما يحتجّ ويدّعي عبر أنفاسه المتقطّعة والزبد عند طرفَي فمه أنه هو الغالب.

- قلنا هذا بطح كلاب. لنبدأ من جديد..

وقف كل منهما كأنه الديك المنتوف. وعاد الهجوم. عصَر نايف خصر خليل مرة أخرى بقوّة، فانطلقت أسنان خليل في كتف نايف.

- أخ.. عضّني...

وسرعان ما وجدت أسنانه سبيلها إلى خصمه، وخرجت المباطحة عن أصولها وتحوّلت إلى شجار، شارك فيه الأولاد، وتدخّل الكبار، وسَرعان ما تشبت الخصومة بينهم، هذا يتّهم ذاك أنه كان السبب، وذاك يردّ بعنف، فتهتزّ قضبان الزعرور في الأيدي مهدّدة، وتبدأ الحجارة تشارك في معركة الأولاد...

- أرخص التسليات..

تذكّر يحيى مشهد هذه المباطحة بعد بضع سنين، عندما سكنت عائلته في إحدى المرّات الأخرى في الناصرة. لم تكن شبكة المياه قد وصلت إلى كل الأحياء. فكانت النساء يبكّرن قبل الشروق إلى «عين العذراء» يملأن جرارهن، وتحتشد ساحة العين الصغيرة بالنساء، والحنفيات أربع. الهرج شديد وكثيراً ما ينشب الخلاف على الدور ويتحوّل ذلك الخلاف إلى شجار، فتهجم الواحدة على الأخرى. وقد تمخّضت تلك الممارسات عن تكتيك هجومي اشتهر وحاولت كل مقاتلة أن تطبّقه ليتحقق النصر.

تمسك الواحدة بإحدى يديها بتكّة شنتيانها تحميها، وتهجم باليد الأخرى على تكّة شنتيان العدوّ لتقطعه. فإذا قطعته اضطرت تلك إلى أن تمسك أعلى شنتيانها بكلتا يديها لئلا يسحل وتنكشف، فيخلو الميدان للأخرى لتضربها بكلتا اليدين حيثما شاءت، وقد تقرر مصير المعركة.

وكم تحولت المعركة بين اثنتين إلى «فَزْعَة» تشارك فيها الأخريات ويتصادم فخّار الجرار فيتكسّر. وحين ينقلب الخصام إلى شجار عمومي تتعطّل القوانين وتتعدّد الأسلحة فلا تُستثنَى الأحذية، ولا شدّ القراميل، ولا شدّ الشعر ونتف الرأس.. معركة ما قبل الصباح لوداع الليل والظمأ.

14. ألمـرآة

حيّرته هذه المرآة. ظلّت ترفّ عليه علامات استفهام تُسليه وتستفزّه.

مرآة كبيرة – أطول منه – يحيط بها إطار خشبيّ بنّي كبير، نُحتت فيه أشكال من التوريق النافر. عُلّقت عاليةً على الحائط الشمالي بين الباب والزاوية برزّتين كبيرتين قادرتين على حمل هذا الجسم الثقيل المصلوب، وقد انحنى طرفه الأعلى، مبتعداً عن الحائط لتطلّ المرآة على الغرفة إطلالة فيها مزيج من التطفّل والوقاحة والإيناس.

دون المرآة خزانة جوارير عريضة أفلح الصبيّ بعد حين أن يصل بيده إلى سطحها حيث كان على جانبيها مصباحان كبيران – هدية من عمّه الذي يسكن في حيفا – لكل منهما مظلّة زجاجيّة كبيرة لونها فستقي ناعم وعليها رسوم أطيار جميلة وأشجار. هذه المظلّة كانت تحضن زجاجة الضوء الداخلية وتلوّن نورها.

المصباحان يصيران أربعة، والطيور عليهما والأشجار تتضاعف، والضوء في الليل يتضاعف ويقوى بالانعكاس، والخضرة الفاتحة الناعمة المضيئة الناعسة تبعث في فضاء الغرفة طمأنينة دافئة.

عندما كبر وقرأ الحوار الذي يورده الجاحظ في كتاب «البخلاء»: أيهما أكثر اقتصاداً المسرجة من الفخّار أو المسرجة من الزجاج وخلصوا إلى الرأي أن مسرجة الفخار تمتصّ الزيت أما مسرجة الزجاج فتوفّر الزيت وتزيد على ذلك انعكاس النور على الزجاج فيتضاعف، تذكّر هذين المصباحين وانعكاسهما في المرآة فكان في ذلك باب جديد يُضاف إلى ذلك الحوار –

النور والمرآة.

كانت الأم تلك الليلة تجلس قريباً من الموقد وأمامها طبق عليه تلّ من الكوسا والباذنجان، وهي تحرك المنقرة برشاقة لئلا تنفذ من الحبّة، تعدّها للحشو.. فالعائلة تزداد أفواهها، ولا بد من استغلال المساء للعمل. حين تكون الأم في القرية ربة عائلة كبيرة، تستيقظ في السَّحَر، ويظلّ الدولاب يدور دون توقّف إلى ما بعد العتمة، تكاد لا تعي ما حولها ولا تلتفت إلى نفسها. الصغار يتصايحون، وقد أضيئت المصابيح، فراحوا يتراكضون في الظلال.

كان يقرأ درسه باللغة الإنكليزية. قالت أمّه: «ستّك أطلعتني من المدرسة. تعال اقرأ لي درسك».

أحسّ بإشفاق على حرمانها من التعلّم والتمتّع بنعمة القراءة، ولكنه أكبرَ اهتمامَها بالمعرفة.

كان درسه عن حكاية مصباح علاء الدين. أخذ يقرأ الجملة الإنكليزية بصوت عالٍ ثم يترجمها: «كان ياما كان ساحر. عاش في الصين. سافر إلى إفريقيا ليحصل على مصباح...»، واكتسبت الحكاية دفئاً خاصاً. أمّه تستمع وهي تعمل، وهو يعرض مهارته في القراءة والترجمة. علاء الدين يفرك المصباح فينطلق العملاق منه ملبّياً. يزداد الصبيّ ثقة بنفسه، وتربطه بأمّه صلة المشاركة الوجدانيّة.

مصباح علاء الدين، كيف كان شكله؟ لا شك أنه أصغر من هذين المصباحين لأن علاء الدين يحمله وينتقل به. ولكن كيف يتّسع لهذا العملاق الكبير. هل كان من الفضة.. من المعدن أو من الزجاج؟ هل كان يُضاء أو أنه مجرد شكل مصباح اتّخذه العملاق/العفريت بيتاً. هذا العملاق القدير لا بدّ أنه زخرف بيته. أيّ رسوم على ظاهر المصباح؟ هل كانت عليه رسوم طيور وأشجار كهذين المصباحين؟

هذان المصباحان فتناه بما فيهما من الفن - موسيقية خطوط التشكّل وهذا التحكّم في انسياب الخطوط وتحركها، وتلك البراعة في الرسوم والألوان والأصباغ. قلّما تعرف القرية مثل هذه الفنون. في القرية يصنعون أطباق القشّ في موسم الحصاد، بل قل يصنعن - لأن هذا الفنّ مقصور على النساء.

كانت خالته قد نقعت مجموعات من قشّ القمح في أوعية مختلفة، منها ما تُقع لمجرّد التليين، ومنها ما تُقع للتلوين. وإلى جانب الخالة صديقتان، حول كل منهما مجموعات من القشّ في عدد من المواعين. الخالة عُرفت ببراعتها في نسج الأطباق، وهي تبدأ لكل من الصديقتين التكوين الأولي لنقطة مركز الدائرة ثم تناولها لتنطلق في استدارات تكبر شيئاً فشيئاً. الهيكل: حزمة من القشّ المتناسق الملّين غير المصبوغ، ثم يُلفّ حوله القش الملون في أشكال مصمّمة تنمو في زخرفة جميلة زاهية.

هذا الفنّ فيه نبض الأصابع ورعاية العيون وبراعة ربط كل استدارة بأختها. لا ينتج طبق مشابه تمام المشابهة لطبق آخر. فقد تختلف الصّبغة في المرات المختلفة في القوة والضعف، وقد يكون القش هذه المرة أكثر سمكاً أو أقلّه. إنه الإنسان الذي يصنع كل مرة شيئاً متجدداً، أما الآلة فبعد أن تودعها القالب الرئيسي تبدأ بالنسخ الدقيق.

وكذلك موسم الطين الأصفر الذي تُصنع فيه الطبّاخات والمواقد. تتشكّل المواعين بأيدي النساء وفقاً للرشاقة والبراعة:

«قومي.. قومي.. إيد طبّاخك مثل كُمّاد الحَويتَه! هاتي أصلّحه!».

لم تحتجّ نجلا على انتقاد أمّها، فهي تعرف أن أمّها فنانة حادّة الانتباه. أما «كُمّاد الحَويتّه» فتعبير يفهمه الناس من معناه العام ولا يتوقفون عند التفاصيل. فالكُمّادهو قبضة اليد المُغلقة للملاكمة، والحَويتة هو الأحمق. فلماذا تكون قبضة يده مضرب المثل للشيء القبيح غير المتقّن؟ هناك صور تتراءى للناس بالاستيحاء، يشارك فيه إيقاع الكلمات ورنّة الحروف.

كثيراً ما كان المصباحان يسرقانه من المكان، خاصة عندما يستلقي في الفراش للنوم. لا يدري هل كانت رحلته في اليقظة أو في النوم أو في مساحة بين يقظة ونوم، ولكنها غامرة بذلك الإحساس الذي عبّر عنه أبو نواس حين وصف الخمر - «كأنما أخذها بالعين إغفاء».

يخفّ جسمه ويعلو على الهواء بمثل ما يرتقي الطير، وإذا به مع الطيور التي على المصباح يجثم على فرع شجرة يسمع الصداح. بعد حين تتحرك أجنحة تلك الطيور وتحلّق فيحلّق معها يشرف على مروج وجداول ويحسّ بدفءٍ تبعثه الشمس في ريش الجناحين. لكنه لا يذكر أنه ذهب مع تلك الطيور مرة للبحث عن طعام، وكأنما الطير المرسوم، طير الفن، لا

يأكل ولا يشرب، وفي ذلك سرّ خلوده. كم من أثر فني يعيش عشرات القرون.. ولكن، إذا انكسر الزجاج ألا تموت الصورة المبدَعة؟ تُرَمَّم..؟ تُلصَّق الشظايا؟ وهل تظل آنذاك هي؟

في إحدى رحلات الحلم فرك ذلك المصباح، نعم المصباح الأيمن. كان يريد أن يجرّب إذا كان هناك عملاق.. وفي أيّهما؟ بدأ بالمصباح الأيمن فانطلق صوت كالرعد وتصاعد دخان ملوّن انعقد في عملاق رهيب، انحنى أمامه وقال:
«شبّيك لبيّك.. عبدك بين إيديك!».

ماذا يطلب؟ عقدت الرهبة لسانه. لم يكن مستعداً للموقف. تذكّر الحكايات التي كانت تُروى في القرية عن أناس ظلّوا طيلة ليلة القدْر ساهرين ليكونوا مستيقظين حين يُفتح باب السماء فتحة خاطفة فيسرعون في ذكر طلبهم، ولكنهم ترتبك ألسنتهم وتخرج من أفواههم طلبات سخيفة، تنقلب فيها المعدودات والأعداد.

جفّ حلقه وانحبس لسانه، فاستيقظ مضطرباً. نظر في الضوء الخافت وإذا فرخ حيّة يسعى عند التقاء الحائط بأرض الغرفة. إخوته النائمون يملأون الغرفة، والخطر شديد. انتفض من الفراش، أمسك قبقاباً خشبياً وهجم به على الحيّة. أصابها في رأسها، قتلها ثم فتح الباب بهدوء ورمى بها خارجاً.

حيّرته تلك المرآة منذ وقف وعيه أول مرة أمامها فرأى أنه اثنان وليس واحداً. له وجود آخر مجسّم مواجه للوجود الأول. انتهز الفرصة، تأكد أنه ليس أحد سواه في الغرفة، فأخذ يعاكس المرآة – يمدّ لسانه للذي فيها فيردّ عليه الآخر بالمثل، يتحرك حركات غريبة فلا يَحار ذلك النِّدّ أمام التحدّي بل ينسخ الحركات بدقّة ومهارة.

الجدّة تخشى عليه. رأته مرّة في إحدى خلواته بالمرآة. في وعيها إيمان بسحر قوى خارقة. تخشى أن تتخلّى عنه المشيئة الإلهيّة وتسيطر الروح التي في المرآة فتعطّل عضلات وجهه ويبقى الوق أعوج.

– «لا يا ستّي تتخوّتش قُدّام المرآة، بْتِتخلّى المشيّه وبتظل الوقّ!». ثم تمتمت مستغفرة مستعيذة.

لكن تلك الملاحظة زادته حيرة. هل ذلك الوجود المرآتيّ شرّير يتربّص بوجوده الواعي،

يلبس ثوبه ويضمر له العثرة؟ هل ذلك الوجود من عمل الشيطان؟ وهل إذا انطفأ المصباح في الليل وسادت العتمة انطلق ذلك الكيان الشيطاني من المرآة وهدّده؟

ولكن هل الوجود المِرآتيّ للمصباح شيطانيّ أيضاً؟ إنه لا يزيد على أن يضيء في الليل حينما يُضاء المصباح ويضاعف النور. هل ينتقل ذلك الوجود من نور إلى نار تحرق؟

تعكّرت رحلات الأحلام بعد أن سمع ملاحظة جدّته، فأخذت تهبّ عواصف تغدر بالأجنحة، وتهطل أمطار تشوّش مسار الطير، ويرتعد الريش في البرد القارس، وكم سقطت طيور في تلك العواصف. تحولّت بعض الأحلام إلى كوابيس.

قالت له خالته مرة: «بكَفّي تتلاوق قدّام المراه بتِلتْمِس!».

والتلاوُق هو التعاوُج، أي تحريك عضلاتَ الوجه حركات تشوّهها. أما الالتِماس هنا فمعناه المسّ والجنون.

ذات حلم مدّ لسانه للمرآة ولوى أنفه، وحَوّل عينيه. مشهد مزعج، ولكن المصيبة كانت عندما ارتبطت العضلات وترسّخ التشويه. الصورة في المرآة رهيبة. تحقّق ما قالته الجدّة - تخلّت المشيئة الإلهية والتوَق وجهه. ولم يكن بينه وبين أن يصيبه مسّ سوى شعرة دقيقة، الرعب يسري في شرايينه متدفّقاً. يجاهد ليستعيد وجهه سيرته الأولى فلا يفلح. على نفسها جنت براقش.

حجر يحترق في صدره. لا يريد أن يفيق قبل أن يستعيد ملامحه. ولكنه يفيق، ينهض ليشرب، ويشد بيده أنفه ويحاول أن يصوّب عينيه. يطلّ في المرآة في الضوء الباهت جداً، يرفع الضوء قليلاً وينظر في المرآة، ولا يصدّق أول الأمر أن وجهه لم يزل على حاله، وأن الكوابيس حملته محملاً صعباً، ويل لك يا جدّتي. بل هذا إنذار لك قبل أن يجدّ الجدّ وتنحرف الزوايا والأشكال في الوجه البشري.

الصلة بين الوجود الواعي والوجود المرآتيّ ظلت تؤرقه عندما كبر، وظلّ يلاحقه السؤال: ألا يمكن أن يكون وجودنا في هذا العالم وجوداً مرآتياً لكينونة أخرى هي الأصل ونحن النسخة؟

وكم تتعدّد نسخ وجودنا، فنحن في المرايا وعلى صفحة الماء، ونحن في خواطر من حولنا

- نتمثّل في الخواطر المختلفة في صور مختلفة، فالمحبّ يرانا بنعمة محبتّه، والكاره يرانا بنقمة عداوته.

يذكر كيف ذهب مرّة إلى ساحة كبيرة أقيمت فيها ألعاب وملاهٍ للأطفال. كانت هناك خيمة كبيرة امتلأت بالمرايا منها المحدّبة ومنها المقعّرة وقد تواجهت. يمرّ المرء بينها فيرى وجهه وجسمه وقد امتدّت اليهما أيدي العبث والتشويه، وقد تعاكست المرايا بالانعكاس، وعاكست المرء في صورته.

إلى أي مدى تحمل تلك المرايا حقائقنا؟ أليس في نفوسنا شيء مما تعكسه تلك المرايا؟

لنا وجودنا الشكلي الخارجي، ولكن لنا أيضاً وجود باطنيّ نفسيّ قلّما نتعرّف إلى دهاليزه ومتاهاته.

وهل الأدب والفنّ مرآة المجتمع.. أم مرآة الذات، أم إشعاع صادر عن الذات؟ ما أكثر النظريّات التي قرأها حول ذلك، ولكنّه ظلّ معجباً بقول سقراط «أيها الإنسان إعرف نفسك».

*

دخلت الخالة هَنا إلى البيت وعلى وجهها مسحة من القلق:

- «وين يحيى؟» قالت وفي صوتها شيء من الذعر.

أجفلت الأم: «خير ان شا الله».

- «كنت في الدكان. لقيت أم أنيس. قالت: شفت ابن أختك راجع من المدرسة من الناصرة مع الأولاد. عزا ماشي بين الكبار مثل الصوص. يا دوبه طالع من الأرض، وطالع معهم راس». قلت لها: «قطيعه تقطعك. أذكري اسم الله. سَمّي. هاي المره عينها فارغه بتصيب. هاتي أخرّج عنّه».

الخالة هَنا معروفة بقوة شخصيتها، بصراحتها وقوة قلبها. وهي «تشطّب» إذا اقتضى الأمر. تمسك بشفرة الحلاقة الجديدة بأطراف أصابعها ثم توجّه الضربات السريعة إلى بطّة الرجل أو إلى الظهر أو الأذنين. ضربات خفيفة بارعة. تحسّ بوخز خفيف ثم يسيل الدّم.. الفاسد. إنها العملية المعروفة في الطب القديم باسم «الفصد». وقلّما تجد رجلاً أو امرأة من

أبناء ذلك الجيل دون أن تجد آثار التشطيب على أجسامهم. والخالة تحسن كذلك استخدام كؤوس الهواء، مع فصد أو دونه. وهي كذلك بارعة في «التخريج» والرقية ضد العين. أما أم يحيى فلم تكن تجرأ أن ترى التشطيب، وقد وثقت بأختها ومهارتها.

أحضرت الأم قطعة من الشبّ، بينما مضت الخالة إلى يحيى فوجدته يقرأ. سألته عن حاله فقال إنه يحسّ بالتعب. هو يقصد ما بذله من جهد منذ الفجر سائراً إلى الناصرة، ثم موجات الدروس المتوالية، والعودة سيراً إلى القرية. لكن الخالة أكّدت لنفسها أن ذلك مفعول الإصابة بالعين.

تجمّر الفحم في الموقد بعد طقطقة وهسيس. وضعت الأم الشبّ في الجمر وجاءت الخالة ومعها يحيى. وقف ورأسه منحنٍ فوق الموقد وامتدّت يد الخالة تمسّد عليه وتتلو الرّقى. أخذت تتثاءب.. اشتدّ التثاؤب، والشبّ في الجمر يذوب ويتشكّل. أحسّ يحيى بشيء من الراحة تبعثها حركة اليد الحنون الرتيبة على رأسه وظهره، بل وصلته عدوى التثاؤب.

بعد انتهاء الطقس التقطت الخالة قطعة الشبّ المتشكّلة بالحرارة وأخذت تتأملها، والأم تنظر كذلك في الشكل.

- «شوفي. وجه ام أنيس. العينين والمنخار».

اتفقتا أن الوجه وجه أم أنيس.

- «تعال يا يحيى. إدعس على الشبِّه. إدعس. إمعَسْها إفقا عينها. العمى يعميها».

داس يحيى على قطعة الشبّ بقوة فسحقها وأحسّ بكثير من الراحة فهو مركز اهتمام العائلة. كلهم مشارك في القلق عليه وفي طرد العين الشريرة عنه.

15. قضيب الرمان

مساءٌ شتويٌ متجهّم. العتمة بدأت تمحو معالم الأشياء. العجّال روّح منذ زمن، وكانت العجول والأبقار قد ملأت الفضاء بخوارها المتفاوت النغمات والتعبير، قال الأب لابنه:

- «إذهب إلى الدكان واشترِ لي علبة سجاير «أوتومان»».

الطرق في القرية غير معبّدة، وبعضها تنبت الحجارة فيه كأسنان الكلاب. والكلاب بدأت تحتلّ المسرح الليلي، تتحاور وتتسامر، ويتمايز النباح بنبرات مختلفة وطبقات صوتيّة شتى.

حمل يحيى بيده حجارة يدافع بها عن نفسه من الكلاب وقت الحاجة، وذهب إلى الدكان. المسافة ليست بعيدة، رذاذ خفيف يرش الأرض، وينتعش به يحيى. الدكان مغلقة، وهي غرفة تجاور بيت صاحبها، دق باب البيت، كما كان يفعل في مرات سابقة، ليفتح الرجل دكانه ويبيعه السجاير، لكن أحداً لم يردّ.

دق بمزيد من القوّة وزاد نباح الكلب الذي أخذ يقترب منه مهدّداً، ولكن لا جواب ممّن تنادي.

عاد إلى البيت وهو يتوقع تأنيباً شديداً على أمر لا ذنب له فيه. رفع الأب رأسه عن الخريطة التي كان يرسمها وارتفعت الريشة في يده عن الورق وقال:

«إذهب إلى دكان الشيخ خليل في البلد العتيقة، وإذا كانت الدكان مغلقة، دُقّ على

الباب حتى يفتح فهو ينام في الدكان».

تعقّدت الأمور، فالرّحلة هذه المرة عسيرة.

بين البلدة الجديدة والقديمة منطقة خالية من السكان، فيها كروم زيتون كبيرة، واجتياز هذه الكروم في العتمة مخيف، لكن هل يستطيع الصبيّ أن يعلن عن خوفه هذا؟ مثل هذا الإعلان يعرّضه لغضبة شديدة ولا يعفيه من المهمّة. إنه يخاف أن يخاف.

عاد فحمل النقود بيد وحجارة باليد الأخرى، وسار في العتمة متهيّباً. الرذاذ يزداد. نبَحَه كلب واقترب منه وازداد حماس نباحه. يجب أن لا يرميه بحجر إلا في حالة الخطر الحقيقي، فإنّ رمي الحجر على الكلب استثارة له.

عليه أن يسير بخطى ثابتة توحي بالثقة بالنفس، فإذا ركض طمع الكلب فيه وتجرأ عليه ملاحقاً.

العتمة في كرم الزيتون تسود. الطيور التي أوت إلى الغصون تجفل من صوت وقع خطواته. الإجفال متبادل، فقلب يحيى يضطرب لصوت خفق الأجنحة في العتمة، لا كلاب في الكرم فليركض اختصاراً لمساحة الخوف، كل صوت مثير وكل طيف رهيب.

دكان الشيخ خليل عند طرف كرم الزيتون، محاذية للشارع العام. وصل اليها يحيى وهو يلهث، تصدّى له هناك كلب وقح. نادى على صاحب الدكان بصوت عالٍ. سُمع من الدكان صوت أبحّ يسأل من المنادي؟

وبعد أن سمع جواب يحيى، تحرك المفتاح في السكّرة وتوارب الباب وأطلّ منه ضوء قنديل يحمله الرجل في يده.

هدأ نباح الكلب حينما بدأ الحوار بين الصبيّ وصاحب الدكان، كأنما اكتفى الكلب أنه نبّه صاحبه إلى اقتحام هذا المخلوق المجهول.

لما عرف الشيخ خليل أن المطلوب هو علبة سجاير وأن المبعوث صبيّ صغير يتسكّع عمره حول السابعة ناوله العلبة وقال:

«قول لأبوك هذا السمّ بقدر يستنّى للصبح».

عاد يحيى بالعلبة ليجتاز كرم الزيتون راكضاً مرّة أخرى، كانت أكعابه تلطم مؤخّرته في ركضه المذعور، وكان في يديه أكثر من حجر، ثم مرّ بالبيوت فعادت الكلاب تتصدّى له. «الكلب بِتحالى باب دار صاحبه»، إنه يعرف هذا المثل، ويعيّر به الأولاد الذين كانوا يتصدّون للشجار أمام بيوتهم.

اقترب منه كلب جعاري مقطّش. كان البعض - كما يُروَى - يقصّون أذني الجرو ويطعمونه هاتين الأذنين ليصبح شرساً جارحاً، وجلّ كلاب الرعيان كانت كذلك.

أحسّ يحيى بصراع شديد، قوّة تريد أن تطلق رجليه للريح، وتطلق الحجر من يده على الكلب، وقوة أخرى تشدّ رجليه على الأرض للثبات والإيحاء بالثقة والقوة، إلا أن الكلب اقترب كثيراً وكان تهديده حقيقياً، فأطلق عليه حجراً لم يُصبه فركض الكلب يتبع الحجر يشمه ثم يعود مهاجماً، رمى حجراً آخر إلى مسافة أبعد ليطول زمن ابتعاد الكلب قبل عودته مرّة أخرى. وقامت تساعد الكلب كلاب أخرى في النباح، ولم ينجد الصبيّ إلا خروج صاحب البيت الذي انتهر كلبه بعد أن تأكّد من أن «الزول» لم يكن أكثر من طفل.

وأخيراً عاد بعلبة السجائر إلى الأب الذي كان ما يزال يرسم الخريطة على ضوء القنديل الباهت، وضع العلبة على الطاولة دون أن ينتظر شكراً أو أي تعليق.

كان الوالد يؤمن بالتخشين: عبر الصعوبات يُربّى الرجال. وكان يروي كيف كان يمشي يومياً وهو فتى في الحادية عشرة إلى جبل الطور، عدة كيلومترات في الوعر، ليعمل في بناء الكنيسة التي على قمة الجبل. كان يذهب قبل الفجر ويعود مع المساء، وزوّادته رغيف مغموس بالزيت واللبنة.

وكان الوالد يؤمن بالعصا كوسيلة للتربية وتقويم السلوك، ألم يقل بذلك سليمان الحكيم؟

ألم يقولوا: «العصا لمن عصا»؟ وزادوا «العصا من الجنّة». ولذلك كان يُطلب إلى الصبيّ - إذا أذنب - أن يذهب إلى البستان ليقطع فرع شجرة رمّان يشذّبه فيزيل ما عليه من أطراف شائكة، ثم يقشره نازعاً لحاءه، ويعود به ليُضرب، وكان الضرب شديداً يترك آثاره الزرقاء على مختلف أنحاء البدن.

ومن طقوس هذا العقاب أن تكون الأم قد أعدت وعاء ماء بارد تغرق فيه الأطراف المضروبة ليخف عنها الأذى والأثر.

كانت تفعل ذلك وهي تكبت حزنها وغضبها، وحين يذهب الوالد تؤكد للطفل، وهي تمرّ بيديها بحنان على موضع الأذى، أن أباه يحبّه وأنه ضربه لئلا يعود على ذلك الخطأ، وبصوتها الهادئ العذب، واحتضانها للولد تخفّف عنه جسدياً ونفسياً.

عانى من هذا العقاب وطقوسه الإخوة كلّهم، كلّ بدوره، وإن لم يكن هناك دستور يبيّن الآثام التي يسري عليها مثل هذا العقاب، وكم عدد الضربات، وأي الأطراف تُضرب.

ذلك يخضع للجوّ النفسي للوالد حيال أيّ ذنب، فقد يعاقِب على أمرٍ بالضّرب هذه المرة وبعقاب آخر أخفّ منه في مرّة أخرى. وقد يكون عدد الضّربات هذه المرة أقل أو أكثر من مرة أخرى.

وحينما يتمعّن المرء في أسلوب العقاب هذا يجد أموراً غريبة، فالمسافة إلى البستان لا بأس بها، يقطعها الولد متلكئاً ببطء شديد، وقد تستغرق عملية الذهاب والقطع والتقشير والعودة زمناً طويلاً، فيكون غضب الوالد قد برد، وقد يكون منهمكاً في أمر من أموره، فيقف الولد بعيداً في زاوية ينتظر، لعلّ العقاب قد نُسي ونُسيت بواعثه، ولكن قلّما حدث ذلك، فإذا أهمل الوالد الأمر تصدّى أحد الإخوة يذكّره به شامتاً، وهكذا تنشأ سلسلة من الشّماتة المتبادلة - بدلاً من التضامن - ولا يُتاح للوالد أن ينسى.

هل يبرّد الوقت سَوْرة الغضب؟ لكن الغضب يتفجّر أحياناً على التلكّؤ في العودة، أو الانتظار في الزاوية دون الإعلام عن الوصول. وكان الوالد معروفاً بسرعة الغضب وسرعة الهدوء.

ذات يوم انفجر الغضب على الولد السادس. شُكي أنه اقترف ذنباً، فصدر الحكم بالعقاب التقليدي - «إقطع فرعَ رمّان، قشّره وتعال لتأكل نصيبك».

كانت عودة الولد سريعة جداً، خلال دقائق كان قد عاد ومعه فرع رمّان طويل، مكسوّ بالشوك المؤذي والأوراق الكثيفة. نظر الوالد إلى الفرع وتساءل:

- «لماذا لم تنزع عنه الشوك ولم تقشّره؟».

قال الولد: «لكي تقتلني.. إذبحني يا أخي!».

كان الوالد قد تقدّمت به السن، وأخذ الهدوء يجد سبيله إلى مزاجه، ولعلّه كان في تلك اللحظة في حالة رضيّة، فأمسك بالفرع، تأمّله وضحك، وقال للولد بلهجة فيها أثر من الدعابة: «طيّب إنصرف!».

وهذا الولد السادس تمادى بسرعة خاطره في الإدلال على والده، فقد غضب الوالد منه لأمر ما فأمره بمغادرة البيت مطروداً. ومثل هذا الطرد تكرّر مع الأولاد السابقين، فكان بعضهم يترك البيت سحابة النهار ثم يعود عند المساء وكأن شيئاً لم يكن، فلا يكون تذكير أو عتاب، وقد يمتدّ الطرد إذا ذهب الولد إلى دار جدّه ثم يعود، ولكن الوالد كان يعلم أنه يبيت في بيت جدّه، ثم يعود بدون سؤال أو عتاب.

إلا أن هذا الولد تجرأ في هذه المرة، وقال لوالده: «كيف تطردني؟ هذا بيت أبوي مش بيت أبوك. أنا اللي حبيت في هذا البيت مش إنت».

كانت لهجة الولد جدّية، فيها البراءة والصدق، فلم يستطع الوالد أن يكتم ابتسامة عريضة وقال له «إنصرف يا...».

16. عيشوا

كانت لطفيّه تسحب الحبل من بير «القناة» ترفع الماء في الدلو ثم تصبّه في جرّتها تملأها وهي تغنّي بمرح ودعابة:

يا جارتي ملّي الجرّة
وعيون جوزك لبَرّه

وأردفَت: «سامعه ياناايفه؟»

قالت نايفه بصوت يمتزج فيه الجدّ بالمزاح: «بَقْلع لُه عينيه وبطعميهن للبساس»، وقد ارتعد قلبها من صورة القطط تهجم على عيني زوجها المقلوعتين تنهشهما بنهم.

- «سلامة قلبه»، قال صوتٌ بلهفة. ذلك صوت آمنة ابنة عمّ زوج نايفه، ثم تابعت: «الشبعانْ ما بتطلّع برّه. كل واحده تدير بالها على جوزها».

لكنّ نزهة التي عركت الحياة، أو عركتها الحياة أكثر ممن حولها قالت: «هذا حكي مليح لكن مش دايماً مزبوط. فيه زلام مثل الجمل - الشّبرِقّه بثِمُّه وعينُه ع أختها. القَجَع والطّمع يا خايبات، بكون صحن اللحم قُدّامه بروح يدَوِّر ع مَرْقة العدس!».

وتنهّدت عدله بحرقة ومرارة. لم يكد يمضي شهر على زواجها حتى اكتشفت أن زوجها «يخَمْخِم»، ولا يستطيع أن يستر لخمته. تلك الأرملة في الحارة الفوقا لم يستطع الانقطاع عنها. وتطوّر الأمر إلى أن قرّرت عدله الطلاق وبقي لها من زواجها طفل بريء رائع خلّفه

الزوج الخائن.

كانت كل واحدة تنتظر دورها لتنشل الماء وتملأ الجرّة. يجئن عادة أسراباً، ويعدن أسراباً فينتظر بعضهن بعضاً، تساعد الواحدة زميلتها في رفع الجرّة الممتلئة وتثبيتها على إكليل القماش المضفور على الرأس. وتتغاوى كل واحدة في حمل جرّتها، فلا بدّ من انتصاب القامة وحفظ التوازن. لا تسند الصبية جرّتها بيدها، بل تميل الجرّة بكبرياء، بينما تسير صاحبتها ميّاسة تتحدث إلى صاحباتها دون التفات إلى ذلك الكائن الأسود المشرف من فوق الرأس.

الجرار السوداء من غزّة، كان يأتي بها تجار غزّيون يبيعونها، ويبيعون أباريق سوداء عليها بعض الزخارف بطلاء أحمر. أما الأباريق «البيضاء» الضاربة إلى صفرة شديدة، فقد تكون من عكا، أو من الناصرة.

كانت في الناصرة فاخورة صاحبها فنّان، وكان يصنع جراراً وأباريق وأجران كبّة صغيرة جداً للزينة، وكان يحيى يحتفظ بمجموعة من هذه الزينة الفخّارية الجميلة.

وللجرار في البيت «حامل»، وهومنصّة خشبية مرتفعة قليلاً، فيها - عادة - تجويفان تستقر فيهما جرّتان، فإذا أردت شيئاً من الماء أملتَ الجرّة حتى ينسكب، ثم عدلّت جلستها. وكثيراً ما تكون قصفة ليمون أو سَرّيس على فم الجرّة تضمن لها رائحة حسنة. وفي بعض الأحيان تجد غطاءً خشبياً على باب الجرة له مقبض صغير يمنع سقوط شيء في الماء.

قرية الصبيّ مباركة بينابيعها الكثيرة العذبة. فهناك «القناة» و«البير التحتاني»، و«العين» و«عين جكله» و«عيون الجنان» وغيرها.وقد كشفت دائرة الآثار أيام الانتداب عن قساطل للماء تمتد من القناة إلى صَفّوريه، وعادت فدفنت تلك القساطل. شاهدها يحيى بإعجاب، ورحل بفكره إلى قبل مئات السنين، وأخذ يتخيل الناس الذين حفروا وبنوا واستقوا وسقوا. كانوا هنا. إنهم أجداده. قدماء راسختان في هذا التراب وأجداده عريقون هنا.

هل أتاك حديث البير الشمالي؟

قال أبو السعيد: ذات يوم مرّت بالقرية جماعة من التجار كانت متّجهة إلى طبريا. وقفوا عند البير الشمالي ليستقوا ويسقوا الدوابّ. كان معهم خادم أوكلوا إليه مهمّة السقاية، يمتح الماء بالدلو المربوط عند باب البير فيملأ الرّان لتشرب الدوابّ. ثم يملأ قِرَباً

كانت مع التجار ليشربوا.

ولا نعلم هل أصاب الرجلَ دوار نتيجة الجهد الذي عاناه، أو كان ذلك لسبب آخر، فقد الرجل توازنه، غلبه رأسه فسقط في البير. صاح بصوت رهيب عند سقوطه ثم انقطع صوته. تراكض الرجال. أحضروا حبلاً طويلاً، حبل جمّال، ربطوه بقطعة حديد كانت مثبتة قرب البير، ورموا الحبل في البير للرجل ليمسك به ليرفعوه. صاحوا:

- «أربط الحبل بْوَسْطك وامسكه بقوّة حتى نرفعك».

لم يصدر عن البير أي صوت. حركوا الحبل لعله يصل إليه. ثم صاح أحدهم: «هاتوا الحبل أربطوا الخطّاف فيه وارموه».

جذبوا الحبل وثبّتوا الخطّاف في طرفه، وعادوا فرموه في البير:

- «هيه يا مبارك.. سامع..؟ مبارك!».

سُمع أنين ينزّ عن حنجرة مكسّرة كالقصبة المحطّمة.

- «إمسك الحبل يا مبارك وشدّ.. شدّ».

تعاون عدد من الرجال على رفع مبارك حتى وصل باب البير. مدّوا أيديهم إليه وانتشلوه. كان الماء يقطر منه ومن ثيابه إلا أن ثوبه عند صدره كان غريباً كأنما طلع له ثديان.

- «شو هذا يا مبارك؟».

قال وهو يحاول أن يلتقط أنفاسه: «رمّان».

علّق أحدهم مازحاً: «من هيك ضاع توازنك!».

- «لا.. لا، هذا الرمّان من البير».

- «إسمعوا هالحكي.. رمّان من البير.. وطالع في غير الموسم؟».

- «كلّ واحد بوكل رزقته..».

ويعاود أبو السعيد الحديث: بعد أسبوعين رجع مبارك إلى البير الشمالي وحده. كنت أسقي الغنم. تذكّرته. كانت معه قفّة فيها تمر. ربطها بالحبل ودلاها في البير وقال: «هاي الأمانه يا جنّ الرحمان.. وصلت؟».

سُمع صوت غريب من البير. ثم سحب مبارك الحبل ولم تكن فيه القفّة. عجبت من أمر الرجل وسألته عمّا يفعل. بعد تردّد حكى ما جرى له عندما وقع في البير. قال: «طلع لي جنّي وجهه بلمَع مثل النحاس. سألني عن إسمي وقال: شو بجيبك من بلاد الناس ع بلاد

الجنّ؟

- عفوك يا سيدي، ما بريد إلا الميّ.

- لوين إنت رايح؟

- رايحين ع طبريا.

أعطاني حبّتين رمان وقال: جيب لي معك قفّة تمر لما ترجع». بعثت الرمّانتين لمرَتي. لما فلقتهن لاقت حبّهن كله لولو.. الكريم رزق، واليوم وصّلت الأمانه. جبت لُه قفّة التمر».

أتيح للبلدة «الجديدة»، التي بُنيت بعد الزلزال أن تبرّعت لها محسنة بريطانية – مسز نيوتن – بشبكة أنابيب وموتور يضخ الماء في الشبكة إلى حنفيات قريبة من البيوت، ولكن أحداث ١٩٣٦ أوحت لبعض الغيورين أن ينسفوا الموتور ويعطلوا الشبكة كلها. أليست المتبرّعة إنكليزية والإنكليز مستعمِرون؟

وهكذا عادت النساء إلى الرحلات الطويلة لجلب الماء، منذ غبش الفجر...

كان الحرص على الماء شديداً، فسعوا إلى حفظ أمطار الشتاء، فأما الذين قدروا فقد حفروا آباراً في الأرض – حيث يتيح الصخر ذلك – وقصَروا تلك الآبار لمنع رشح الماء وتسرّبه. وأما الذين لم يقدروا فكانوا يستعينون ببراميل يضعونها تحت المزاريب. فإذا امتلأ البرميل جيء بآخر، وخفّت رحلة الماء في الشتاء.

ولذلك كنت ترى النساء، قبيل موسم المطر، على السطوح يكنسنها وينظّفنها لاستقبال الماء سواء للآبار أو للبراميل.

وقد تكون للمياه في البراميل فوائد لا تخطر ببال. فعندما تزوج سعيد الدعبول، وكان قد ترمّل قبل زمن قصير، أدخِل على عروسه، والشباب في الخارج يهزجون ويهتفون ومنهم من يضرب على خشب الشباك بمطرقته، كلهم ينتظرون إعلان النبأ السعيد – النصر المخضّب بالدّم. كانت ليلة شباطية ماطرة، بردها قارس، وقد التفّت الرؤوس بالحطّات، ووضع البعض على رؤوسهم أكياس خيش اتّقاء للمطر. تأخّر سعيد، وعلت الأصوات من الخارج تستعجله.. لكن ذلك زاده اضطراباً وتعطّلاً. وأخيراً اندفع شابان إلى الداخل حملاه عارياً في البرد وغطّساه في البرميل تحت المزراب. شهق الرجل شهقة كادت روحه تنطلق معها. ثم أخرجوه ولفّوه في دثار وهو يرتجف، تصطك أسنانه ولا يقوى على الكلام، ثم أرجعوه إلى الغرفة.

وبعد زمن، وقد شغل الذين في الخارج بالوشوشة والأهازيج، أعلن عن نجاح العريس حين انطلقت الزغاريد.

والعين وطريق العين مرصد للشباب، يسرق أحدهم ابتسامة أو غمزة أو كلمة، أو يطلق آهة حسرة. يقول المغنّي:

يا شوفة شفتها ع البير نشّاله
ومزنّرَه بالكمر فوق الكمر شال
لاطلع ع راس الجبل وسلّمك حالي
وتكون ليلة عتم والسّرج مطفيّه

أما النساء الكبيرات في السن فيسعين إلى العين مبكرات، قبل الشروق، فليس من مطمح في غزل أو صيد لاستحسان، وأما الصبايا فيخترن الأوقات التي يكون فيها من يقدّر الحسن على الطريق، ولذلك يكون الاهتمام بالملابس والضفائر.

روى يوسف، والكلام على ذمّته، أن رابحة وحيدة والديها، والتي صرفت إحدى وعشرين سنة من عمرها دون أن يقرع باب القلب طارق، تحاول أن تطلع حيويّة في خدّيها. عندها طربوش عتيق تنقعه في الماء المغليّ ثم تحمّر به خدّيها. قال يوسف، وهو جارها، إنه رآها تفعل ذلك عندما ذهب إلى بيت أهلها ليشتري زغاليل.

وعندما تقدمت السن بيوسف ودرس معلّقة طرفة بن العبد، توقّف عند البيت الذي يصف فيه طرفة وجه خولة قائلاً:

ووجه كأنّ الشمسَ ألقت رداءَها
عليهِ نقيٍّ اللونِ لم يتخدَّدِ

علّق: لو كانت الطرابيش معروفة في الجاهلية لما احتاجت خولة إلى منّة الشمس. ولكن يوسف سكت عن حفيدته فيما بعد حينما رأى الأصباغ والمساحيق ترسم على وجهها لوحات متجدّدة. تختلف الرؤية باختلاف المكان والزمان والزاوية والرائي والمرئي. ولا يبقى على حاله غير وجه ربّك.

قال طارق: بل إن وجه الله، عزّ وجلّ، يُرى بعيون مختلفة تبعاً للزمان والمكان والعقيدة

الموروثة والاجتهاد.

وطريق العين في القرية محطة الإذاعة المحلية. ولكن عندما ظهر الفرن، على حساب كثير من الطوابين، انتقلت الإذاعة إلى الفرن. وكثيراً ما يدور الحديث بصوت مخفوض، تنفض الواحدة بأطراف أصابعها منطقة من ثوبها وهي تتمتم: «أولادي بحفظ الله»، فالأمر فيه تهمة موجهة إلى أحدهم أو إحداهنّ، ولكن المتحدثة تتحفّظ إذ تنفض ثوبها، فكأنما تقول: الكلام على ذمّة من رواه، ولا أتحمّل مسؤوليته، ولكنها مع ذلك تنقله، وتنقله عنها أخريات تنفض كل منهنّ ثوبها حين ترويه. تكتسب الحياة حيويّة بالإشاعة والوشوشة، فهي البهار على طعامٍ فقير بائس.

*

ساعة الغروب. روّح العجّال. ملأ قطيع البقر والعجول الدرب بالخوار ورنين الجلاجل المعلقة في رقاب بعض البقرات المدلّلة. والراعي ينتهر رعيّته بصوته القوي، أحياناً عن حاجة وأحياناً عن عادة وكأنه ينظف حنجرته مما ترسّب عليها من فُتات الصوت والنداء طول النهار.

العجل الرضيع عند الجيران في فمه شيء أشبه باللجام يمنعه من الإقبال على ضرع أمه. تُحلب البقرة أولاً للناس، لمن يشتري، ثم للعائلة. أما العجل الإبن فعليه أن يكتفي بما بقي، عندئذ فقط يُزال عن فمه القيد.

تخلو الدروب مع العتمة من الأرجل. البيوت استعدّت للّيل بملء القنديل بالكاز، وقصّ الفتيل ومسح الزجاجة من سخام الأمس، والقناديل أحجام مرقّمة، فهذا نمرة ٣ وهذا نمرة ٤. ومن القناديل ما يُعلّق على الحائط ومنها ما يوضع على منضدة أو أي شيء مرتفع. على الجدران ترتسم الظلال، ويستغرق يحيى في مراقبة ظل يديه وحركات أصابعه على الجدار إذ تتشكّل رؤوس طير أو حيوان أو غير ذلك.

يُطرَق الباب طرقات واثقة. بالباب أديب، زميل الدرس، وهو يستدعي الصبيّ ليحدّثه. يدعوه إلى المشاركة في التغييث هذه الليلة. فقد انحبس المطر واشتد الخطر على الزرع والناس والبهائم. الأولاد يتجمّعون في الساحة، من هناك تبدأ مسيرة التغييث.

– «في انتظارك» قال أديب، ومضى يدقّ أبواب أولاد آخرين يدعوهم للمشاركة في المسيرة.

قال لأمه: «ولكن ما لنا زرع ولا بهائم».

قالت الأم: «الخير عمومي. وكلنا نحتاج إلى بعضنا. أنا بخير إذا جاري بخير. الله بسمع من الزغار. روح معهم غيِّث».

ذهب إلى الساحة. قرب الزيتونة اجتمع عدد كبير من الأولاد، ومازالوا يتدفقون. اعتقد الصبيّ أن كل أولاد القرية مشاركون، لم يتخلف منهم إلا غير القادر، كان بعضهم يحمل مشاعل تحرق أطراف العتمة. بدأ بعضهم ينشدون قبل الشروع في المسيرة. كان فيهم بعض الكبار: راعٍ ومخضّر، وآخرون.

الشعور رعدة بالنشوة. هذا التلاقي على مطلب مشترك، هذا التآزر، وهذا التكافل. يتجسّد الانتماء.

جاء أديب وزملاؤه الذين كانوا يدعون الأولاد، وينشطون في كل عملية المسيرة.

ارتفع صوت:

يالله الغيث يا دايم

تسقي زرعنا النايم

فردّد الجميع. وتحركوا في الدروب يرفعون الوجوه والأصوات إلى السماء:

يالله الغيث يا ربّي

تسقي زرعنا الغربي

وارتفعت الأصوات بحرقة وإيمان.

مرّت المسيرة بعجوز فتحت ثوبها وأخرجت ثدييها الجافّين تعرضهما للسماء تستدرّ العطف.

قالت عجوز أخرى: «صلّوا يا زغار، غيّثوا، الله بسمع منكو».

إنها مظاهرة استعطاف واستغاثة.

كان يحيى يردّد الأهازيج وهو فرِح بهذه المسيرة الليلية. الكبار رجالاً ونساءً يقفون على الجانبين، الجميع يرفعون أيديهم إلى السماء مبتهلين.

الناس يعتقدون أن الله يحبس المطر عقاباً لهم على خطاياهم، ولذلك يتوجه الصغار بالدعاء لئلا يكون العقاب جماعياً. أحد الصبيان يهتف:

يا ربّنا يا ربّنا

إبعث مطر لزرعنا

هُمّ الكبار بذنبهم

واحنا الزغار شو ذنبنا

وارتفع صوت حسن راعي العجّال:

يا ربّي تشتي علينا

واحنا عبيدك أخطينا

وتمضي المظاهرة في شوارع العتمة، والأهازيج ترتفع بنظام وخشوع. الأولاد كلهم يحسّون بالرّهبة، ويدركون أن الكبار يلجأون إليهم ليستدرّوا شفقة الرحمن.

أسرع بعض الفتيان إلى الكنيسة يقرعون أجراسها ليلتفت الله إلى الدعاء. وقام آخرون يرتّلون التسابيح مما يعلق في الذاكرة من المدائح النبويّة.

القرية كلها في حال من الاستنفار والاستغفار. الأصوات تشق العتمة، والأهازيج منها المحفوظ ومنها المرتجّل لتوّه. الليل يبسط الخشوع والجفاف يتحرّش بذئاب الخوف. ويجد يحيى نفسه يسرح عبر الهتافات إلى النجوم يخفق وميضها وكأنه إيقاع للأهازيج:

رشّــوا باب داركو

تا يـمرق عجّالكو

وإحدى النسـاء ترشّ أمام بوابة الدار رشّات من الماء من إبريقها .

وردّد ما يردّده الآخرون:

يـا ربّ تْبــلّ الشــرشــوح

واحنا عبيدك وين نــروح

مضى يفكر في معاني الكلمات. الشرشوح: الثوب الخلَق البالي. الدعاء يحمل معنى التذلّل والتواضع لله من عبيد بائسين لا حول لهم ولا طَوْل.

الكلاب التي أطلقت جوقة النباح في بداية المسيرة أسكتها أصحاب البيوت خشوعاً

ورهبة وضراعة.

وأصداء الأهازيج والأجراس تتردّد في الأودية وعلى السفوح. «الليل بيودّي»!.

وصلت المسيرة إلى أطراف البلدة، إلى المقابر، ومن هناك عادت، وشيئاً فشيئاً أخذ الأولاد يعودون إلى بيوتهم. كلهم امتزجت عندهم النشوة بالورع، وكلهم مدرك أنه يقوم بعمل جليل يتجاوز أبعاد القرية، يتّصل بالسماء ليضمن الحياة.. لترتوي الأرض العطشى، لتخرج حبّة القمح ـ النعمة وتخضرّ الأرض.

17. أبو شنوشة

«إسمع يمّا شو بقول الدلاّل» - قالت الأم ليحيى وهي تتحدث مع جارتين جاءتا للزيارة.

خرج يحيى يطلّ على الشارع. كان أبو زهرة الدلال واقفاً هناك، يده اليمنى على أذنه وقد كوّر الكفّ حولها - كما يفعل المغني والحداء - واشرأبّ برقبته يمدّ صوته ليصل إلى بعيد واتكأ بيسراه على عصا، على سُنّة الخطباء القدماء عند الجاحظ - يقفون على نشز من الأرض وبيد الواحد منهم مِخْصَرة.. وأبو زهرة نحيف مخطوف القامة كبير الهامة، صوته قوي كأنك ترى أوتاره حينما تتشنّج عروق رقبته وهو يطلق الصوت يدحرجه في الحارات.

أعجبت يحيى صورة أبو زهره تلك وراح يتأمل في حركاته دون أن يحاول أن يسمع الكلام. بعد قليل فطن إلى أن عليه أن يبلغ أمّه وجاراتها بالنداء، فانتبه إلى الكرّة الثانية للإعلان:

«يا مين شاف يا مين رأى حمارة أبو زيد الخضرا، معشّره، على خصرتها اليمين كيّه، وجفن عينها الشمال مطمّس راخي وبدمّع. كل من شافها أو عنده علم يخبّر أبو زيد والحلوان مضمون. ألله لا يورّيكو حسره.. والحاضر يعلم الغايب».

تحرّك أبو زهره ومضى يجوب الحارات، ويرنّ صدى صوته هنا وهناك، وأكثر من يتحلّق حوله الصبيان يعودون بالأنباء إلى بيوتهم وإلى كل من يعنيه أن يسمع التفاصيل.

قالت أم عبّاس عندما عرفَت النبأ: «مسكين أبو زيد، هاي الحماره إيده وإجره، ومعشّره

كمان. لازم ينذر نذر لابو شوشه».

- «شو دخَل أبو شوشه وشو بقدر يعمل؟»

- «تغلطيش يا ام يحيى. أبو شوشه ولي مبارك وياما إلو بركات. لما انسرقت بغلة قاسم الموعد راح يدوّر عليها من بلد لبلد. مَرّته يسرى نذرت نذر لابو شوشه إن لاقوا البغله. بعد ثلاثة ايام رجع قاسم راكب البغله، والمره وفّت بنذرها».

وراحت الجارتان تتعاونان في سرد الحكايات عن كرامات أبو شوشه - كم من لهفة ردّ وكم من زوجة رُزقت الولد وزالت عنها الغمّة. كم مريض شُفي. لّما مرض ابن حسين الموسى لم تنفع اللّبخ ولا التشطيب. حملوه إلى الناصرة إلى الطبيب. لم تنفع الإبر ولا الحبوب. نذرت أمّه نذراً لأبو شوشه. بعد أيام من النذر صحّ الطفل. وحملت أمه البخور والشمع إلى قبر الولي.

أم يحيى لم تقتنع. لا تؤمن بهذه الحكايات. والجارتان تجتهدان في حملة الإقناع.

قال يحيى: «لكن بحكو عن أبو شوشه إنّه قاسي ما بِرْحم».

- «معلوم يا بنيّي. اللي بدعس ع طَرَفه ما يلوم إلا حالُه».

وروت له أم عبّاس حكاية الغريب الذي كان ماراً في الليل قرب سور مقام أبو شوشه، ودون أن يعرف عن المقام أو صاحبه أراد أن يقضي حاجته عند السّور. انحصر بوله وأحسّ بألم شديد يمزّق أحشاءه. يومان وهو يعاني، ولما عرف أن ذلك سور مقام الولي نذر له نذراً فشُفي.

لم تقتنع أم يحيى، وظلت تحاور. أما يحيى فسرح مع الحكايات. مقام أبو شوشه في الطريق إلى مدرسة اللاتين. قبل «الهزّة» وقبل بناء البلد الجديدة كان في طرف البلد القديمة. لكنه اليوم أصبح بين البلدين، بجوار كروم الزيتون. كان يحيى كلما مرّ في طريقه إلى المدرسة بمقام أبو شوشه يحسّ برهبة شديدة، يخفّف منها صحبة الزملاء يؤنس بعضهم بعضاً.

الطريق محاذية للسور الطيني المنخفض المحيط بالقبر المكلّل بقبة صغيرة. وقد تناثرت في ساحة المقام بعض الشموع والمسارج وقطع القماش، وانتشرت رائحة البخور التي تختلط أحياناً برائحة العجّال وآثاره على الأرض. المدخل إلى المقام مفتوح. رأوا مرّة امرأة تدخل إلى الساحة تمسح القبر بيدها وتثبّت شمعة ثم تشعلها وتضع وعاءً فيه زيت وتخرج وهي تتمتم:

«بجاه الله وجاهك يا بو شوشه».

ويروي الصبيان ما سمعوا من حكايات من الكبار والصغار عن قوة أبو شوشه، قدرته على الخير وعقوبته للأشرار. وتسري الحكايات إلى مغارات النفس أحلاماً وكوابيس.

في تلك الليلة رأى يحيى ذلك الوليّ. درويش طويل.. طويل أعلى من الحورة. على رأسه عمامة لها شراريب يهبط شعره من تحتها إلى أكتافه. عيناه مثل مشعلين في ليلة محاق ولحيته بيضاء تمتدّ إلى ما دون خصره. شفتاه سمراوان، وفي يمناه مسبحة طويلة تتساقط حبّاتها مع تمتمات غائمة من شفتيه.

كان الناس يغيّثون. الأرض عطشى والناس عطاش. تشقّقت سحنة الأرض من الجفاف وكذلك حلوق الناس – راح الناس لأبو شوشه يطلبون منه أن يغيّث معهم. تطلّع فيهم.. تطلّع صامتاً وفي عينيه حزن غريب. ضياء المشاعل في عينيه كاد يخبو..

ركع وراح يصلّي. وقف وفتح يديه للسماء وصاح:

«مَدَدْ.. مَدَدْ.. مَدَدْ..» ثلاث مرات، وصوته يدوّي في السفح والوادي..

انفتحت أبواب السماء فجأة. هدر الرعد وتدفّق طوفان المطر.. شلالات.. كَبٌّ من عند الربّ. الماء ينسكب حبالاً وليس نقطاً.

غطّى الماء قاع الوادي. أخذ الناس يهربون من الماء باللجوء إلى السفح. السيل يرتفع.. والناس تطلع، وأبو شوشه واقف في محلّه يداه مصلوبتان نحو السماء، وهو يغرق. وصل السيل إلى أكتافه.. غمر رأسه وظلّت شوشته فوق الماء. والسيل ينهمر والشوشة فوق الماء.. والمطر يهدر.

كان أبو شوشه مثل عمود عملاق يداه تحاوران السماء. بل وصل رأسه إلى السماء. غاب بين الغيوم. بعد يومين انحبس المطر. والسيل في الوادي يهدر ويعربد، وشيئاً فشيئاً تنخفض المياه. وصلت إلى خصر أبو شوشه، لكنّ يديه ظلّتا مفتوحتين للسماء. والناس تسبّح. بعد أيام صار جسم أبو شوشه يغور في الأرض. ظلّ يغور تدريجياً. حاول بعض الناس انتشاله وإنقاذه، لكنه أومأ إليهم بحزم أن لا يقتربوا. وأخيراً غيّبه الوحل ولكنّ شوشته ظلّت عائمة، ظلّت فوق الطمي والوحل. والناس تسبّح.

فهم يحيى سرّ نظرة أبو شوشه الحزينة. كان أبو شوشه يعرف مصيره حينما لبّى دعاء

الناس ليشاركهم في طلب الغيث.

كان جميل وأديب يسيران مع يحيى في اليوم التالي إلى المدرسة. قال يحيى: «شفت أبو شوشه».

قاطعه أديب: «عمرك أطول من عمري. إسمعوا». وراح يروي حلمه. قال إنه كان سائراً قرب مقام أبو شوشه حيث وجد حشداً من الناس وقفوا ذاهلين متجمدين ينظرون إلى رجل في ساحة المقام كأنه مسمّر وشوشته مضمومة ومرفوعة في قبضة عملاق تشدّها بعنف فرفعَته عن الأرض في الهواء. كان لسانه يتلجلج ولكنه لا يزيد على أصوات بهيمية غارقة في بحر من الخوف. بعد حين انفجر يصيح: «بعرضك يا بو شوشه، ما عدت أعيدها».

كرّر ذلك ثلاث مرات وإذا باليد تهبط رويداً ثم تفلته فارتمى على الأرض راكعاً يقبّل القبر ويبكي. هذا الرجل جاء يسرق عنزة من عنزات راعٍ بيّت قطيعه قرب سور المقام ونام قربه. ما كاد اللص يمسك بالعنزة ليأخذها حتى مسمَرَه أبو شوشه وقطفه من شوشته وظل كذلك إلى الصبح حين اجتمع عليه الناس ورأوه على تلك الحالة. فجأة اختفى الناس وارتفعت قُبّة أبو شوشه عالياً تلفّها عباءة خضراء.

ثمّ روى يحيى رؤياه وقد لفّ الزميلين خشوع ورهبة. لم يسألا ولم يحاورا. ولكن أديب قال: «هذي مش أحلام. أبو شوشه بزورنا في المنام وبكشف شيء من كراماته واحنا بنحكيها للناس. هذا مش حلم، هذا علم».

عندما مروا بمقام أبو شوشه رسم أديب على وجهه شارة الصليب، فقال جميل بصوت مخنوق: «أبو شوشه ما كان مسيحي».

- «مين قال لك؟ أبو شوشه بساعد الجميع. وأنا بقدّسُه. والمسلم بقدّسُه.. الكل بقدّسُه».

عندما عاد يحيى إلى القرية بعد عقود ذهب ليرى المقام ويسمع أخباره. قال له أبو يوسف الذي أصبح نائباً لرئيس المجلس المحلي: «يُقال - والله أعلم - بأن أبو شوشه كان واحداً من جنود صلاح الدين الذين حاربوا في معركة حطين. بلدنا في الطريق بين صفورية وحطين. وحطين لا تبعد عنا أكثر من عشرين كيلو. تذكر القساطل التي وجدت في البلد من أيام الصليبيين. هل كان أبو شوشه جريحاً بعد المعركة وتوفي في الطريق؟ هل كان من أهل البلد الذين حاربوا في حطّين وعاد وبعد وفاته اعتُبر ولياً؟ ذلك علمه عند ربّي. تعرف -

ملامح البلد تغيرت والبنايات زادت والشوارع زفّتت وقد قرر المجلس المحلي إقامة بناء لائق على مقام أبو شوشه.

وتشعّب الحديث عن قبور الأولياء فأشار أبو يوسف إلى أن هناك عدداً من هذه القبور في البلد منها «الشيخ سليمان» و«الشيخ عيسى» و«بنات السّدرة». وهي في البلد العتيقة.

أما «بنات السدرة» فقد تناقل الناس أنهن ثلاث صبايا عشن في عهد من العهود السوداء التي مرّت بها بلادنا في الحروب والغارات الكثيرة.. الكثيرة. تستطيع أن تتخيّل هجمة جيش غاشم في تلك العهود: القتل والسلب والاغتصاب. هؤلاء الصبايا قاومن الاغتصاب بكل ما أوتين من قوّة واخترن الموت على الذلّ وتحطيم الذات. قُتلن ودُفنّ في ثلاثة قبور متجاورة تحت شجرة سدر. واعتُبرت تلك القبور مقدّسة، شفاعتها تُرتجى.. لاحظ: كم من النساء عاشت وماتت ولكن هؤلاء بقين في الذاكرة وفي الوجدان، قيمة ومثلاً.

ولاحَظ فوّاز: أنظر تحت أية شجرة دُفنت هذه الصبايا، تحت السّدرة، مما يستذكر سدرة المنتهى التي عن يمين العرش.

ضحك ناظم معلّقاً: «إذن الوَلايا: القديسات جمع وَليّة. ولا تعني مخلوقات مستضعَفة كما يظن البعض».

قال يحيى: «لا تحاول أن تماحك اللغة، فمن معاني الوليّ: الصديق أو الحليف، وليّ الله: مُحبُّه، ومنها كذلك: التابع، والمطيع. وبهذا المعنى يتحدثون عن «الوَلايا» وعندما ينتهر ذو الشاربين امرأة قائلاً لها: «أسكتي يا وليّه»، فإنّ ما يعنيه: التبعيّة والطاعة، ولا تغيّر اللغة ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم.

قال أبو يوسف: هناك قبران آخران إلى جانب قبر أبو شوشه. إثنان نعرفهما أسلما ودفن كلّ منهما هناك. ونعرف سبب تحوّلهما. ولكن من أدراك ماذا سيقول الناس عن القبور الثلاثة بعد سنين؟ ستُروى حكايات وتُروى كرامات.

وعلّق ناظم: نعرف كرامات أحدهما أبو مهيوب - فقد كان حصانه يبذر النسل في أفراس المنطقة، وكل ذلك بثمن.

- «الكرامة لحصانه إذن وليست له».

- «لا.. كان أبو مهيوب يهندس العملية ويشرف على تفاصيلها». تذكّر يحيى أنهم أخذوا فرسهم «الزرقا» ليجود عليها ذلك الجواد..

في تلك السهرة سألوا يحيى: وماذا عن حمارة أبو زيد؟ هل وجدها؟ وماذا عن أبو زهرة الدلال؟

قال يحيى:

«عجيب أمركم. ألا يمكن أن نترك للحمارة نهاية مفتوحة؟ ولكن طالما تهمّكم أخبار الحمير فلا بدّ أن تعرفوا حكاية راشد المجيدلي. قالوا كان راشد شاباً فيّاض الصحة والقوّة. وكانت في بيتهم حمارة فرهة فتيّة. عشّرت الدابّة، وفيما كانت تعاني آلام الوضع رأى أحدهم راشداً واقفاً قريباً منها وهو يرفع يديه إلى السماء متضرعاً يقول:

«يا الله يا ربّ تجيب كُرّ أو كُرُّة!».

فعجب السامع من هذا الدعاء وقال: «ولا شو ممكن تجيب؟».

قال راشد وهو يبلع ريقه ويفرك يديه: «شو بعرّفك شو تحت ذيلها؟». هذا أصل المثل.

وأما أبو زهرة الدلال فيذكّرني بدلال آخر، في الناصرة، كنيته أبو الحيايا. في مطلع الخمسينيات، ذات يوم وصل إلى ساحة الكراجات في المدينة. وقف أمام أحد المقاهي وبدأ نداءه:

«يا أهل البلد، اللي عنده مرَه يجيبها..

توقّف قليلاً وأدار وجهه في الحاضرين. قفز أحدهم مستغرباً:

«إيش؟».

- «اللي عندُه أخت يجيبها».

ركض نحوه بغضب عدد من الشباب:

- «دمّ يطرش من حلقك. شو بتقول؟».

عاد أبو الحيايا:

«اللي عندُه مرَه يجيبها

اللي عندُه أخت يجيبها

اللي إمُّه طيّبه يجيبها

الليله.. الليله».

- «يا ابن الكلب، شو صابك؟».

- «اللي عندُه مرَه يجيبها

الليله

الليله

على دورة الخياطة في نادي الهستدروت! ».

وسجّل أبو الحيايا سبقاً على كل محطات التلفزيون في تسخير الجنس للدعاية والإعلام.

18. سلمى والمغربي

ليل الشتاء في حضن صوتها يصبح ليلاً صيفيًا دافئاً تتغامز فيه النجوم ويطلّ القمر بفضول على الناس يسترق النظر والسمع.

وبينما تنام الطيور في الليل على الأغصان، كان صوتها يبعث لخياله جناحين ينطلقان في عوالم مسحورة ساحرة.

جلس في تلك الليلة حول الكانون الذي كان الجمر فيه يخلع أثواباً رماديّة متشقّقة لتلحق بالأرضية السكنية المتراكمة - ويطلق وهجه يسري في العروق حرارة تجذب الأكفّ الصغيرة المنفتحة فوقه. وحوله جلس أخواه اللذان بقيا في القرية، بينما سافرت الأم مع الأخ الصغير لتلتحق بالوالد في رام الله.

كانت خالته نايفه بارعة في الحكايات، ترويها بحيويّة يتلوّن فيها الصوت وتختلف طبقاته ليصوّر المواقف والشخصيات ويرقى إلى الذروة التي ينسى فيها الطفل ذاته وما يحيط به، ويحيا في عالم الحكاية المدهش. آه.. لو أتيح لهذه الخالة أن تتعلّم وتحقق ذاتها.

قالت:

«وظلّ المغربي يرقب الحارة. وقد اشتهر المغاربة ببراعتهم في السّحر، يكتبون الحجابات، ويفكّون الكتبة، ويعرفون كيف يتعاملون مع الرّصَد».

«عرفه أهل القرية، فقد تكرّرت زياراته. عرف الناس وحكاياتهم الكبيرة والصغيرة.

دخل البيوت، شرب القهوة ومالح الناس.. أكل من زادهم. فكّ «الكتبة» عن مريم الأسعد التي مضى على زواجها أربع سنين دون أن تلد. وكتب حجاباً يبعد الجنّ والجنون عن سعيد الباشق، فقد كان الزّبد يحيط بفمه ويهيج حين يتحرّش به الأولاد، يده والحجر، وكم فشخ، وتحوّل فمه إلى مصنع للشتائم تلتصق فيها الكلمات كما تيسّر، فيكون لها حيناً معنى، وقد لا تتّصل لتؤدي أي معنى في أحيان أخرى، ولكنْ تتكرّر فيها أسماء الأمهات والآباء والأجداد. وأحياناً يختصر القرابة كلّها فيلعن قرميّة المغضوب عليهم جميعاً».

«ولم يتقاضَ المغربي أي أجر على خدماته. عرضوا عليه المال فرفض وقال: موهبة من الله، لا فضل لي فيها ولا حقّ لي أن أبيعها، ولا يفلح ما أفعله إلا بإرادة الله. زاد ذلك من محبّة الناس له وتقديرهم لقدراته».

«لم يعرفوا اسمه واكتفوا باللقب: المغربي. أراد أحدهم أن يكرمه في مجلسه فسأله عن كُنيته فقال: «أبو موسى»، فاشتهر بالكنية واللّقب: أبو موسى المغربي».

«كانت له عينان تلمعان مثل نجمتين في مغارة. شعر حاجبيه كثيف ومتشابك، ولحيته سوداء طويلة. على رأسه عمامة صغيرة كانت يوماً بيضاء. وهو طويل يلبس ثوباً رماديًا طويلاً. أصابع يديه طويلة ونحيفة. في يده مسبحة سوداء تركض حبّاتها بين أصابعه كالفيران، وشفتاه سمراوان تتمتمان بصوت هامس كلمات غير واضحة، لعلّها أدعية أو مناجاة للقوى التي يتعامل معها».

– «هل رأيته يا خالتي؟»، سأل الطفل الأصغر وكانت عيناه قد استدارتا في لهفة ذاهلة.

– «لا يا حبيبي، ولكن جدّتي رأته وهي التي وصفته لي، ولا أنسى صورته كا وصفَتها».

لكزالطفل الأوسط أخاه الأصغر بعصبية وقال: «أسكت واسمع الحكاية».

– «هي ليست حكاية»، قال الأصغر، «صحيح يا خالتي أنها ليست حكاية، ولكنّها حدثت؟».

– «صحيح يا حبيبي».

عاد الأوسط يلكزه متذمراً: «طيّب أسكت.. خلّينا نسمع!».

وتابعت الخالة:

«ظلّ أبو موسى المغربي يتردّد على الحارة، وقد تعرّف إلى أهلها وبيوتهم، وألِفوه واحترموه، وإن كان بعضهم يهابه لأنهم رأوا أن له قوّة كبيرة تسيطر على الجنّ يأمرهم ويطيعونه».

«كان ذلك يوم أحد. شرب المغربي القهوة في بيت قاسم الحاج. انتظر حتى يدق جرس الكنيسة. رأى أبو يوسف الناصر يخرج من بيته ومعه زوجته ذاهبين إلى الكنيسة. لكن ابنتهما سلمى ظلّت في البيت تكنس وترتّب. الخوري مدعوّ عندهم للغداء. الكنيسة لم تكن بعيدة عن البيت.. هدمها الزلزال وهدم ربع البيوت المجاورة».

«كانت سلمى صبيّة أحلى من الوردة، في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة. شعرها الأسود ينسدل على أكتافها إلى ما دون الخصر، عيناها خضراوان مثل حب الزيتون الذي يلمع في الشمس. زوجة جدك الأولى، من عائلتها؛ قالوا انها كانت تشبهها كثيراً، شهد لها الجميع بالجمال، لكنها - مسكينة - توفّيت وتوفّي ابنها بشارة»

«وكانت سلمى لا يعجبها العجب،، كثيرون من الشبان لم يتجرّأوا على التفكير في أن يطلبوا يدها. حتى ابن عمّها خليل لم يصدّق أنها من حقّه بالقرابة. كانت تشعّ من حولها هيبة.. وكانت هذه الهيبة سياجاً».

«حينما ارتفع صوت الخوري والخورس معه بالترتيل، تأكّد أبو موسى المغربي أن الصلاة بدأت. قام من بيت قاسم الحاج وذهب إلى بيت أبو يوسف الناصر. رحّبت به سلمى وقدّمت له كرسيًا صغيراً ليجلس. جلس ويده تعدّ حبّات المسبحة، وشفتاه السمراوان تهمسان أصواتاً غير مفهومة، ثم قال:

- «هاتي مقلاة يا سلمى».

أحضرت سلمى مقلاة من الفخار. أخذ أبو موسى المقلاة وتوجّه إلى الموقد الذي كان فوقه قدر للطبيخ. أخذ بعض الجمرات بالملقط، وضعها في المقلاة ثم أخرج من حزامه كيساً، فتحه ورشّ منه شيئاً كالبخور على الجمر. انطلقت رائحة غريبة، وارتفع صوته يتلو كلمات غير مفهومة.. وسُمع صوت جدار يتشقّق».

«بيت أبو يوسف الناصر ما كان يزيد على غرفة كبيرة، يفتح بابها الشمالي على ساحة

صغيرة، بها يوقدون للطبيخ وينشرون الغسيل. لها سور طبيعي.. جدار عالٍ من الصخر».

«قال أبو موسى لسلمى خُذي هذا الكيس، رُشّي منه على الجمر قليلاً قليلاً، يجب أن يظلّ هذا المسحوق متواصلاً في النار؛ خافت سلمى ولكنّها أمسكت الكيس بيمناها والمقلاة باليسرى، وراحت ترشّ المسحوق على الجمر، وأبو موسى يتمتم ويرفع صوته. الجدار الصخري ينشقّ وينفتح».

«قال أبو موسى: سأعطيك مكافأة يا سلمى».

دخل أبو موسى من الشقّ الذي انفتح، وسلمى ترشّ المسحوق على الجمر..

- «هل سحرها أبو موسى؟».

انطلق صوت الأخ الصغير يكسر زجاج الإنصات المتوتّر.

- «أسكتِ يا أهبل!». أنّبه الأخ الأوسط بعنف.

قالت الخالة: «بعد حين خرج المغربي من الشقّ ومعه كيس، حفن منه حفنة فيها جواهر برّاقة وذهب، وأعطاها لسلمى. شكرها وأسرع خارجاً».

«بقيت سلمى ذاهلة. لم تعرف هل هي تحلم أو أن ذلك يحدث فعلاً. انتبهت إلى نفسها بعد قليل. الشقّ ما يزال مفتوحاً، ومعها الكيس والجمر. لماذا لا تدخل وتأخذ المزيد من الجواهر؟».

صاح الأخ الأصغر: «مجنونة، هي لا تعرف السحر!».

ضربه الأوسط بقبضة يده في كتفه بعصبية وغضب: «قلت أسكت يا أهبل.. أسكت!».

«دخلت سلمى من الشقّ بسرعة وهي ترشّ المسحوق على الجمر، وراحت تجمع الجواهر. طمعت ونسيت أن المسحوق الذي في الكيس ينفد. وأخيراً انتبهت إلى أن الشق ينغلق شيئاً فشيئاً.. ركضت إلى الباب.. انتهى المسحوق، لم تفلح في الخروج بسرعة. أغلق الشقّ على طرف ثوبها، وظلّت هي في الداخل».

«عندما عاد الوالدان من الكنيسة ومعهما الخوري تعجّبوا جميعاً.. البيت مفتوح، القدر تغلي على النار، لكن سلمى ليست في البيت. بحثوا عنها في الساحة. انتبهت أمّها إلى طرف الثوب الذي أغلق عليه الجدار».

«أسرع الخوري والوالد ينظران إلى طرف الثوب.. تعجّبا.. كيف حدث ذلك؟».

قال الأصغر والدموع في عينيه: «وسلمى ظلّت في المغارة؟ ماتت؟».

قال الأوسط: «لكن كيف عرفوا ما حدث ولم يرَ أحد المغربي أو سلمى؟».

قالت الخالة: «أخذوا يسألون الجيران، فقالوا إنهم رأوا أبو موسى المغربي يدخل إلى البيت..».

قال يحيى: «ولكن هذا لا يفسّر كل التفاصيل. هل هربت سلمى مع المغربي وتوهّم الناس وفسّروا الحكاية بالوهم؟».

صاح الصغير: «يا ريت يا خالتي يا ريت تكون سلمى هربت مع المغربي، وما ظلّت بالمغارة!».

لكن طرف ثوبها كان ظاهراً هناك في الجدار.

قال يحيى: «أنا لا أفهم. لو جاءت مسرعة لتخرج من المغارة وأغلق عليها الشقّ لكان رأسها، شعرها أول ما يخرج منها وليس طرف الثوب».

- «فيلسوف.. لكن طرف الثوب هو الذي بقي!».
- «هل كنت هناك؟ كيف عرفت؟».
- «خالتي قالت..».
- «لكن قالت أشياء لا أعرف من أين جاءت بها. كيف عرفوا ما دار بين سلمى والمغربي؟ من كان هناك يسمع ويحدّث؟».
- «تكذب خالتي؟».

نظر إلى خالته مبتسماً. احتضنته وقالت: «صحيح، ما كان هناك أحد، لكن هذه هي الحكاية كما سمعتها من جدّتي. أنا ما سألت أسئلة.. وأنت تسأل. هل تظنّ أن عندي أجوبة؟».

قال الأوسط: «تظلّ تتفلسف. سلمى الناصر ظلّت في المغارة».

قالت الجدّة، وكانت ترفأ ثوباً: «الله يسترعَ الولايا».

قال الصغير: «لماذا لم يرجع أبو موسى لينقذها؟ ساعدته ولكنه لم يساعدها».

19. المغاوير

قال أديب:

«اللّي بقحف عشّ واللّي بنصب فخّة أو عيدان دبق - هذا مش صيّاد. الصيّاد صيّاد المقلعيّة، بصوّب ويرمي.. عالطاير. هذا هو الصيّاد. بقولوا - فيه تاجر وتويجر وخرا التجّار، وهيك الصيادين. أعطل جنس اللي بقحف العشوش».

تصدّى له غانم الذي كان بارعاً في رصد الأعشاش على الأشجار أو في أوكار في بعض الحيطان، يرقب نموّ الفراخ ثم يتسلّق ويقحف العش:

«إسمع هالحكي. بدك عنب والا تقاتل الناطور؟ أنا صايد على قدّ شعر راسك. مين الصيّاد في البحر؟ اللي بنصب الشبكة مش اللي بحمل بارودة وبلاحق السمك!».

وانقسم الواقفون إلى موقفين غير متساويين. ولم يكن ليحيى رأي واضح. ظلّ ساكتاً، فلم يكن عنده مقلاع ولا تسلّق مرّة يقحف عشاً. ولم يستهوِه الصيد كله.

«بكره الساعة خمسة الصبح، تفضلوا ع الصيد. كل واحد يحضّر مقلعيّته، وزوّادته».

وجّه أديب الكلام إلى يحيى: «أنا بعطيك مقلعيّه من عندي، بنلتقي هون عَ القناة».

أحسّ يحيى بالعجز، فهو غير معدود بين الصيادين أو المقاتلين. لا يميل إلى العنف و«القبضنة». ولأنه كان أصغر من أبناء صفّه لم يكن يسعى إلى المنافسة في القوة الجسدية. بل لم يكن بارعاً حتى في لعب البنانير، فأصابعه قصيرة مكتنزة، يصعب حصر البنّورة بينها، ولذلك فإنها تنطلق بعد جهد غير قوية وقلّما تصيب الهدف. لم يعجبه من أديب هذا التوجّه

المتعالي، وإن قيل بلهجة وديّة. كان أديب دائماً ينتقد يحيى لأنه لم يكن يشارك في كل النشاط الخشن كما يسميه، ويقول له: «تخشّن. الدنيا للخشن».

لكن يحيى في تلك الأمسية وافق على المشاركة في رحلة الصيد غداً. فهي رحلة يطالع الطبيعة فيها، وتجربة جديدة قد تُعَدّ له حينما يتفاخر الصبيان بمغامراتهم. وأسوأ صفة يُنعت بها صبيّ أنه «مدلّل» أو «خنجعة»، وهذه الصفة الأخيرة توحي أصواتها بمعناها. ويحيى لا يريد أن يلحق به شيء من تلك الصفات. كان ينافس في الصبر على المشي مسافات طويلة وفي تحمّل العطش وفي كتمان سرّ الصديق وفي نجدة المسنّين.

في الصباح أحسّ يحيى أنه يولد من جديد. يحتسي الندى مع الزهور ويتنفس عطرها البكر وتسري في جسمه حيوية النمر تتمطى فيه وتتطاول. يريد أن يتذوّق كل شيء ويسبر أغوار كل شيء.

لف زوّادته في كيس، وأصرت أمه أن يلبس شيئاً على رأسه فالشمس حامية. «خُذ مطرّه.. وديرو بالكو من الحيايا».

كان أديب قد سبق الجميع عند القناة، عاري الرأس، حافي القدمين، وتزنّر بالمحفظة التي يضع فيها كتبه أيام الدراسة، ولكنها اليوم خالية إلا من عدد من المقاليع وكسرة خبز وكبريتة وسكين.

استقبل أديب يحيى: «مش بلا برنيطة! والكندرة بتلمع.. يا عمّي تخشّن. خذ هالمقلعية، وتمرّن عليها حتى ييجوا الباقين».

أخذ يحيى المقلاع. ثم التقط بعض الحصى وأخذ يصوّب إلى بعض الأهداف. المهم أن تعرف المدى الذي تشدّ به المطاط وأن تحسن توجيه الحصاة لتنفذ ما بين ذراعي المقلاع. فرح حين أصاب علبة من التنك نُصِبَت هدفاً. أصابها مرتين.. قال أديب: «المهم أن يظل العصفور ينتظر حتى تضربه وتصيبه».

كانوا خمسة. رأى أديب أن هذا هو أكبر عدد ممكن، فكلما كان العدد أقل كانت مغافلة الطير أحسن وكان التركيز في التصويب أفضل.

بدأوا من كرم الزيتون. العصافير التي أحسّت بوجودهم تطير هاربة من أوكارها.

أطلق يحيى حجرين على عصفورين طائرين. لم يصب. بينما أصاب أديب عصفوراً

طائراً، لحق به وهو يتمرّغ، حمله، مصع رقبته فاصلاً الرأس عن الجسم ثم ألقاه في المحفظة. وكان راجي يتقمّز على رؤوس أصابعه مبتعداً عن الجماعة، يعض على شفته السفلى وهو يصوّب، ثم يطلق شتيمة على العصفور الناجي.

ضحك يحيى وقال له: «أحسنت!» وذكّره بالدّرس الذي تعلماه في كتاب «الجديد في القراءة العربية» لخليل السكاكيني، وقد حفظا تلك الدروس غيباً لقِصر الدرس وطرافة محتواه:

«رمى رجل عصفوراً، فأخطأه، فقال له آخر: أحسنت! فغضب وقال: أتهزأ بي؟
«قال: لا، ولكن أحسنت إلى العصفور».

ضحكوا وركض غانم يتربّص بعصفور ينظف ريشه بمنقاره على أحد الأغصان، أحسّ هذا بشعاع الخطر فطار مذعوراً.

- «دويري يا حريق الوالدين.. محنّك».

قال أديب: «سمعت المثل اللي بقول: أصعب ثلاثة - العصفور الدوري والسمك البوري وابن الخوري».

قال يحيى: «وانت الصادق - بنت الخوري!».

قال سليم: «هَهْ.. عن تجربة؟».

- «الحمد لله ـ خوريان في البلد أعزبان.. لكن المغني بقول:

بستنّاك بستنّى - يا بنت الخوري حنا
بستنّاك عَ درب العين ـ جعل لا حدا ملا!

هاي بنت الخوري اللي لوّعَتْ وبتلوّع».

تفرّقوا، ومضى يحيى يتسكع بين أشجار الزيتون وهو مشرع مقلاعه كالصيادين، لكنه واعٍ للقناع الذي يلبسه ليكون «واحداً منهم». تذكر طَرَفة بن العبد الشاعر الجاهلي الذي حفظ له أبياتاً قيل أنه قالها صغيراً، إذ رأى قُبَّرة هانئة آمنة فقال لها:

يا لـكِ مـن قُـبَّرَة بمعـمرِ — خلا لك الجوّ فبيضي واصفري
ونقّري ما شئت أن تنقّري — لا بدّ يوماً أن تُصادي فاحذري!

هل كان طرفة ينذر أو يحذّر؟ هل يتوعّد هذه القبّرة مؤكداً انها لن تفلت منه، أو هو يرى

أن الزمان لا يصفو لأحد ويحذّرها من تقلباته؟ ألم يقع طرفة نفسه في الشرك وكان الجو ما زال خالياً له؟.

ابتسم يحيى وهو يسمع في خاطره صوتاً يقول: «جاي تتصيّد ولا تقول شعر؟».

جاءه أديب وقال: «صوّب واضرب، الحجارة ببلاش.. أضرب».

- «بَطَفِّش العصافير».
- «كل واحد بوكل من صيده، وانت بتظل جوعان، ما حدا بطعميك».
- «أمري لله». وتذكر أنه أحضر معه زوّادة فلا بأس.

لا يدري يحيى كيف حدث ذلك؟ كانت مجموعة من العصافير على غصن ومنها ما كان يتقمّز بين غصن وغصن. وجّه المقلاع، وتّر سَيْرَي المطاط، صوّب وأطلق، فإذا عصفور يقع على الأرض يفرفر في التراب. فوجئ يحيى من نفسه. وصاح غانم: «أحسنت!». بينما جاء أديب راكضاً. رفع العصفور عن الأرض وأعطاه ليحيى قائلاً: «إمصَعْه قبلْ ما يموت». أحرِج يحيى، ولكن عليه أن يحافظ على قناع الصياد.. أمسك العصفور - اليد اليمنى تمسك بالرأس واليد اليسرى تمسك بالجسم، شدّ وعيناه تنظران إلى بعيد - «شِدّ.. شِدّ». فانخلع الرأس عن الجسد. تبرع أديب فمعط العصفور وأبقاه عارياً ومازال ساخناً، قال ليحيى: «أهلاً بالصياد الجديد». أي صياد جديد؟ ومن قال إنه يريد أن يكون صياداً يمصع رقاب العصافير بيديه هاتين؟ لكن - ألا يأكل اللحم؟ الخروف يُذبح أيضاً. والزغاليل التي يحبّها والده تُذبح وتُنتَف وتُقلى أو تُشوى. جدّه لأبيه كان في جملة ما عمل لحاماً، وأبو يحيى كان يذبح خروف العيد، ثم ينفخ ما بين الجلد واللحم ويضرب الجسد المنفوخ بقضيب قويّ، ليساعد في تسهيل السلخ... وأنت لا تريد أن تصطاد عصفوراً أو تمصعه؟ أبو العلاء المعري رفض مرق الصوص. قالوا إنه لم يأكل إلا العدس، وكانت حلواه التين المجفف.

مرّوا بعيون الجنان - تسمية شعريّة! - ماء عذب يتدفق بارداً صافياً، غسلوا الأيدي والوجوه. تكوّر كفّتي اليدين، تحفن الماء وتشرب ثم تحفن وتلطم بالماء الوجه والرأس.. وهناك ظِلّ ترتاح تحته وطيور تستظل وترتوي.

صوّب غانم نحو عصفور يشرع في احتساء الماء. صاح به يحيى، ورمى حجراً قرب العصفور أجفله فطار. صاح غانم معاتباً، بينما ضحك أديب قائلاً: «شفقت ع العصفور؟ لا بالله تصيّدنا».

غضب غانم لتنفير صيده وصاح: «هاي بتنقتل عليها زلم.. لولا الصحبة».

ابتسم يحيى يراضيه وقال: «خذ عصفوري. أنا فاهمك. لكن وين النخوه؟ تقتل العصفور قبل ما يشرب؟».

واستعاد يحيى القصيدة المنسوبة للحطيئة وكيف أن ذلك البدوي الجائع أحرج حين رأى ضيفاً مقبلاً لأنه ليس لديه ما يطعمه، ثم فُرِّج الهمّ حينما رأى قطيعاً من حمر الوحش ذاهبة إلى الماء.

فأمهلها حتى تروّت عطاشها فأرسل فيها من كنانته سهما

- «أي نخوه هاي. تقتله عطشان ولا ريّان! هيك هيك قاتله».

كان أديب منهمكاً في معط عصافيره وتنظيفها فقال وهو يتقمّز قرب الماء: «الله حلّل ذبح العصفور والخروف والبقرة.. وغيرها».

قال يحيى: «هيك بقول الأسد لما بفترس حيوان أو إنسان».

قال غانم: «نعم. الله خلق الأسد مفترس ما بعيش إلا على اللحم. يعني الله حلّل له الفريسه وإلا بموت. تصوّر أسد نباتي!».

قال سليم: «القوّة مش بأكل اللحم. الفيل نباتي والثور نباتي لكن شوف قوّتهم».

- «هيك ألله خلقهم. ما في حدا بقدر يغيّر طبيعته. الفيل ما لو فضل إنه مش مفترس. الدنيا هيك مبنيّة: مخلوقات بتوكل مخلوقات حتى تعيش. مين قال إنه الحشيش مش فريسه؟».

وانفجر جميل وهو يغسل عصافيره المعموطة:

«نخوه؟ أي نخوه؟ قبل العيد اشترينا خروف. ربطناه بحبل وكنا نعلفه ونسقيه. أخوي الزغير حامد كان يلعب معاه ويطعميه الحشيش حوالي شهر. صار واحد من البيت. صوته بِرُجّ ناعم بتحسّ إنه بترجّاك.، ليلة العيد قال أبوي: بقدرش اتطلع بعينيه واذبحه. نادى اللحام. مدّ السكينه ع رقبته وقال: «حلّل الله عليك الذبح». ذبحه والخروف يثغي ودمّه بشغر وعينيه ع السما. انهزمت ما قدرت اشوف هالشوفه. بتحكوا عن نخوه ومروءة. بسّ عاد. كلّه حكي وكلام أكبر من الطبل. دخلك - الطبل من إيش جلدُه؟».

فجأة قفز أديب بخفّة، صوّب مقلاعه سريعاً وأطلق على عصفور كان يلهو على غصن. وقع العصفور مضرّجاً.

ركض إليه أديب: «أجا الحجر براسه. ما لَبَطْ. خليكوا طقّوا حنك وأنا بتصيّد».

اتّفقوا أن يتابعو المشي إلى «سرطبة» - حرش كبير وافر الظلّ. لكنهم اختلفوا على الطريق إليه.

اقترح أديب طريقاً التفافية طويلة ليتحاشى المرور جنب «قرينة شاكر». احتجّ سليم على الجهد الضائع مؤكداً انه لا يؤمن بهذه الخزعبلات. حتى لو آمنت بها فالقرينة لا تخرج في النهار. كل الحكايات عنها في الليل.

في الطريق بين عين ماهل ودبوريه رُجم حجارة اسمه «رجم شاكر». يُقال إن رجلاً بهذا الإسم مدفون تحته. من هو شاكر هذا؟ لا أحد يعرف. لماذا دُفن هناك بعيداً عن الناس؟ هل قُتل؟ أليس له أقارب؟ أسئلة كثيرة لا جواب عليها. المهم أنه اشتهر بقرينته. قال أبو يوسف: «القرينة شبح غولِه بتطلع جنب القبور للراكب في الليل بشكل صبية جميلة عارية. بتنطّ ولِا هي ورا الراكب أو قدّامه. بتجرّب تغدر بالراكب. إن كان شجاع بنطّ على رقبة الفرس بمسك عرفها ويقطع حزام السرج حتى تقع القرينة ووينك يا طريق النجاه. وإلا بتغدُر بيه وبتقتله. وبتسمع حكايات منها الصادق ومنها الكاذب».

أما القاموس فيفسّر «القرينة» قائلاً: « - عند النساء: جنّيّة يتوهّمن أنها تظهر أحياناً ويزعمن أن لكل امرأة قرينة أي تابعة وهنّ يردُدن شرّها عن الأولاد بأن يُلبسنهم عُوذَة، يسمّينها ثوب القرينة». والغريب أن تسمى الجنية بهذا الإسم الذي تسمّى به الزوجة أيضاً.

أصرّ أديب على الطريق الأخرى مؤكداً المثل القائل: «إبعد عن الشرّ وغني له». وكان يحيى يودّ لو يرى ذلك الرُّجم ليحلم بالقرينة، ليس قرب الرجم ولكن في منام جميل. قال غانم: «أي حلم هذا؟ كابوس وأي كابوس!»

في سرطبة ازدحمت محفظة أديب بالعصافير، ولم يكن حظ الآخرين سيّئاً، إلا أن محفظة يحيى لم تستقبل غير ذلك العصفور المسكين الذي تصدّى للحجر منتحراً.

تعاونوا على إشعال النار. قُصَف جافّة. وحاجز ليحيط بها وليحمي السفافيد. أخذ يحيى الكبريتة من أديب وتعهّد أمر النار يركّز ما يتجمّر ويوسّع ويزيد الوقود. وكان في بعض الأحيان يلصق خدّه بالأرض وهو ينفخ، ثم أسعفه غانم بقطعة خشب مسطّحة أخذ يحركها أمام النار كالمروحة. وظل أديب يترصّد ويصطاد، ثم مضى يجمع بعض العيدان

الدقيقة يجرّد عنها الأوراق ويجعل منها سفافيد يشكّ فيها العصافير: إثنين على كل سفّود. وحذا حذوه الآخرون. قال أديب ليحيى: «هات عصفورك. ولأنك حضّرت النار بطلع لك حصة».

قال يحيى: «زوّادتي معي».

- «بلاش فلسفة. خلّي زوادتك للّي بجوع في الرجوع».

وارتفعت رائحة اللحم وقد اصطفت السفافيد على الحاجز وسليم يقلّبها وقد أخرج من محفظته رغيف طابون ثم أخذ يجرد السفود مما عليه ملفوفاً بالرغيف ثم يضعه على رغيف آخر، وهكذا كانت عصافير الجماعة للجميع، قسمت عند الأكل بالتساوي. «من كلٍّ حسب قدرته ولكلٍّ حسب حاجته» - لم يشرح لهم أحد هذا المبدأ، ولكنه كان السلوك الطبيعي.

أكل يحيى بضعة عصافير، وهو يحاول جاهداً أن يفصل بين مشهد مصع الرقاب ومشهد اللحم المشوي المتقلب فوق الوهج وقد يوازي لونه لون الذهب ثم يسمرّ بعض الشيء.

لماذا يريدون أن يذكّروك بالمخلوق الذي كان حيّاً وأنت تأكله؟ الديك الرومي على مائدة العيد. الدجاج المحشو بالرز وهو يحتفظ بوضع ساقيه، وقد قطبت أحشاؤه ليحافظ على شكله الحيّ. كان يحيى يسأل نفسه هذه الأسئلة ويداه تفسخان جسد العصفور لُقماً سائغة، فقد خرج من البيت دون فطور، والجوع يستسيغ ويُسيغ، وللجوع فلسفته.

نظر يحيى إلى حذائه فوجد أن الرحلة أصابته إصابة مباشرة. كان يجب أن يلبس حذاءً عتيقاً - نُصّ عمر - وليتمزّق. أما هذا الحذاء فسوف يحتاج إلى علاج خاص - نصف نعل. ولا بدّ من توبيخ شديد في البيت، فاستهلاك الأحذية غير عاديّ، وكيف يكون عادياً والمشوار يومياً من القرية إلى المدينة مشياً، والدرب وعر والحجارة تتصدّى للأحذية تناوئها تشاكسها وتعاكسها. ولكن المشكلة الكبرى هي وعود الإسكافي ومماطلاته. فأنت تحتاج إلى عدد من الزيارات لتركيب نصف نعل جديد. تطلب من الإسكافي وضع حَدوة في المقدمة وأخرى عند الكعب لتزيد من مناعة الحذاء. أما تفصيل حذاء جديد فمشروع شهور طويلة: القياس والتفصيل والتركيب والقياس مرة أخرى.. ثم «لحْس» الرِّجل المؤلم فالتوسيع.. كل تلك المتاعب لم يعرفها أبناء يحيى ولا أحفاده.

*

في السنة التالية عادت عائلة يحيى لتسكن في الناصرة. وكان عدد من زملاء الصف قد جاءوا من أماكن بعيدة – من سمخ والسجرة وكفر كنا، ستة تلاميذ استأجروا عقداً في المدينة. الفرشات تُفرش على الأرض في الليل وتُعاد إلى «يوك الفراش» في النهار. وهناك طبليّة كبيرة تستعمَل للطعام ولتحضير الدروس. ولكن هؤلاء الزملاء أصبحوا عنواناً يلتقي عندهم إخوانهم، بعيداً عن إشراف الوالدين ومراقبتهم، حيث يخرجون معاً إلى مغامرات لا تُنسى.

نضج المشمش في بستان المستشفى الفرنسي. والبستان كبير لكنه محاط بسور عالٍ جداً قد يصل إلى قامتين من قامات هؤلاء التلاميذ. لا بدّ من وضع خطة دقيقة للغارة والانسحاب الآمن. نعم – الغارة ومشتقاتها هي التعبير عن هذا السطو.

البستان مكشوف للمشرف من حرش المستشفى الإنجليزي، حيث تجلس مجموعة – وفيهم يحيى – تراقب التحركات في البستان وتنذر المغيرين بصفير متّفَق عليه.

أما الفريق الثاني – المغاوير – فهم الذين أوكل إليهم أن يتسلّقوا السور ويقطفوا الثمر ليعودوا بعد متسلّقين صاعدين وهابطين، حاملين الغنيمة إلى الجالسين في «اللوج» للاستراحة عندهم ومشاركتهم حلاوة المشمش المستكاوي.

قام الفريق بزيارة استطلاعية خمّن فيها العلوّ، ووُزّعت الأدوار: من يُحمل على الأكتاف، ومن صاحب الكتفين العريضتين حامل المغاوير الذين يتسلقون عبر بعض السلوع إلى قمّة السور، ثم يكون القفز الخطير، والدخول تحت أكناف الشجر والقطف السريع. اتُّفق أن يكون المغاوير ثلاثة للسرعة في القطف، وللدفاع عن الذات في حالة هجوم الحارس. حامل المغاوير يحمل قدّوماً يفتح به في السور فتحات للأقدام. اختير وقت الهجوم مع غبش المساء، قبل العتمة التامّة. ولكن لا بد من تغيير الأوقات فيما بعد فموسم المشمش جمعة مشمشيّة، يحتاج إلى غارتين أو ثلاث غارات. وبعد الغارة الأولى في المساء يمكن أن يحترس الحارس في المساء التالي وتفشل الخطة. ولذلك يتغير الوقت. الغارة الثانية صباح الجمعة، فهو يوم عطلة ويمكن فيه التجمع الصباحي. أما الغارة الثالثة ففي المساء أيضاً، بعد يومين.

اتخذت الفرقة الإستطلاعية مواقعها في حرش المستشفى الإنجليزي، بينما وقف المغاوير قريباً من السور ومعهم حارث ذو الكتفين العريضتين والجسم المثلث.

– «يا حلالي يا مالي..» انطلق فريد بالغناء، فالبستان خال والجبهة مفتوحة.

تسلق الأول بسرعة وفيما كانت يداه تمسكان بأعلى السور وساقاه تتدلّيان في الهواء كان الثاني قد تسلّق الكتفين ودفع رجلي الأول قليلاً يساعده في التسلق، ثم كان الثالث قد تسلق الكتفين وساعد السابق وأمسك بطرف السور وقفز. خلال أقل من خمس دقائق كان الفرسان الثلاثة قد قفزوا إلى البستان وتفرّقوا: كلّ يحلب مشمش شجرة وارفة ويملأ محفظة الكتب التي فرّغت لهذه الغاية.. بعد ربع ساعة ظهر شبح الحارس من بعيد ومعه كلب كبير. صَفرة واحدة طويلة أنذرت المغاوير. تسلّق كل واحد شجرته واستلقى على فرع قوي في انتظار زوال الغيمة وسماع صفارة انقشاع الغُمّة وهي صَفرة متقطعة، وأغنية «يا حلالي يا مالي» بعدها.

لكنّ صوتاً غريباً سُمع يصيح:

«حوش يا حامي الكرم حوش، كرمك ملان وحوش».

التفتت الفرقة الاستطلاعية إلى خلف وإذا بولدين صغيرين كانا يرقبان ما يحدث فانطلق صوت أحدهما بالنذير ولكن سرعان ما كان عاصم ونمر يلاحقانهما فهربا..

تلكأ الحارس قليلاً، تلفّت حوله، نظر إلى أطراف البستان فلم يرَ شيئاً، وكذلك كلبه لم يحسّ بأيّة حركة.. فعاد مبتعداً عن الموقع.

صفير متقطع... «يا حلالي يا مالي».

عادت الغارة عشواء شعواء، ولكن الأمر لم يطل فاندفع أحدهم يتسلق السور من الداخل بسرعة وعندما أشرف على حافة السور هبط منزلقاً أما محفظة المشمش فكانت مربوطة في وسطه وهي على ظهره لئلا تنهرس الحبات. كانت المحفظة كإلية الخروف، وسرعان ما كان الثاني والثالث يهبطان. أما حارث فكان يستقبلهم بذراعيه المشرّعتين يساعد في الهبوط الآمن.

وقد سُمع نباح الكلب عندما كان الثالث قد بلغ أعلى السور واستدار للهبوط..

عندما وصل المغاوير إلى شرفة الإستطلاع كانت أنفاسهم اللاهثة قد بلغت حداً من التوتر الذي استحم بالعرق الدافئ. ولكن الانتصار يطوي التعب ويحوّل الرعب إلى أريكة للطمأنينة.

أما كرم العنب على جبل سيخ فلم يكن بحاجة إلى كثير من التخطيط. لم يكن هناك سور، ولم يكن خطر القفز الذي قد يؤدي إلى كسر رجل أو إصابةٍ أخرى. ولكن مَن من أولئك

الصبيان يتردّد خوف السقوط، بل مَن منهم يحسب حساب المخاطر؟ حبّ المغامرة كان الحافز، وهو تجربة فيها الكثير من التوتر والتحدي والفعْل.لم يكن مجرّد الحصول على الفاكهة هو الغاية ولكنّ اللعبة هي المثيرة. نعم - هي لعبة في الأساس. هل هذا دفاع أو تبرير؟

ذات يوم جاء أحد المغاوير باقتراح. يجب أن نحلف «يمين الولاء».
قرأ في إحدى المجلات أن عصابة كان يحلف أعضاؤها منذ البداية يمين الولاء لضمان كتمان السرّ والتعاون - الواحد للجميع والجميع للواحد. قُبل الإقتراح وجلس يحيى يكتب نّصّ القَسَم وجاء تعديل هنا وهناك فإذا به يطول ويصبح بياناً فتركوا ذلك وعادوا إلى صيغة عامّة موجَزَة: «أقسم بشرفي أن أصون الأخوّة كاتماً السرّ ومتعاوناً في كل شيء».

واتّسع نطاق التعاون إلى مجال الدروس وحلّ الفروض، والتصدّي لكلّ من يحاول المسّ بأحد من أفراد المغاوير. وحاول بعض التلاميذ التقرّب والانتساب، إلا أن القرار اتخذ بحصر العضوية.

بعد حين أنشأ الأستاذ سعيد، معلم الجغرافية والرياضة، فرقة كشفية في المدرسة كان المغاوير أول من انتسب إليها، بل أصبحوا قادة أرهاطها، وقد تداولوا مرة في حكاية الغزو واتفقوا أن يتخلّوا عنه لأنه يمسّ بشرف الكشاف الذي أقسموا به.

20. مخ الحمار

كان سليم عبد الحي جاراً، بيته غير بعيد عن بيت يحيى. لا تغادرالحطة والعقال رأسه إلا عندما يذهب لينام. وقد يلفّ الحطة «كرَاديَّة» أثناء الحصاد والعمل. والعقال - كالشوارب - من شارات الشرف ورموزه. يذكر يحيى يوماً شاهد فيه أسعد الكَلَش وقد ثار في سَوْرَة شجار فرمى بعقاله إلى الأرض وهجم على خصمه، فلن يستعيد العقال إلى رأسه إلا بعد أن يمحو الإساءة ويحصحص الحق. والمرء إذا ازدهى وافتخر «عَنقَر» عقاله.

وسليم عبد الحي متعلّق بالقُمباز والشروال. يحدّثك عمّا لكل منها من ميزات وفوائد. والشروال - على حدّ قوله - كالليل: أبو ساتر. يروي ما حدث له مرة حينما كان يركب الباص من العفولة إلى الناصرة، ركبت قربه صبيّة كيبوتسيّة تلبس البنطلون الأزرق القصير جداً جداً، وقد توهّج العسل في الفخذين والساقين، العسل لوناً وطعماً:

- يا عيسى يا خوي اجتمع البارود والنار. والباص في كوربات العفولة يرمي ع اليمين وع الشمال. يا ويلك يا سليم. الله يستر عليك يا بو ساتر.

يعتزّ أنه فلاح، فهو الذي يصون الأرض، ومن لا يفلح الأرض يفرّط بها - كما يقول. وتجتمع في الساحة قدّام بيته بعض البقرات ورؤوس الماعز يحرسها كلب جعاريّ. وقد تلتقي أصواتها أحياناً فيتعانق الخوار والثغاء والعواء. صوت الحلال نعمه!

لم يكن سليم طويلاً. كان مربوعاً أقرب إلى الأرض. وكان صوته عميقاً كأنه صادر عن

كهف عميق. وهو يلثغ بالراء لثغة قاسية، تحسّ معها كأن الحرف يتحطم تحت أظلاف عاتية، فيتحول ياءً. هذه اللثغة تذكّر يحيى بكتاب «البيان والتبيين» للجاحظ، وما ورد فيه من نوادر عن اللثغ وأنواعه.

لا تحار نظرة سليم عبد الحيّ أمام أي شيء ولا تتردّد. كل شيء واضح، والموقف من أي شيء مقرّر لا لبس فيه. عالمه مسطّح ثنائي الألوان: أبيض أو أسود. ولذلك لا يعرف القلق ولا مراجعة النفس.

كانت جلسته في السهرة «نصف ركعة» على الفراش المحيط بجدارين من الغرفة الواسعة. وهو يرتاح لهذه الجلسة، لأنها تتيح له أن يظهر بمقاس أطول مما يتيحه «التربّع»، كما تجعله كالقوس الموتّرة متحفّزاً للحوار الحي.

كان جدّ يحيى منهمكاً بإعداد القهوة السادة، ينقلها بين الأباريق النحاسية. فهذا الإبريق للتخمير وذاك للترويق، وذاك المِصَبّ، ويحرك الجمرات في المنقل يكوّم الفحم حولها ويرعى توهّجها.

والقنديل يتيح رؤية هزيلة، تتراقص شعلته أحياناً كأن بها غصّة، وترتسم ظلال الجالسين على الجدران كبيرة متحركة.

- ناولني الزناد يا بو بشارة.

كان جميل يفرم التبغ على طبلية صغيرة، تشدّ يسراه على ضمّة التبغ، بينما تُمعن اليمنى في الفرم الدقيق بسكّين يحرص على تجديد حدّتها.

ناوله الجدّ قطعة من المعدن لها شكل المثلث: قاعدة للشحذ وضلعان أدق من القاعدة ينتهي كل منهما بانحناءة زخرفية. تتحاور سكّين جميل وذاك الزناد حواراً منغماً، ثم يفحص حدّ السكين على ظهر ظفر إبهامه قبل أن يعود إلى التبغ يخترطه دقيقاً «مثل شعر الصبيّة».

كان ياسر يداعب مسبحته، يباعد بأصابعه بين حباتها ليكون لوقوع الحبة على أختها نغم أعلى وإيقاع مبين.

حرك سليم محور الحديث حول ما اعتبره حراماً. فهذان جاراه صلاح ونعيم، أخوان يملكان الكثير من الأراضي والأنعام. يا حلالي يا مالي. لكنّ صلاح له ابنة واحدة وحيدة، ونعيم لم

يُرزق بنتاً أو ولداً، وقد مضى على زواجه حوالي عشر سنوات. وعلّق سليم بحماسه المعهود ولثغته المتعثرّة: «والله هذا كُفْيْ (كُفْرْ)، ما في حدا يحيي ذِكْيِتْهم (ذكرتهم)، لازم يتجوّزوا!

قال الجدّ: إتّق الله يا سليم. كلامك هو الكفر. كل واحد وقسمته.

وتدخّل جميل أيضاً:

- أنا عارف يا بو بشاره إنه هذا في دينكم ممنوع. لكن سمعت إنه ممكن المرَه تسامح جوزها ويتجوّز عليها برضاها.

انفجر سليم:

- قال تسامح قال!! لو تعرفوا نَزهَه مرة نعيم شو بتعمل. بتروح عَ «الوادي الشرقي» كلّ ما فطس حمار، بتكسر رأسه وبتطول مخّه. بتوخذ المخ بتنشّفه، وكلما عجنت عجنة بترشّ عليها من مُخّ الحمار، من هيك نعيم مخّخ، وما بيفكر يتجوّز. يا حيانة الرزق!

ارتفع الضحك، وعلّق جميل:

- ولك يا سليم، أنا خايف تكون نزهة بتفرّق من مخّ الحمار عَ جاراتها.

فردّ سليم:

- فَشَرْت. روح إفحص عجين مرتك.

وتابع قائلاً:

- يا حرام! شوفوا أبو صبحي، مالو من الأولاد غير الإسم، لا صبحي ولا من يحزنون. مَرّته مثل القحماطه وهو مثل البيك. ولِك سامحيه، خلّي الخوري يجوّزُه، وربّي لُه ولادُه.

كان سليم يتحدث بحرارة واندفاع، لا تُعجزه لثغته، ولن يقنعه أحد.

وتفرّع الحديث إلى موقف العقيدتين الإسلامية والمسيحية من الزواج، وأثار الجدّ السؤال:

- ومين قال إنه التّوك دايماً من المرَه؟ مين بِفهم حكمة ربّنا؟

*

بعد سنين توفيت زوجة صلاح، ثم لحقت بها زوجة نعيم. كان صلاح على عتبة السبعين حينما ترمّل، فتزوج وأنجبت زوجته ثلاثة أبناء. ولم يكن نعيم أصغر كثيراً من أخيه عندما ترمّل، تزوّج أيضاً وولدت له زوجته الجديدة عدداً من البنين.

فرح سليم بالحياة التي دبّت في بيت جارَيه:

- شفتو؟ هاي نعمة الله. لو تجوّزوا زمان ما كُنْش أحسن؟

لكنّ الجدّ يشير إلى جارهم الذي ولدت له زوجته ثلاث بنات، ولكنه كان يطمع في البنين فتزوج امرأة أخرى - إلا أنها لم تلد. أما زهرة، الزوجة الأولى، فقد ولدت له ابناً بعد مجيء الضرّة.

يذكر يحيى كيف كانت زهرة تزورهم وتحدّث أمه عن الظلم الذي لحق بها. كانت تحمد ضرّتها التي كانت عوناً لها في تربية أطفالها وكأنها أمّهم، ثم تستدرك:

- «لكن يا جارتنا أنا قَدّ العزا وأهله. والله إنّه اللي قال الضُرّة مُرّة ما كذب».

وماتت زهره، وبقي الأطفال في حضن الضرّة التي كفلتهم بكل رعاية ومحبة، وعندما كبروا احتفلت بزواجهم وربّت أحفادها منهم.

- «مين بِفهَم حكمتُه؟»

كثيراً ما يستعمل الجدّ ضمير الغائب معتبراً أن الإشارة الضمنيّة إلى اسم الجلالة أمر يجلّ عن التفسير والتوضيح.

أما أبو صبحي فحكايته رهيبة. يمكن أن تكون محوراً لرواية طويلة حافلة.

كان يعمل موظفاً بسيطاً. وكان أنيقاً في هندامه وحركاته. في بشرته بياض مشرب ببعض الحُمرة، وفيه ذكاء عامّ عُرفت به عائلته. لم تكن زوجته جميلة بمقاييس الجمال المرعيّة في القرية، ولذلك كانت تعمل ما بوسعها لإرضائه وإسعاده. إلا أنها لم تحظَ بنعمة الإنجاب. فبقيت كُنية «أبو صبحي» - التي اتخذها في شبابه وعرفه بها أصدقاؤه - تاجاً لا رأس دونه.

والقرية تمارس الضغوط النفسية. والزواج والإنجاب محور الدعاء الحسن - إذا شربت القهوة، أو هنئت بحدث، وكيفما توجّهت.

والقرية قاسية لا تجامل ولا تُداري. ويكثر الهمس في أذن أبو صبحي:

- «خلّي مَرَتَك تسامحَك».

ويرتفع الهمس ويجهر الصوت. ويشتد الطوق حول الرجل. وتسمع زوجته الطلب بصراحة جارحة، من الجارات والعجائز والأقارب.

حزُّ الحبل على حافة البئر يحفر الصخر. وكثرة الإلحاح على الأذن تخرق الطبلة إلى القلب.

لم يكن سهلاً على الزوجة أن تتخلّى عن حياتها، فتقدّم على نفسها امرأة أخرى وتسقط في هامش فشلها وانعدام قيمتها.

عندما ساق الذعر الكثيرين في صيف ١٩٤٨ أيام النكبة فخرجوا من القرية مع غيرهم من القرى الأخرى كالقطعان السائبة، وقد سلبهم الخوف البيوت والأملاك والحِمى، كان أبو صبحي وزوجته وبعض إخوته فيمن تشرّد.

وقد حمل بعضهم قطع السلاح التي امتلكوها على حساب اللقمة، وكانت أضعف الحماية، تمتدّ اليد إلى الكتف فتحسّ بندقية أو إلى الخصر فتحسّ مسدّساً، فتطمئن قليلاً، وإن تكن تلك القطعة من السلاح قديمة أو «مبندَقة» رُكّبت فيها قطع دخيلة - فلا بأس.. «خَلقة باب بحمي من الكلاب» و«ريحة الجوز ولا عَدَمُه».

كانوا مع الحشود المذعورة في كروم الزيتون قرب قرية المغار، فهاجمتهم طائرات مغيرة لا تريد لهم أن يبقوا قريبين في نطاق البلاد، وسعت أن تطردهم إلى ما وراء الحدود.

سقطت بعض القنابل وأصيب البعض - وهو في العراء. زاد الذعر وسادت البلبلة. هناك جاء أخو أبو صبحي إلى أخيه وقال له: «خلّص عليها في هالهيزَعَه».لكن أبو صبحي رفض. قال أخوه: «أنا بخلّصك منها».
وأصرّ أبو صبحي على الرفض.
وعاد أبو صبحي مع زوجته إلى القرية بعد بضعة أيام قبل أن «تُضبَط» النفوس ويسجَّل الموجود، ويُفرَز «المتسللون».

الأخ الذي حرّض أخاه، روى الحادثة بنفسه لوالد يحيى الذي كان صديقه وزميله في العمل. استهجن الوالد ذلك الإعتراف، واستنكر تلك الدعوة للجريمة، وزاد من تقديره للأخ.

بعد سنوات قليلة وافقت الزوجة على «مسامحة» زوجها. واستُشيرت في العروس الجديدة.

تزوّج أبو صبحي. كان البيت من غرفتين - غرفة صغيرة لها باب خارجي، وباب آخر

ينفذ إلى الغرفة الأخرى الكبيرة.

أقامت الزوجة القديمة في الغرفة الصغيرة. واحتلّت الزوجة الجديدة والزوج المتجدّد الغرفة الكبيرة.

كيف أحسّت الزوجة القديمة وقد أغلقت في الليل بابها عليها، ودخل زوجها الذي عاشرها سنين – على عروسه، هناك وراء الباب، على بُعد متر أو مترين؟

راحَت السَّكرة!

إنها تتقلّب على الجمر، ولا يمكن لكل ينابيع دموع الندم أن تطفئ شيئاً.

لم تستطع أن تبقى في تلك الغرفة. لجأت إلى بيت أخيها لتبعد عن المشهد. فقدت كل شيء. أحواض الحبق والورد الجوري والورد القدسي التي زرعتها وسقتها لم تعد لها. الحاكورة التي نكشتها وزرعت فيها الليمون والمشمش والخوخ ليست لها. الرجل الذي عاشت معه أكثر من عشر سنين لم يعد لها.

وهي في هذا العمر مهجورة تسمع بعض كلمات الرياء:

- «ما بصير إلا على خاطرِك».

أيّ خاطر بعد ما تكسّر؟

عندما ولدت الزوجة الجديدة طفلاً، احتضنه الزوج بلهفة ومحبّة. كانت تلك هي الضربة الأخيرة التي وُجّهت إلى كيانها، فقد أكّدت عقمها، وخيبتها.. ونهايتها.

ازداد ضمورها، وصَمتُ قهرها، وراحت تخدم بيت أخيها إلى أن أخذ الله وديعته.

21. عن «راضيه» و«التمخيخ»

تأخر أبو السعيد ـ قائد الفصيل ـ في مجيئه للسهر تلك الليلة. لم يكن جوّ الحديث عادياً، الحوار أقرب إلى الهمس، كان الرجل متوتّراً. طلب مسدّسه، فهو بحاجة اليه هذه الليلة. سيعيده غداً.

طلب الوالد إلى يحيى أن يذهب ليعدّ دروسه. أوحت له النبرة: دعنا وحدنا.
لكن أعصاب يحيى توتّرت. أحسّ أن هناك إعداداً لأمر ما.

عندما غادر أبو السعيد البيت لاحق يحيى طريقه من الشباك. كانت ثلاثة أشباح بانتظاره بعيداً عن البيت. غاب الأربعة في العتمة باتجاه السفح المقابل.

في اليوم التالي تحدّثت الأنباء عن الكمين الذي نُصب لقافلة عسكرية عند المنعطف الشديد في الطريق الخارجة من كفركنا إلى طرعان.

كان انتقام الانكليز من كفركنا يقطر حقداً ودماً وبطشاً. جُمع الرجال في ساحة واسعة. تعرّضوا للضرب الشديد، بعضهم أجبِر على أن يمشي حافياً على ألواح الصبر. أجري في البيوت تفتيش انتقامي: تكسير خوابي الزيت وغيرها وفيض منها يتدفق على الفراش والقمح وكل ما حولها.

في سهرة الليلة التالية حدّث أبو السعيد أن الرجال كانوا من عدّة قرى مجاورة، وانقسم الكمين إلى فرق، إحداها كانت على سفح الرابية تحمي تراجع المتقدّمين.

كان يحيى يريد أن يسمع التفاصيل كلّها، عيناه وأذناه جرار ظامئة، ولكن الوالد انتهره، فطلب اليه أن يذهب للنوم.

قال: سألفّ لكما السجائر.

لكن الوالد أصرّ، وكانت لهجته صارمة. ولم يستطع يحيى - رغم إرهاف السمع - أن يتسقّط شيئاً، من الغرفة الثانية.

*

كلهم يستعدون للذهاب إلى مضافة «المختار» هذا المساء. الحكومة ركّبت هناك راديو.

وتندّر البعض على بعض العجائز اللواتي استغربن، فمن هي «راضية» هذه - أو «راظية» - كما يلفظها البعض. راضية اسم امرأة، وهناك أكثر من واحدة بهذا الاسم في القرية.

المضافة واسعة جداً، فيها حُصُر عليها فراش للجلوس بمحاذاة الجدران. وفي أحد الجدران فتحتان لخزانتين جداريتين، أزيلت الأبواب من إحداهما، ووُضع على رفّ من رفوفها جهاز الراديو المربّع الكبير، ليس له ميناء مؤشر للمحطات، فهذا الراديو موجّه لمحطة واحدة ووحيدة - هي الإذاعة الحكومية من القدس.

وفي أسفل الفتحة كانت البطاريات التي يعمل بها الراديو. وقد أقيم على سطح المضافة «هوائي» عالٍ ليحسّن الالتقاط.

ليلة الافتتاح كانت حافلة. امتلأت المضافة بالرجال الذين جلسوا صفوفاً، ووقف يحيى مع الصبيان عند الشبابيك وهم يتدافعون.

أجهزة الراديو هذه وزّعتها الحكومة على مضافات المخاتير في القرى، ليسمع الناس أخبار الثورة من خلال البيانات الحكومية والبلاغات الصادرة عن الأجهزة الرسمية.

أدار المختار مفتاح الجهاز فانطلق صوت عالٍ يئزّ بين الحين والحين مصطدماً بالشبكة النحاسية الحارسة لفتحة السمّاعة. وكانت البلاغات، وهي تتحدث عن «عمليات» و«كمائن»... وتنتهي غالباً بهذه العبارة: «ولم تقع إصابات ولم يحدث ضرر».

بعد بضعة بلاغات هبّ أبو خليل، وهو ناحل الجسم رفيع العود معروف بعصبيّته،

وصاح:

«... أبوكو كلاب، محجّبين بنهزم الرصاص منكو.. قوموا يا... بدهم يمخّخوكو..».

وخرج من المضافة داعياً الآخرين أن يغادروا معه.

صاح البعض: «خلّينا نسمع.. بِدنا نسمع..».

«أيوَه اسمعوا.. تمخّخوا».

قبل أن يتحدث الخبراء عن غسل الدّماغ، وبدون أن يكون له إطلاع على أساليب الإعلام، أدرك أبو خليل تلك الأساليب، وصاغ لها الاصطلاح: «التّمخيخ»: قولبة المخّ. بل إن ظلال معانيها أقوى من «غسل الدماغ». فعندما تقول: فلان «ممخّخ» فإنك تطعن في وعيه وتفكيره، وتعتبره مَقوداً. هل لهذا التعبير صلة بمخّ الحمار.. الحكاية التي كان يرويها الجار سليم عن جارته العاقر، كيف كانت تخلطه في العجين لزوجها لئلا يتزوج من امرأة أخرى ولود؟ لم يكن أبو خليل قارئاً أو متعلّماً. لكنه اشتقّ ما اشتقّ بناءً على المعنى المقبول للمخ: الدماغ. ولو عرف العودة إلى القاموس لوجد: مخّخ العظم: أخرج مخّه.

الهدوء الذي ساد المضافة في البداية انكسر وتحطّم كالزجاج. واختلطت جعجعة المذياع بالهرج، ولم يعد يستمع إلى البيانات أحد.

قال أحدهم وهو خارج: «دعاية.. كلها دعاية». حاول المختار أن يهدّئ الحال. طاف بعض الشباب من أقاربه يقدّمون القهوة السادة.

وأعرب بعض الرجال عن أسفهم لأن المضافة لم تعد ذلك المكان الذي يلتقون فيه بهدوء. ويحتفظ فيه بصدر المكان لذوي الحيثيّات. لقد اقتحم عليهم هذا الغريب خلوتهم، ولم يعد بوُسع أحد أن يمنع كل متطفّل من «الاقتحام» لسماع الأخبار. يذكر يحيى حادثة أخرى من النشاط الإعلامي الذي كانت تقوم به السلطات ضدّ الثورة والثوّار.

كان مع عدد من الصبيان يطيّرون الطيارات الورقية.

كانوا في طرف القرية، وقد اضطروا إلى اقتحام إحدى المقاثي لسقوط طيّارة جميل هناك، وإذا طيّارة حقيقيّة تحلّق فوقهم وتتساقط منها المناشير باللغة العربية تهاجم الثوار وتحذّر منهم.

انطلق صوت أديب موجّهاً الأغنية إلى تلك الطيّارة:

طيّاره حراميّه
تحت السيف مرميّه

أخذ الصبيان عدداً من المناشير التي تساقطت حولهم، وشرعوا يقرأونها، لكن جميل كان مشغولاً بتسليك الخيطان، وإنقاذ طيارته من بين «بيوت» الكوسا، وهو يحذر أن لا يدوس على النبات، وقد خرج صاحب المقثاة يصيح ويتهدّد.

*

انتقلت العائلة إلى الناصرة مرّة أخرى. وكان الصبيّ في الصف الخامس.

لم تطُل مدّة الدراسة في البناية القائمة في «ساحة الكراجات». فقد شبّ فيها حريق، واعتُقل عدد من التلاميذ الكبار بتهمة إشعال الحريق في مختبر المدرسة، وانتقال النار إلى بقية البناء. كان التحقيق مع هؤلاء عسيراً جداً. أشرف عليه ضباط إنكليز، فشبحوهم، ورفعوا أقدامهم لتذوق لسع السياط، واستُدعيَ أهلهم فكان التهديد والوعيد ثم الكفالة.

انتقلت الدراسة إلى عمارة كبيرة عالية يرقى إليها درج عالٍ، وفيها أعمدة من الرخام - «دار عثمان». وقد نسفت السلطات هذه الدار فيما بعد انتقاماً من أصحابها.

وعادت الدراسة إلى المبنى القديم في ساحة الكراجات.

*

كانت ليلة رهيبة، لم ينقطع فيها إطلاق الرصاص الكثيف في الناصرة.

اهتم الوالد أن ينام الأولاد بعيداً عن مرمى الرصاص الذي يمكن أن ينفذ من الشبابيك، فباتوا على فراش على الأرض بحذاء الجدار السّميك.

ساد الهدوء عند الصباح. الرصاص الفارغ يملأ الشوارع.

- «الثوّار احتلوا المدينة في الليل».

هذا هو التفسير الذي سمعه الصبيّ. ما معنى هذا الاحتلال؟ سيطروا على البلدة طوال الليل وفعلوا ما شاءوا ثم انسحبوا. لم تكن هناك ضحايا من الانكليز أو من الثوار أو السكان.

عندما كبر الصبيّ قرأ عن حدوث مثل هذا «الاحتلال» في عدد من المدن في أوقات متفاوتة.

هل كان ذلك مظاهرة قوّة؟

هل حقّقوا شيئاً في تلك الليالي؟

لا بدّ من مزيد من الاستطلاع.

*

كان أبو أيوب في متجره الذي يبيع فيه الأواني الزجاجية في سوق الناصرة.

الضّحى، والحركة في السوق عاديّة.

دخل أحدهم إلى الدكان. أفرغ رصاصات مسدّسه في أبو أيوب الذي سقط قتيلاً ودمه يتفجّر على الأرض.

خلال دقائق كانت الدكاكين كلها مغلقة. ولم يُعثر على آثار القاتل ومن معه.

كان أبو أيوب من أصدقاء والد يحيى، وكثيراً ما جلس في دكانه يلعب «الطاولة» وكثيراً ما دخل يحيى الدكان وعرف صاحبها عن كَثَب. كان الرجل لطيفاً دمثاً. ولم يعرف أحد صلة له بالسياسة من بعيد أو من قريب.

كثر الحديث بين الوالد وأصدقائه عن ذلك الاغتيال. لم يفهموه، واختلفت التأويلات، ولكنهم أجمعوا أن الرجل لم يكن خائناً أو «خارجياً».

كثرت حوادث الاغتيال من هذا النوع، ممّا كان وراءه تصفية حسابات فردية أو ابتزاز في سلسلة انتقامية لا تنتهي.

22. درب التبانات

انتقلت العائلة مع الوالد إلى رام الله. ستطول مدّة عمله هناك هذه المرة، لكن يحيى وأخاه الأصغر لا يستطيعان أن يرافقا العائلة الآن. لا بدّ من إنهاء السنة الدراسية، وسيلحقان في العطلة الصيفية بالعائلة.

بقي يحيى وأخوه في بيت الجدّ. تكفّلت الخالتان برعايتهما. تمتّع الولدان بشيء من إرخاء اللجام، فهما ضيفان، والجدّ أكثر تسامحاً ويُسراً. الخالتان تريدان أن تنجحا في الامتحان، والجدّة، وإن كانت متشدّدة في بعض الأحيان، إلا أنها تظلّ تحتمل مناورات الأولاد بشيء من الصبر. «ما أغلى من الولد إلا ولد الولد»، هكذا قيل، وهذه حقيقة.

كان يحيى يتخطى الثانية عشرة من عمره، فعومل على أنه «كبير»، هذه الكلمة المطاطية التي تزعج الأولاد، يستعملها الأهل، ومن في مثل اعتبارهم - كما يشاؤون، فيحسّ الأطفال أحياناً أنهم كبار، وإذا بهم في أحيان أخرى يُعتبَرون صغاراً. والأطفال غير مستعدّين أن يفهموا تلك النسبيّة.

يستعيد يحيى هذه الفترة بحُبّ، فلها نكهة خاصة في ذاكرته. اشتدّت فيها صلته بالقرية وأهلها، وبالطبيعة الفوّارة بالدهشة والفتنة والألغاز.

«سننام الليلة على السطح» - قالت الخالة، وفي صوتها رنّة بشرى وتشويق. الحرّ في الليل شديد. هل تفتح الشبابيك والأبواب ثم تنام؟ ليس في ذلك شيء من الحكمة، فكأنك تنام في الشارع، ولذلك كان النوم على السطح أفضل حلّ. يشارك الفتى في الإعداد لهذه

المغامرة. يساعد في نقل السلم الخشبي العالي الثقيل. تنقل المعدات: الحصيرة والفراش، إبريق ماء. بعد أن اكتمل العدد، رفع الجدّ السلّم أيضاً إلى السطح ليستلقي إلى جانب النائمين، وليُعاد إنزاله في الصباح ليكون النزول عليه.

أن تتمدّد على الفراش وتنظر إلى فوق حيث لا سقف إلا السماء - تجربة يمكن أن تكون في النهار، في الحقل، أو على البيدر، ولكن أن تبيت في الليل في أحضان العتمة.. تجربة جديدة يصعب وصفها.

الوجه يغرق في بحر العتمة، بحر لا متناهٍ مليء بالأسماك الذهبية اللامعة. أنت الكيان الصغير في هذا الوجود اللامحدود.

السماء في النهار أقل إثارة. خاصة إذا كانت صافية، تتربع فيها الشمس وتقول كلماتها بوضوح ومباشرة. جمال السماء في السَحَر في تلك الألوان التي ترتسم على الأفق في إيقاع متحرك مدهش بحيويته، وكذلك عند الغروب.

وجمال السماء في الخريف والشتاء والربيع في قطعان الغيوم، وتشكّلاتها السارحة، وفي الخيال الذي تطلقه في النفوس لترى فيها شتّى الصور والألوان.

أما الليل فهو شلال جمال في كل الفصول.. والقمر المتغيّر دائماً ساحر بوجوهه وضيائه. إنه أقرب إليك، وضياؤه مؤنس، متواضع، يمكنك أن تحدّق فيه وترى فيه وجهاً يناجيك، وإذا مشيت رافقك.

الجمال هو في أن يترك لك المشهد مجالاً لمزيد من التأمّل. ظلال الأشياء في الليالي المقمرة تقول أكثر مما في النهار الوضّاح. تكشف وتُخفي. لعبة الكشف والإخفاء سرّ الفتنة. إسألوا عن ذلك ثياب الحسان إذا شئتم.

- «هذا هو «درب التبّانات» يا جدّي».

كان الجَدّ يلفّ سيجارته بأناة، فهذا جزء من المتعة التي تبدأ منذ أن يفتح العلبة المعدنية فيخرج دفتر «ورق الشام»، يتناول منه ورقة رقيقة جداً يفرشها بين إبهامه المزدوج والسبّابة - في يده اليسرى، ويلتقط التبغ بأطراف أصابع اليد اليمنى يمدّده على الورقة، ويدكّه شيئاً فشيئاً، يلفّ الورقة من حوله ويحركها برفق لتتناسق قبل أن يبلّ طرف الورق بلسانه بعد أن

يقضبه قليلاً بأسنانه ثم يلصقه. كان يحبّ السيجارة «أيّوبيّة» مكتنزة إلى أقصى ما يمكن.

- «من هو أيوب الذي تنسبون اليه شكل السيجارة هذا؟».
- «لا أدري. لا بدّ أنه كان شخصاً ذا حيثية. لو كان فقيراً لما نسب أحد إليه شيئاً سوى القلّة»... كثيراً ما يستعمل الجد هذه الكلمة بمعنى الفقر.
- «ألا يمكن أن يكون أيوب المشهور بصبره على الويلات وصموده أمام الضربات، فقد كان يحتاج إلى سيجارة كبيرة ملبودة جداً لتساعده على همومه ومصائبه؟»

ضحك الجدّ ضحكة عالية وقال: «حلو.. ولكن نعمة السيجارة ما كانت معروفة في زمانه يا سيدي.. لكن التفسير حلو!».

تدخّلت الجدّة: «نعمة السيجارة؟! نعامة ترفس الدخان واللّي بدخّنوه يا ستّي. إوْعَ من هذا الكار العاطل. إسمع قحّة سيدك، شوف أصابعه الصفرا..».

ظل الجدّ يضحك: «يا حُرمة.. يا حُرمة، شو بقي لنا من الكيف؟».

«ناسي الصّنوار وبليّته؟».

سأل الفتى: «ما هو الصّنوار؟».

أجابت الجدّة بحرقة: «يقطع الصنوار وأيامه. الصّنوار. القمار يا ستّي. بليّة وانبلى بها سيدك مرّة، ونشّف ريقنا».

- «إتّقي الله يا حُرمه. داياً على الكُرزُم؟ شيء ومضى. على رأي بيت العتابا: «عن دروب الجهل يا ناس تُبنا».

شُحذ حبّ استطلاع الفتى. هذا الجدّ الذي يقهر الحجارة في المحاجر التي يختارها مقالع، يعالجها بالشاقوف والمخل والدبّورة، وشتى الأدوات الأخرى التي في عدّته، ويفلح ويزرع الحبوب والأشجار والخضار في أرضه الوعرية «الخربة»، ويحفظ بعض «المزامير» يتلوها قبل النوم: «الربّ راعيّ فلا يعوزني شيء»، هذا الجدّ كان يلعب القمار؟ والشاعر الذي أثبتوا شعره في الكتب المدرسية يقول:

لكل نقيصةٍ في الناسِ عارٌ وشَرٌّ مَعايبِ المرءِ القِمارُ

ليالي الشتاء في القرية جدباء. عباءة العتمة تهبط مبكّرة، المطر يغنّي أغانيه الرتيبة في المزاريب المسلّطة على البراميل لجمع الماء. تبحث عن سهرة للتسلية، أحياناً حكايات أبو زيد الهلالي وعنترة، وفي بعض الأحيان تلعب «الصينية»، ولكن في كثير من الأحيان قد

تلعب الورق/الشدّة. وقد يكون هذا اللعب بريئاً، وقد يكون قماراً بسيطاً، الربح والخسارة متاليك، بشالك، أو قروش مصرية بعد عهد الأتراك. وقد تنجرف في اللعبة تريد أن تعوّض بعض الخسائر، فتزيد تورّطاً بمواسم الأعياد، وخاصة رأس السنة، أكثر المواسم خطراً، ففي تلك الليلة يظل البعض يلعبون بشكل متواصل حتى يبدأ اليوم الجديد ليروا حظّهم في السنة الجديدة.

لعبة القمار هذه مستوردة. إسمها «صنوار» لعلّه محرّف عن التعبير «سان ڤوار» (دون نظر)، يقوله اللاعب حين يطلب أن يعطى ورقاً غير مكشوف بعد ورقة كُشفت..؟

في أحد المواسم لعب الجدّ، تدرّج اللعب إلى الثقيل، أراد أن يعوّض خسارته. وطال ذلك الموسم أكثر من أسبوع. اللعبة اغتالت النقود التي كانت قد وفّرتها زوجته ببالغ حرصها في العلبة المعدنية على المتخّت. قامت القيامة. وأسدِل الستار على ذلك الفصل العابر، إلا أن المرأة لا تترك مناسبة دون أن تفتح لزوجها تلك الصفحة البائسة.

يتأمل الفتى في السماء، الجدّ يدخن ويرسل بصره إلى ثنايا العتمة. نامت الخالتان والجدة. هذا الحزام المترجرج اللمعان في صدر السماء اسمه «درب التبّانات»، يلتفت يحيى إلى الصورة التي وراء الاسم.

التبّانات جماعة من النساء يحملن أكداس التبن على رؤوسهن، وتتساقط من هذه الأكياس شذرات من التبن الأصفر اللامع، وتتجمع هذه الشذرات على طريق هؤلاء التبّانات.

لكن الأدب يعرف هذا الحزام المتلألئ في العتمة باسم آخر: «المَجَرَّة». رآها الشعراء نهراً. ابن سناء المُلك يعلن بإباء وإصرار:

وأظمأ إن أبدى ليَ الماءَ منّةً
وَلوْ كان لي نهرُ المَجَرَّةِ مَورِدا

يرى الفتى بعين خياله ابن سناء المُلك وقد ارتقى معارج الفضاء في عتمة الليل، جواده العربي كبرياء مجسّدة، وقد اشتد العطش بالفارس والفرَس، ولكن الماء في نهر المجرّة يريد أن يمنّنه، أن يذكر فضله عليه، فيأبى ويعود عطشان أبيّا. صورة متكاملة لروح الإباء والكبرياء. القصيدة كلها تنبض بهذا الفخر. الشاعر الجاهلي – الشّنفرى – صاحب لاميّة العرب «يَسْتَفّ

تُرّب الأرض» على أن يحتمل مِنّة متفضّل. هذه القيَم تُزرع في الوجدان.

من الوادي الشرقي، حيث «القناة»، ترتفع ثرثرة الضفادع تخدش وجه الظلام بأصواتها الحادة، يردّد الأبيات التي حفظها من كتاب «البستان» في درس المحفوظات:

قالَـت الضِّـفدَعُ قوْلاً فسرّتهُ الحُكَـماءُ

في فَمي ماءٌ وهلْ ينطِقُ مَن في فيهِ ماءُ؟

كثيراً ما يضطر الإنسان إلى أن يكون كالضفدع يمنعه الماء أن يُفصح؟ الضفادع تحيي سهرة. هذا صوت ذكريّ يؤكد شيئاً بحزم وإصرار، وذاك صوت أنثوي جارح يتصدّى. حوار يتأزّم غاضباً صاخباً حيناً ويتصالح حيناً آخر. كان يحيى يرسم المواقف ويعيشها. خُيّل إليه أنه يعرف هذه اللغة. بدأ يحدّد الكلمات أين تبدأ وأين تنتهي. بدأ يعرف الجُمل كيف تتشكّل. بل إنه يستمع إلى خطبائهم وقد برعوا في السجع.

تذكّر كتاب «البيان والتبيين» للجاحظ. نعم، قرأ هذا الكتاب في السنة الماضية وهو في الصفّ السادس. تساءل: «وهل تلثغ خطباء الضفادع كبعض خطباء الجاحظ؟ وكيف يحتالون على الحرف الذي يلثغون فيه بمترادفات بريئة من ذلك الحرف؟

قال الراوي: لم يعرف الفتى أفلام «الكرتون» التي يطرب لها خيال الأطفال اليوم. كان الطفل ينسج بخياله القصص والحوار والمشاهد، ويستغرق في ذلك بحواسّه كلها.

جوقات الصرصار تطيب لها العتمة، وتحب أن تسمع صدى نشيدها، فتتريث بين الحين والحين ثم تعاود الكرّة. كأن أناشيدها نُظمت على وزن أو وزنين من بحور الشعر. فهل إذا عاد الفتى بعد أكثر من خمسين سنة يتسمع هذه الجوقات، يجد من ابتكر أوزاناً جديدة، أو استحدث أو نادى بـ«الحداثة».

في غابة الليل هذه يسمع نباح الكلاب التي تريد أن تؤكد لأصحابها أنها قائمة بواجب الحراسة. ألا تترك شركات الحراسة شارة على الأماكن والأشياء التي في عُهدتها حراستها، لتثبت أن موظفيها تفقدوا المكان وكانوا على العهد أمناء؟ وأصوات الكلاب غابة ألحان - منها الهادر الغاضب المهدّد، خاصة كلاب الرعيان، ومنها المتعالي الذي يريد أن يعلن قوّته وهو يعلم أنه دون ذلك، ومنها المحدود النباح الملتزم بحدود ساحته، مؤكداً إياها ومصراً على

الدفاع المرير عنها. وقد ينشأ حوار عاصف أو شجار نابح فيقشعرّ بدن الهواء، وتتمزّق السكينة أشلاء.

للهواء في ليل الصيف على السطوح نكهة خاصة. كانت الليلة الأولى على السطح تترنّح بين اليقظة والحلم. اليقظة تحت هذه القبّة الهائلة المعتمة المتلألئة هي حلم. لا يكاد البصر يرى نجماً أو يسمع صوتاً حتى ينطلق في تأمّلات ورحلات.

«هذي النجوم تسبّح الله» قال الجدّ. «خورس كبير». استعار الجدّ هذه الكلمة من كنيسته الأرثوذكسية، حيث ما زال هناك دور للغة اليونانية. فالجوقة التي تشارك في الترتيل في الكنيسة هي الخورس.

في إحدى الليالي، وكان القمر بدراً، استطاع يحيى أن يقرأ على ضوء القمر. لعلّه أضرّ عينيه بذلك، فقد حذّره جده من ذلك وطلب إليه أن يعدّ دروسه على ضوء القنديل - تحت، وعندما ينهي يلتحق بهم على السطح. ولكن يحيى كان يسعى إلى تجارب جديدة، إلى تجاوز المألوف.

البدر يهزّ النفوس، ويبعث في الصبيان موجات من المرح والمغامرة. تجمّع مع عدد من الأتراب في تلك الليلة البدرية، وراحوا يتسابقون في الحواكير، يلعبون الغمّيضة، وأحياناً يغيرون على بعض أشجار المشمش والخوخ.. يمسحون الثمرة بالثوب لنفض الغبار ثم تنقضّ الأسنان تنهش وتسيل الحلاوة لتمتزج باللعاب، تبدأ بنهشها وأنت تقفز فوق سياج أو جدار، وكثيراً ما يتجاوز اللعاب السكّري حدود الشفتين إلى الثوب أو الأرض. وقد يغصّ أحدهم فيشتد سُعاله.

في تلك الليلة بلغ المرح والركض الذروة. كان يحيى مع أصحابه. ركض ليخرج من حاكورة أبو ناصر. كل يحاول أن يجد فتحة في السياج الحديدي الشائك لينفذ منها إلى الحاكورة المتاخمة.. ثم إلى الشارع. لكنّ سلكاً شائكاً صدئاً كان بالمرصاد، فجُرحت ساق يحيى، عند باطن الركبة جرحاً زاد على عشرة سنتمترات. «الرجال لا يبكون، ولا يولولون» كان هذا الشعار في صميم الوجدان، يربى عليه الصبيان منذ نعومة أظفارهم. صرخ صرخة الألم المفاجئ، ثم التفت إلى جرحه يعالجه. يجمع الطرفين ويلفّه بقطعة من قميصه. أسرع إلى بيت الجدّ. لو أن أمّه وأباه هنا لما تجرّأ على الخروج للّعب في الليل. مسؤولية الجدّين والخالتين

عظيمة. بالبنّ الكثيف عُبّئ الجرح ورُبط. كان رأي بعض الأولاد أن خير دواء هو أن يَبول على الجرح، عارض الجدّ، الجرح كبير وعميق. عندما برد الجرح تحرّك الألم الشديد. في تلك الليلة لم ينم على السطح. يجب أن تقلّ حركته.حتى اليوم ما زالت آثار ذلك الجرح الكبير في الساق شاهداً على تلك المغامرات البدريّة.

23. زيت السراج

كان الجدّ يصبّ القهوة من إبريق نحاسيّ كبير في إبريق آخر أصغر، يروّق ويخمّر، ويجمع الجمرات بالملقط المعدني حول جذوع الأباريق، فالقهوة المُرّة - السادة - تحتاج إلى خبرة لإعدادها. ثم تناول فنجاناً صبّ فيه قطرات، وحرك الفنجان بين أصابعه في حركة دائرية واحتسى منه رشفة تلمّظها ولمعت عيناه ببريق الرضا. أقبل على ثلاثة فناجين صغيرة دقيقة القاعدة متّسعة الفوّهة فصبّ في كل منها قطرات، وقدّمها لضيوفه على صينية نحاسية مبيّضة نُقش عليها اسم أحد أبنائه الذكور الذين لم يَطل بهم العيش.

- السّادَة للسادة. تفضّلوا.

كان الضيوف يتربّعون على فراش مُلقى على حصيرة. وقد احتضن أحدهم وسادة تمنع ظهره من الانحناء الشديد. أما الجدّ فقد نصب ركبته اليمنى وطوى رجله اليسرى تحته، جلسة تعينه على تعهّد النار والقهوة.

الضيوف ثلاثة، أحدهم جار قريب، وهم أتراب الجدّ، يتذاكرون أيام «السّفَربَرلِك»، وعهد تجنيدهم في جيش الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى.

جلس يحيى ينظر اليهم ويستمع إلى حكاياتهم مبهوراً، محمولاً على شفاههم إلى عوالم بعيدة غريبة. القنديل المعلق على الحائط ينشر ضوءاً أصفر باهتاً، تصيبه بين حين وآخر نوبة يشهق بها اللهب، وتتراقص الظلال على الجدران الأخرى، يد عملاق ترفع إبريقاً عملاقاً.

سرح يتخيّل جدّه لابساً ثياباً عسكرية، ويحمل بندقية فرنساوية طويلة، لا يلبس الحطة والعقال، بل قَلْبَقاً عسكرياً تركياً، ويتدرب على القتال، ويحمله القطار من العفولة إلى «الترعة» (قناة السويس).

أما جارهم أبو سعيد اللحّام فقد وصل إلى «أبو قريش» - عاصمة رومانيا، وإلى باطوم، وهو يحدّث عن البرد الشديد هناك وعن الجوع، والكثيرين ممّن قصرت طريقهم فلم يعرفوا العودة.

وروى الجدّ كيف اشترى من أحد البدو في النقب أقراصاً مقلية جُمِع فيها الشعير من روث الدواب، كلّفته غالياً، لأن الجوع كان يعصف بالبطون، وكان الجيش قد كُسر، واضطرب الانسحاب، فشقّ له الجدّ طريقاً ملتوية للعودة البائسة، تخلّى عن البندقية، والثياب العسكرية، وعاد متسللاً إلى القرية.

لكل واحد من الأربعة حكايته ومغامراته، عوالم بعيدة وتجارب قاسية جداً تُروى بكثير من المرارة وبكثير من الكلمات التركية.

وتُشارك الجدّة تحدّث عن مدى المجاعة في القرية وما جاورها، وكيف جاءت نساء من الشمال من لبنان يطلبن العمل ويسألن لقمة للعيال، وقد لجأ إلى بيت أهلها امرأتان وأطفالهما. فقد كان والدها يشدّ بضعة فدادين.

ويقطع الحديث أبو محمود منشداً ما حفّظوه في ذلك العهد للأطفال والكبار:

يا ربَّنا كُنْ واقياً　　　عبدَ الحميدِ الغاليا
ملكٌ سَما وتمَجَّدا　　　وعلى الملوكِ تفَرَّدا

ويتحدثون عن الجرائم التي ارتكبها بعض الجنود الأتراك أثناء انسحابهم، وكيف نُفّذ حكم الإعدام عند مشارف القرية في شاب اتُّهم بالفرار من الجندية، فاجتمع الناس ليشاهدوا كيف يُقتل برصاص الجنود الذين صوّبوا إليه بنادقهم وقد غُطّي وجهه، فما إن صدر الأمر حتى زُرع جسمه بالرصاص.

كان ليل الصبيّ يحفل بالمشاهد والظلال والأصوات وحكايات القتال واغتصاب الإرادة، ولم تكن الأمور كلها واضحة المعالم، فبعضها يتداخل في بعض، وكلها ترتسم عبر مخيّلة

تحاول أن تعقل تلك التجارب البعيدة الغريبة لتقرّبها من إدراكه، وتصبّ كلها في أحلامه بعد أن ينفضّ السامرون، وينوّص القنديل، ويعلو نقيق الضفادع المنبعث من «القناة» ومناجيات قبائل الصّرصار الحادّة.

قال الراوي: عندما وُلد جدّ يحيى هذا تفاجأت الداية وتفاجأ الوالدان، فقد كان الإبهام في كل يد مضاعَفاً، كأنه إبهامان ملتصقان، وعندما أرادوا تسميته كان أول اسم خطر: «زايد».. فهو زايد عن الآخرين. أليس في الاسم الشائع «نايف» معنى من معاني الزيادة أيضاً، ولكن من يتوقف ليتأمل في معناه؟ وكان يحيى يعتقد أن جدّه متفرّد بهذا الاسم حتى سمع فيما بعد اسم زايد بن سلطان ذلك الحاكم الخليجي.. ولكن جدّه سُمّي قبل ذلك بكثير.

وكان يحيى يُعجب بهذا الإبهام ذي الظفر العريض، ولكنه كان يُعجب أيضاً بخشونة الكفّين، فمن يستطيع أن يطلق الشرر من تلك القدّاحة البدائية التي لا تزيد على دولاب دونه حجر قدح، وحبل طويل أصفر، فإذا ضرب بمساحة كفّه على الدولاب انطلق الشرر إلى الحبل ثم انطلقت شفتا الجدّ تنفخان لتساعدا الشرر على التمكن من طرف الحبل.

كان الجدّ نشيطاً ينكش الأرض، ويعدّ الأشتال، ويزرع الخضار والأشجار، وكان حجّاراً عنده المُخْل (العتلة) والشاقوف والدبّورة وبقية عدة اقتلاع الحجارة وتقصيبها. وعنده حمار يحمله إلى المحجر، وينقل عليه الحجارة يرتّبها قريباً من الدار ليشتريها الراغبون في البناء.

تعلّم في طفولته في المدرسة الروسية في القرية، فهو يفكّ الحرف، وعنده كتاب «المزامير» يقرأ فيه، وهو مؤمن وإن لم يكثر من زيارة الكنيسة.

كان يحيى يسير مع جدّه مرّة، فرأيا قطعة من الخبز على أرض الشارع، فسارع الجدّ إلى التقاطها، قبّلها ثم وضعها في ثغرة في سنسلة حاكورة قريبة. وقال لحفيده: هذه نعمة من الله. يجب أن لا تلقي بالنعمة إلى الأرض أو تدوسها. في هذه الكسرة ما حرث الحرّاث وزرع وحصد ودرس وطحن وعجن وخبز، وهي عماد العيش. إنها نعمة الله علينا.

عندما تزوّج وولُد له طفل ذكر استبشر خيراً فسمّاه بشارة، ولكنه لم يطل به العمر، وعندما كانت تلد زوجته طفله الثاني ماتت مع الطفل.

وتزوّج امرأته الثانية، وولدت له البنين والبنات، لكن البنين كانوا يموتون أطفالاً وبقيت

له ثلاث بنات، كانت صغراهنّ تساعده في العمل، تركب الحمار وتنقل الطعام وتنقل الحجارة، وتساعد في العمل الزراعي. رأى فيها ما يعوّضه عن الولد الذكر.

وجد التعزية في أحفاده، ولذلك أحب يحيى. وظلّ يروي الجدّ عن حفيده هذا كيف زرع الحلوى والملبّس عندما كان في الثالثة من عمره.

كان الجدّ ومن حوله من العائلة يزرعون البندورة، وقد أعدّوا لها المشتل من قبل. تحفر قليلاً وتضع الشتلة في الحفرة، تردّ عليها التراب وتسقيها قليلاً، وإذا بالطفل يحفر بكفه الصغيرة حفرة يضع فيها حبة ملبّس، يدفنها في التراب ويسقيها بالماء.

- ماذا تفعل؟ صاحت الخالة.

- أزرع ملبساً.

بعد سنين، عندما عاد الفتى من الكلية في القدس، وقد تخرّج، كان يسهر عند جدّه ذات ليلة. كان الجدّ يلفّ سيجارة باهتمام، ألصقها بريقه، ثم قدّمها لحفيده الشاب. لم يكن الشاب يدخّن، وإن كثر من زملائه الطلاب المدخّنون.

أخذ يحيى السيجارة بشعور متناقض. أشعلها له الجدّ. لم يَجرِ أي حديث بينهما حول الموضوع. نظرت الأمّ حائرة. نظرت الجدّة وكأنها متفهّمة. دخّن يحيى باضطراب، وانكفأت نظرات الجدّ إلى النار في الموقد ويده تحرّك الجمر بالملقط بحركات شاردة، ثم صبّ له فنجاناً من القهوة السادة.

*

بعد سنين، وكان الجدّ قد جاوز السبعين بقليل مرض ولم يكن من عادته أن يلازم الفراش، لكنه في هذه المرّة أقعده المرض، كان شاحباً يشتدّ به العرق، وتّغيم عيناه. لم يُستدعَ طبيب، ولم يطل الوقت. في اليوم الثالث كان يحيى يجلس قرب الجدّ الذي كان على فراشه على الحصيرة. العينان غائرتان غائمتان، فجأة ينهض الجدّ بقوّة من الفراش ويقف مستنداً إلى خزانة قربه، كان طويلاً ممشوقاً، ناحلاً، شعره غزير على رأسه وقد غلب البياض السواد.

قال الجدّ بصوت ناحل: «هاي آخر الزيتات في السّراج».

ثم هبط إلى الفراش، غطّاه الحفيد والجدّة.. ولم تمض دقائق حتّى رحل.

24. الطربوش المذعور

وقف التلاميذ جميعهم عند دخول الأستاذ إلى الصفّ.

كان ذلك الوقوف سنّةً في كل الحصص، وفي كل الصفوف. ففي ذلك وضع نقطة بعد الدرس السابق، وحركة منشّطة، وبدء الدرس الجديد بانتباه. بل إن ذلك يحمل معنى الاحترام والتكريم للعلم والمعلّم. هذه السنّة زالت في أيامنا.

لأول مرّة يدخل هذا المعلم هذا الصف، فهو لا يعلّم الصّفوف دون الصف السابع. كل التلاميذ يعرفونه، رأوه في الساحة «مناوباً»، وسمعوا عنه الكثير من التلاميذ الذين يتعلّمون عنده. كلّهم يتحدّثون عنه باحترام وتقدير. سمعوه مرّة يلقي من شِعره – قصيدة رثاء في الملك غازي، ملك العراق.

لم يكن طويلاً، كان مربوعاً، إلا أن كرشه كان يحتلّ حيّزاً مرموقاً، وكانت مشيته تتّسم بالثقة بالنفس، والحزم.

إنه الأستاذ نعمه معلّم اللغة العربية. حديثه دائماً بالفصحى المختبئة في زوايا القاموس.

«جلوس»، انطلق صوت المعلم الجديد بشيء من الهدوء. فسُمع ضجيج الجلوس المكتوم. طاف الأستاذ بين المقاعد وهو يتأمل جِلسة التلاميذ. ثم انطلق صوته جهوريًا تتكسّر نغماته المتهدّجة على الجدران وتنصبّ في آذان التلاميذ تبعث الرهبة وتستثير الترقّب: «إقْعَنْسِس»، ردّد الكلمة وهو يصوّرها بحركة من جسمه: يدفع الصدر إلى أمام ويرفع الرأس إلى أَعلى، ويرتقي بالكتفين في حركتين متواليتين: انفراج لانفتاح الصدر وسُمُوٌّ بالصدر قليلاً.

ثم طاف يضرب بكفّه ضربات خفيفة على بعض الظهور المحدَودِبة لتستقيم، وتستوي ويندفع الصدر إلى أمام.

عاد إلى الطاولة، وقال:

«أعِدّوا كنّاشاتكم»، وهو يقصد بها دفاتر الملاحظات، فهو يعلّم الكثير مما لا يرِد في الدرس، ويريد أن يدوّنه التلاميذ ويحفظوه.

لا يتعامل إلا مع العربية الفصحى ويصرّ على التلاميذ أن لا يتعاملوا إلا بها.

يكتب الكلمة الجديدة ويشرحها، ويتوسّع في الشرح، ويريد أن يحفظ التلاميذ تلك المعاني. يقرن ذلك بحكايات وطرائف ليكون التشويق واشتهاء المعرفة.

يروي كيف جاءت أرملة معها طفلها اليتيم إلى زاهد تطلب منه عوناً على معيشتها فقال لها هذين البيتين:

إنني شيخٌ كبيرٌ   كافرٌ بالله سيري

أنتِ رَبّي وإلهي   رازقُ الطّفلِ الصغيرِ

ثم يطلب من أحد التلاميذ أن يقرأهما. فإذا قرأ «كافرٌ بالله» سأله: كيف يكون زاهداً وأنت تقول «كافرٌ بالله؟» ويشرح كلمة «كافر» ومعانيها – ومنها: الزارع، الزاهد، والنهر الكبير. أما الكافر بالله – فهو الذي ينكره ويجحد نعمته. ولذلك يجب أن توضع نقطة بعد «كافر»، ثم تجيء «بالله سيري»، فهذا الزاهد يستحلفها بالله أن تسير. ويشرح بعد ذلك التورية في «ربّي»، حيث يقصد ربّي طفلك... ويتّسع الشرح، ويعجب التلاميذ ويدوّنون ويحفظون.

وفي مرّة أخرى يكتب هذا البيت على اللوح:

بُثينة شأنها سلبَتْ فؤادي   بلا ذنبٍ أتيتُ به سَلاما

ويطلب شرحه وإعرابه، ويتخبّط التلاميذ ويَحارون حتى يكشف عن التركيب المعقّد، غير الناجح، فالشاعر يريد أن يقول: «سلا بثينة ما شأنها سلبت فؤادي بلا ذنب أتيت به».

ويُعرب بعض التلاميذ عن عدم استساغتهم لهذه الصياغة، ويؤيدهم المعلم في ذلك.

ويكتب المعلم مرّة على اللوح:

لن يكونَ العَيْرُ مُهراً   لن يكونَ العيْرُ عَيْرُ

ويطلب أن يقرأها التلاميذ، وتعثر الألسنة، فما معنى «لن يكون العَيْرُ عَيْرٌ»؟، ولماذا لم يُنصب خبر كان؟ وينطلق المعلم يشرح التوكيد، والفصل. فيجب أن نضع نقطة بعد «لن يكون» الثانية، فهذه جملة توكيد. والجملة الأخيرة «العَيْرُ عَيْرٌ» لا يتغيّر. وأما العَيْر فهو الحمار الأهلي أو الوحشي، وقد غلبت التسمية على الأخير.

وكثيراً ما يُحيل تلاميذَه على الكتب الكلاسيكية أو كتب اللغة. وكان يشجّع استعمال المفردات الملتحفة بالقاموس في كتابة الإنشاء، ولذلك كثر حفظ الكلمات النافرة وتدجينها في تلك الكتابة. ولذلك غرق يحيى في «مجمع البحرين» للشيخ ناصيف اليازجي.

كان الصف يتعلّم في كتاب «العلوم الحديثة» لمؤلفه سليم كاتول، وكان أحد الدروس عن القمل وأنواعه، ومن تلك الأنواع «قمل العانة».

توجّه حاتم الفتى الهادئ المهذّب إلى الأستاذ موسى، أستاذ العلوم، ليشرح له معنى كلمة «العانة»، فحوله هذا إلى معلم اللغة العربية.

كان الأستاذ نعمه مناوباً في ذلك اليوم، يقف تحت شجرة الكينا الوارفة في الساحة، وهو يراقب حركات التلاميذ، في استراحة ربع الساعة. جاء حاتم، وبيده الكتاب، ويتردّد سأله أن يشرح له معنى الكلمة. وتجمّع حولهما بعض التلاميذ. لم يشكّ المعلم بنيّة حاتم لأنه يعرفه ويعرف منبته، ولم يضطرب فقال: «العانة هي الشعر الذي ينبت بين الرجلين. أليس لك عانة؟». اضطرب حاتم وعاد سريعاً ولم يعد هو أو أحد من ذلك الصف، ينسى تلك الكلمة أو معناها.

أما معرفة الأستاذ نعمه ودراسته، فتعود إلى دار المعلمين الروسية «السمنار» في الناصرة، وكان يدرس فيها صفوة التلاميذ من الجليل ولبنان وسوريا. وكان يفخر أن من خريجي هذه الدار ميخائيل نعيمه ونسيب عريضة وآخرين.

وكان التلاميذ في «السمنار» يدرسون اللغة: صرفاً ونحواً ولغة، ويحفظون ألفيّة ابن مالك وشروحها. ومن هنا هذا التعلّق بالعربية.

أحبّ يحيى درس الأستاذ نعمه. كان يجول في «مجمع البحرين»، و«البيان والتبيين» و«معجم الرائد»، وغيرها ويعود بصيد لغويّ وفير يطعّم به إنشاءه وينظم أبياتاً من الشعر يضمّنها مواضيعه ويشير في الهامش إلى أنها من نظمه. وكان الأستاذ يقرأ إنشاءه في

الصفوف العالية ويقول: «الديك الفصيح من البيضة يصيح». ويسمع يحيى إطراء الأستاذ، وإطراء التلاميذ في الصفوف العليا، ويزداد إقباله على اللغة وآدابها.

وعلى ذكر «السمنار الروسي» وخرّيجيه: لقدعلّم الفتى أستاذ آخر من خرّيجي هذا «السمنار» في الصفين الخامس والسادس، وكان أيضاً أستاذاً للغة العربية. كان الأستاذ نصر متمكّناً من اللغة، ينظم الشعر، ويتعامل مع الفصحى أيضاً، إلا أن التلاميذ كانوا يحبّون أن يتعبوه ببعض المقالب.

كان يضع طربوشه على الطاولة عندما يدخل إلى الصف. وذات يوم فيما كان يكتب على اللوح أخذ الطربوش الأحمر يتحرك على الطاولة حتى يصل إلى طرفها فيميل قليلاً ثم يعود مرتجفاً حَيِيًا إلى الطرف الأول، وهكذا يعاود مسيرته على الطاولة في شيء من الذعر.

كان المشهد رائع التسلية للتلاميذ، فقد انفجر الضحك واختلط الضجيج. بعض التلاميذ يقفون ويقترحون ويتطوّعون، والأستاذ ينظر بدهشة تقطر قشعريرة وغضباً.
بعث يستدعي المدير الذي جاء مسرعاً وما زال الطربوش يقوم بحركاته البهلوانية. وعندما مدّ المدير نحوه المؤشر وقلبه انطلق من تحته طائر صغير مذعور ـ أبو مصص. ازداد هرج التلاميذ، وركض أحدهم فالتقط الطائر.

وأسفرت التحقيقات فيما بعد عن أن التلميذ الذي كان يُلقّب باسم مدير الشرطة البريطاني «بْرِنْد»، والذي كان يقضي أوقاته في إعداد المقالب – هو الذي أحضر الطائر، وتعاون مع تلميذ يجلس قريباً من طاولة المعلم لمغافلته وتغطية الطير بالطربوش.

وهذا الطربوش كان موضوع دُعابة محبّبة. فقد تسلّق مرة على صنّارة وخيط إلى وسط سقف الغرفة حيث كان خُطّاف من الحديد للتعليق. وكانت هناك يد في آخر الصف تشدّ الخيط إلى أن انتبه الأستاذ، فأسقط «برند» الخيط بعد أن تمتّع الصفّ برحلة الطربوش الناجحة.

قال الراوي: كان «برند» يحتاط دائماً للعقاب. والعقاب ضرب شديد قد يكون بقَفا مسّاحة اللوح على عُقد الأصابع، أو يكون بسلسلة حديديّة يرقّصها الأستاذ رشيد على ظهر اليدين. كان «برند» يسعى إلى «الحِسبة» القريبة فيتموّن ببعض الخضار والفواكه، ويترصّد حرذوناً يمسك به ويقتله ثم يدهن يديه بدمه، فقد قيل إن دم الحرذون يمنع الألم حين الضرب.. ولكن التجربة لم تقنع «برند» بصحّة ذلك.

وظلّ الأستاذ نصر يخلص في التعليم، ويحرق أعصابه، ويوبّخ من يجهل ما يفعل حرف الجر قائلاً له: «الباء تجرّ الجبل» وإذا كان غاضباً تقوم الباء بعملية أخرى: «الباء تجرك إلى الجبّانة».

وكان إذا رأى تلميذاً يضحك يسأله عن سبب الضحك، فيقول: فلان أضحكني، فيمدّ الأستاذ يده إلى محفظة نقوده ويخرج منها جنيهاً ويقول: «هاك جنيهاً إذا أضحكتني».

فيتبارى التلاميذ في محاولة إضحاك الأستاذ ولكنهم لا يفلحون إلا في إثارة الضجيج وزيادة غضب الأستاذ، فيقول لذلك التلميذ: «هل رأيت؟ أنت ضعيف الشخصية، خفيف، لذلك تضحك، ولذلك يجب أن تعاقَب».

وتتحرك المسطرة فوق يد التلميذ بينما يعدّ الزملاء بإيقاع التشفّي: واحد.. إثنان.. ثلاثة.. ويزيدون ليزيد الأستاذ.

25. أم زكي

أم زكي راجعة من العين وجرّتها السوداء تميل فوق إكليلها في دلال. رأت ابن جيرانها قاسم – وهو في الخامسة عشرة من عمره – مقرفصاً يلعب بالبنانير مع جماعة من الصبيان وكلّهم أصغر منه بكثير فصاحت به موبّخة:

– «قُم ألله لا يكبرك..» ولم تتحرج وهي تشير إلى عمره – من بعض التعابير الجنسية الصريحة.

لملم قاسم نفسه وقام خجِلاً، وقد انتفخت جيوبه بما كسبه سواء بالبراعة التي أثمرها العمر أو بالعريدة الكامنة وراء فارق السنّ. ومشى نحو البيت دون أن يردّ بكلمة، ولم تكن أمّ زكي تكبره بأكثر من بضع سنين.

تأمّل يحيى في امتثال قاسم وانصياعه وكان صوته قبل ذلك يملأ الفضاء يهدر فيُطاع. لكنّ أمّ زكي امرأة متزوّجة وهي أمّ وجارة تستطيع أن تأمر وتنهى.

كذلك كانت الأمور في القرية. كل الكبار مسؤولون عن تربية كل الصغار. والصغار يربّوْن على احترام الكبار وقبول تدخّلهم وتوجيههم. بل إن بعض الصغار يقبّلون أيدي الكبار ليسمعوا دعاءهم: «الله يرضى عليك يا ابني». والكبار يرون في من هم أتراب يحيى – بل أكبر قليلاً – أولاداً محدودي الوعي يطردون من المجالس طرداً عنيفاً أو رفيقاً:

– «روح إلعب مع الأولاد، ليش قاعد مع الكبار؟».

– «يلا يا اولاد كل واحد على بيته».

رفض يحيى مرة أن يلبّي طلب أمه بالذهاب إلى الدكان لشراء حاجة فهبط عليه هجوم من ثلاث نساء عابرات سبيل تطوّعن للعون على تربيته:

- «إسمع كلمة امك يا ولد».
- «يا عيب الشوم، بقولوا إنّك مربّى».
- «ما لُه مْحَرَّن؟».

قال في نفسه: «لتربِّ كل واحدة أولادها»، لكنه لم يجهر بذلك.

وقد يتوجه كبير إلى صغير ليسخّره في أمر:

- «ألله يرضى عليك ناد لي فلان». أو: «خذ ودّي هالغرض لدار فلان».

وعلى الأولاد أن يلبّوا وإلا اعتُبروا وقحين وقليلي التربية وسمعوا من الكلام العنيف القاسي.

حتى بعض من عُرفوا بضعف الذكاء أو اهتزاز الشخصية - وهم موضع سخرية القرية - يمارسون سلطة الكبار ويسعون إلى تربية أبناء الآخرين، ويهددون الصغار بالشكوى إلى أهلهم، وقد رأى يحيى أباً يعاقب ابنه بالضرب نتيجة شكوى أحد هؤلاء.

ويحيط الكبار أنفسهم بهالات من الغموض ويرسمون لأنفسهم في عيون الصغار صورة تجمع ألوانها بين المعرفة والقوة. عندهم علم الممنوع وعلم المسموح ويعرفون أسراراً محجوبة عن الصغار:

- «لماذا نبشت الشرطة قبر عريفة التي قيل إنها انتحرت قبل بضعة أيام؟».

في تلك الليلة، قبيل الفجر، دقّ أخوها باب بيت يحيى وهو يبكي ويعلن موت أخته التي ما زال أمامها الكثير لتبلغ الثلاثين.

وفي اليوم التالي، قبيل الجنازة وبعدها، كان الهمس يغرق الكبار، والوجوه متجهّمة قلقة. ولكن أقصى ما استطاع الصغار أن يسمعوه كان صوت امرأة تمسك بأطراف أصابعها صدر ثوبها تنفضه وهي تقول بكثير من التحفّظ والاستغفار: «أولادنا بحفظ الله» ثم تتمتم: «ألله يستر عالولايا»، ويختنق الجو، ويحسّ الصغار أن هناك شيئاً مريباً وإن لم يعرفوا ما هو.

في القرية يبدو كل شيء واضحاً. القيم كلها مقرّرة ولا مجال لمناقشتها. لكل سؤال

جواب اطمأن الناس إليه واهتدوا به. وقد تسأل عن أمر فيتصدّى للإجابة واحد من الأمثال الشعبية دون الالتفات إلى أن لهذا المثل أحياناً ضداً يحمل رؤية مغايرة ويُعتمَد في ظرف آخر. وقد يكون الجواب حيناً آخر اقتباساً غير دقيق من الكتب المقدّسة دون محاولة لاستفسار الاجتهاد الذي وراء التأويل.

هناك جدول للمحرّمات - الدينية والاجتماعية. وفي الحالتين يُردع الناس ردعاً بالتخويف من العقاب والعذاب. بل إن تجاوز المحرّمات الدينية يغفره ربّ رحيم يقبل التوبة والاستغفار. أما تجاوز المحرّمات الاجتماعية فقلّما يُغتفَر ويمتد عقابه من النبذ والاستنكار حتى القتل. وإذا ساءت سمعة إنسان ساءت سمعة عائلته، وقد يمتنع الناس من مصاهرته، ويحذّر الأطفال من صحبة أبناء تلك العائلة. ألا تقرأون في الصحف إعلانات التبرّؤ والبراءة من الأقرباء المستنكَرين؟

كانت قراءات يحيى في البداية في التراث الأدبيّ العربيّ القديم إلا أن معلّماً في مدرسة القرية كان صديقاً لوالده زارهم مرّة ومعه كتاب «دمعة وابتسامة» لجبران خليل جبران. استأذن يحيى أن يطالع في الكتاب بينما الوالد وضيفه يتسامران. انفتح أفق جديد أمام يحيى. للغة جبران طعم آخر ولأفكاره تدفّق يتحدّى الأطر المرسومة. وأقبل يحيى على كل ما استطاع أن يصل إليه من كتب ذلك الرجل.

للتعامل مع جبران لا بدّ من انفتاح الفكر. تجاوب هذا الاكتشاف مع ميل يحيى لمناقشة ما يحيط به، ولفحص «المتّبَع» على ضوء الفكر والخروج على تربية القطيع. وفهم يحيى سرّ الحملة التي شنّها على جبران في حينه رجال الإكليروس والكتّاب المتشبّثون بالقديم المحنّط باعتباره المثل الأعلى للبلاغة.

«لكم لغتكم ولي لغتي». هذا القول وما له من أبعاد كثيرة استثار إعجاب يحيى، وفتح أمامه آفاقاً جديدة، ليس على صعيد اللغة فحسب، بل في النظرة العامة والرؤيا.

كان يحيى متمرّداً بطبعه لا يقبل الأشياء على علاتها. بعد أقل من عقدين، بعد النكبة التي طوّحت بالبلاد بثلاث سنين عاد يحيى من الناصرة إلى قريته ذات مساءٍ وإذا جوّ البلدة مشحون يوشك أن يتفجّر.

كانت قوّات الإحتلال قد طردت أهل صفوريه - القرية الجارة - من بيوتهم واقتلعتهم من

أراضيهم فلجأ بعضهم إلى الناصرة والبعض الآخر إلى قرية يحيى. وأصرّ البعض على البقاء في صفّوريه فظلوا في بيوتهم ستة شهور بعد الإحتلال وإذا بالقوات تقتلعهم من الجذور وتشردهم.

وحدث أن نشأت صلة بين شاب من لاجئي صفورية وفتاة من القرية المضيفة، والحب لا يتقيّد بمذهب ولا بحيثيّة إقامة. اختفى الإثنان، فاقشعرّ الناس وهاجوا. اعتبروا الحادثة «دعسة طرف» ومساً بالضيافة وحق رعايتها وإهانة لشرف الجميع. وإذا بالناس في ذلك المساء مجتمعون في عليّة أحدهم يطالبون بطرد اللاجئين من البلدة. كل العائلات تمثّلت في الاجتماع وقد ساد الإجماع على المطالبة بالطرد:

- «غداً نحمل مفاتيح بيوتنا جميعاً ونقدمها للحاكم العسكري في الناصرة، فإمّا نحن أو هم في هذا البلد..».

لم يكن يحيى مدعواً إلى الاجتماع. كان ابن عمّ أبيه الكهل ممثلاً للعائلة هناك. وقد حركت نخوتَه الرياح نفسها التي حركت الآخرين. جمع يحيى بعض الأصدقاء بسرعة، تداولوا في الأمر، ثم دخلوا الاجتماع. استمع إلى الحوار حيناً ثم طلب حق الكلام. قال: «لنفرض أن كارثة الرحيل حلّت بقريتنا واضطررنا إلى اللجوء إلى قرية أخرى وذات يوم قام أحد أبنائنا باختطاف فتاة من تلك البلدة. فهل من العدل أن يطالب الناس هناك بترحيلنا وطردنا؟ سنطالب بحصر العقوبة في المسيء وحده. اتّقوا الله في نفوسكم ونفوس إخوتكم. هذا ما يريده لكم الحاكم العسكري: أن تشتبكوا مع إخوتكم وتطالبوا بطردهم».

لم ينتظر البعض حتى ينهي يحيى كلامه، فقد أحسّوا باتجاه الريح فقام الاحتجاج واللغط واشتدّ الجدل الذي غرقت تفاصيله في الضجيج. سخط البعض على كسر تلك الوحدة وغادروا.. ثم انفضّ الاجتماع دون اتخاذ قرار، وقد جاء البعض يهدّدون يحيى بأنه سيتولّى الحاكم العسكري أمره لموقفه هذا.

الفتاة المخطوفة عادت في ذلك المساء، في اليوم ذاته. وكان أبوها عاقلاً فاستقبلها بحِلْم، ومنهم من قال بل بدهاء فهو يحسن أن يضمر الانتقام.إلا أن عمّتها أدارت الأمور بحكمة فدبّرت لها عريساً من حيفا وزوّجوها بعد أسابيع قليلة. وعادت العلاقات بين أهل القرية ولاجئي صفورية إلى مجرى سليم، وأدرك الناس بعد أن راحت السّكرة أنه لو نجح

الاجتماع لحلّ الشرّ العميم. لم تكن وقفة يحيى في ذلك اليوم يسيرة، إنها ضد تيار كان جارفاً: كثيرون استنكروا تلك الوقفة إلا أنهم اعترفوا له فيما بعد أن ناسجي المؤامرة عرفوا كيف يشعلون العواطف ووهمَ النخوة فاستبعد الغضب العقلَ والقلبَ.

26. حكاية الضبع

أحبّ يحيى أن يتأمّل أباه وهو يحلق ذقنه في الصباح. فالأيام التي يقضيها الأب في البيت قليلة. جلّ أيامه في مخيّم المساحة، في الجنوب أو الشمال.

كانت حلاقة الذقن أمراً يحيطه الكثير من الغموض وتؤطّره هالة أكثف من هالة الصابون المُرغية المزبدة حول الوجه. ومن عادة الأب أن ينشد أثناء الحلاقة، وقد ينقطع النشيد حيناً قصيراً تلبية لبعض حركات الوجه لتيسير انسياب شفرة الحلاقة. وينتقل صوت الأب من الهمهمة حيناً إلى الوضوح المتّسق.

*

صباح الأحد. يحيى في فِراشه. اليوم عطلة. يمكن التلكّؤ في الفراش قليلاً قبل أن تسمع طلباً يُخرجك من الدفء الناعم إلى لذعة البرد الشتوية، ويغسل دبق الجفون، فتستيقظ قافزاً أو تقفز مستيقظاً. فمطالب الوالد أو أوامره لا يجوز فيها أي تمهّل أو تكاسل. أما إذا أرادت الأم شيئاً وأصرّت عليه فإنها تحوّل ذلك الطلب عبر الوالد، فيكون الانتهار الغاضب الذي لا استئناف عليه ولا تردّد.

الصبيّ في بركة الدفء. والأذنان تلتقطان نشيداً يغنّيه الوالد أثناء حلاقة الذقن:

يـا حـياةَ المجـدِ عـودي   للحـمى طالب المَطال
إرحمي الشرقَ وَجودي   لِـبَنيـهِ بِالوِصـــال

#

لســتُ وَاللهِ نَســيًا   ما تُقاسيــهِ بــلادي

وتغيب الكلمات إذ تُضَمُّ الشفتان لتسهل مسيرة الشفرة فوق الشفة العليا. وأخيراً تنفرج الهمهمة عن آخر البيت: «من عذابٍ واضطهاد».

وفي مرّة أخرى التقطت أذنا الصبيّ نشيداً آخر يتشامخ فيه الحزن نحو الإصرار والتحدّي:

يـا ظـلامَ السـِّجنِ خيِّم   إنَّنــا نـهـوى الظّـلاما

ليسَ بعـدَ اللـيـلِ إلا   فَجرُ مجـدٍ يتسـامى

وتتكرّر في اللحن كلمة «إلا» مرّتين تؤكد تلك الثقة وذلك العزم. إيقاع النشيد لا يُنسى، وترتسم الكلمات في الذاكرة كأنها جرح ضبابيّ غامض يظل ينزف حزناً. حفظ الصبيّ كلمات هذا النشيد ولحنه، وقد أسعده فيما بعد أن يتعرّف على حكاية هذا النشيد ودَوره في المعركة القومية.

إلا أن الصبيّ يذكر ألحاناً أخرى كان الأب يغنّيها أثناء طقس حلاقة الذقن:

الا تَـــذَكَّري   لــياليَ الوِداد

يا لورُ حُـبُّكِ   قَد لوَّعَ الفُؤاد

وسعد بعد سنين طويلة حينما سمع المغنية الخالدة «فيروز» تجدّد حياة هذه الأغنية بصوتها المخمليّ المنساب من حنجرة فيروزية. أعادته هذه الكلمات وحمله ذلك اللحن إلى شذى العطر الذي كان والده يرشّه على راحتيه ثم يحتضن بهما وجهه ويربّت عليه بنشوة شبابيّة.

بعض الأناشيد حفظها الوالد أيام دراسته في الناصرة، في المدرسة التي أدارها المربي المعروف أمين فارس. وهي تعبّر عن حلم الشرق باستعادة أمجاده، أو تؤكد على تحدّي الأحرار للسجن والاضطهاد. كيف يستطيع المربي أن يغرس في النفوس رسالة الوعي حتى في أحلك ظروف حكم الاستبداد العثماني؟

ويتساءل الراوي: هل انتقل شيء من تلك الروح إلى يحيى عبر تلك الأناشيد؟ حينما يراجع الكهل اليوم مسيرته، يرى الخيط الذي ينتظم المسيرة عبر السنين.. منذ الطفولة. إن للّحن والكلمة سبيلاً ممهّداً إلى بئر الوجدان، وفي ذلك عزاء من ينسجون الكلمات ومن يجنّحون الألحان.

*

كانون النار وسط الغرفة يلمع فيه الجمر. يحترق جلد الجمر رماداً مجسّداً قبل أن يتناثر بساطاً رمادياً في قاع الكانون. ويلتقي الأسود والأحمر حينما يُضاف المزيد من الفحم لضمان الدفء وحياة الجمر.

وفي عناق الفحم والنار، ذلك العشق المتوهّج القاتل، تعرّض كفّيك الباردتين للهاث الجمر فيسري في الجسم دفء منعش يدغدغ الروح، ويربط الجسم إلى جوار الكانون رباطاً يمانع في أن ينفصم. فأنت لا تريد أن تتحرك من موقعك لأية غاية.. والويل إذا ألحّت عليك حاجة لا تُرَدّ.

وحول الكانون «الجواعد». كل جاعد كان ثوباً لشاة أو خروف قبل أن يحلّ عيد أو يشتد قَرَمٌ فيحلّ الذبح، ويملّح الجلد ويجفّف ثم يصبح الصوف وطاءً دافئاً في الشتاء.

ويحيى يبقي قشر برتقالته ليقصّه شرائح ثم يضعه على النار لتنطلق رائحة طيّبة.

العائلة مجتمعة حول الكانون، وفيهم ضيف قريب: العمّ، أخو الوالد، جاء من حيفا ليقضي بضعة أيام. تُحضر الأم كيساً فيه كستناء، فتعلو الهمهمة، ويفتح الوالد زجاجة كونياك. ويهيّأ في الكانون مكان لإبريق الشاي. فالشاي هو الذي يبعث الدفء في قلوب الصغار. أما الكبار فلا بد لهم من الكحول للتدفئة.

صوت المطر في الخارج. قهقهات الرعد. غيلان سكارى يفرقعون ضحكاتهم العربيدة على السفوح والأودية. والريح التي تحشر نفسها بعنف وخبث في سلوع الأبواب وشقوق الشبابيك تفحّ فحيحاً مزعجاً. كل ذلك يدفعك إلى أحضان الكانون. فإذا أمعنت النظر في الجمر والرماد والفحم زمناً، تجاوزت المكان وسرح بك التأمّل والتفكير في عوالم تتجدّد دائماً وتختلف دائماً. دقّق النظر في نقطة معينة زمناً ما حتى لا تعود تراها لشدّة التركيز فتنطلق على أجنحة سحرية في أغوار الكينونة وفي رحاب الآفاق. رحلات فيها غذاء للروح وكشف

الأستار. وكم كان يحيى يتمتّع بمثل تلك الرحلات فيغيب وعيه عمّن حوله، وينعم بتجارب لم تكن تخطر له على بال. إلا أنه اضطر إلى الهبوط المفاجئ كأنما في مظلة سرعان ما انتزعت جناحيه وأيقظت وعيه لما حول الكانون. مال الحديث بين العمّ والوالد إلى ذكريات طفولتهما. وكم يمتع أن تتعرّف إلى والدك يوم كان طفلاً وصبيّاً. بل أن تعرفه حقًا كما هو الآن. فكثيراً ما لا يعرف الابن أباه إلا من وراء قناع. كذلك يلتقي الآباء والبنون عبر أقنعة تخبّئ الصراحة والضعف الإنساني، والسّمات الذاتيّة.

يذكّر العمّ الوالد بحكاية الضبع. فيضحكان. ويطلب يحيى أن يسمع الحكاية ويثنّي على ذلك أخواه. وتتفتّح العيون وتُشرّع الآذان.

لم تكن حياة الوالد يسيرة. كانت مجبولة بالشوك. توفّيت أمّه أثناء ولادة الطفل السادس. ماتت هي والطفل. من يتكفّل بالأطفال - أربعة أولاد وطفلة؟ لا بدّ لأبيه أن يتزوّج. المرشحة كانت المعلمة بديعة، معلمة في المدرسة الإنجيلية في القرية، عانس متقدّمة في السنّ ولا خطر أن تنجب المزيد من الأطفال، وهي صديقة العائلة. نشأ الأطفال في حضن أمّهم وحضنها. إلا أن الرجل اختار أن يتزوّج من امرأة صغيرة أنجبت له مع الزمن ستّة أطفال آخرين: ثلاث بنات وثلاثة أبناء.

الحياة مع زوجة الأب عسيرة. والأب أصبح يعاني من مرض في عينيه. تبادل والد يحيى وعمّه نوادر كثيرة عن سوء معاملة زوجة الأب. وكيف آل الأمر بالأبناء جميعهم إلى التفرّق والعمل في سنّ مبكرة جداً.

اضطر والد يحيى - وهو الابن البكر - إلى الانقطاع عن الدراسة بعد الصف الرابع. كان في الثانية عشرة من عمره عندما ذهب ليعمل مع عمّال البناء في جبل الطور. أكثر من خمسة كيلومترات ذهاباً، ومثلها إياباً، كل يوم. يختصر الطرق بين الأحراش، ثم يتسلّق الجبل الشامخ فريداً مطلاً على مرج ابن عامر من الغرب والمرتفعات المشرفة على الغور من الشرق. اخشوشنت كفّاه في نقل الحجارة لتلك الكنيسة التي تُبنى قرب دير اللاتين. بعد العمل المرهق يعود إلى قريته مع بداية زحف الظلام.

ذات عتمة وصل إلى الوادي الشرقي، وهو في طرف القرية تُلقى فيه جيَف الحيوانات. الرائحة المنبعثة من هناك مقزّزة. تتجاوب في الوادي أصوات نداءات بنات آوى.. أصوات

رفيعة تتلوّى في امتدادها.

«فجأة أحسست شعر رأسي يتسمّر. شيء ما يشدّ على صدري، الجوّ خانق. شيء ما يحتكّ بي ويندفع سريعاً. رائحة كريهة من حيوان شرس. قلبي يسقط في بير. حالاً تذكرت الحكايات التي كنت أسمعها عن الضبع*. يركض محتكاً بك مرات.. ينفخ رائحته الكريهة في وجهك حتى «يضبعك» فتركض وراءه تصيح: «يابا».

التفتُّ فرأيت ضوءاً ينبعث من دار أبو ياسين الراعي. أخذت أناديه.. في البداية تمنّعَت حنجرتي. الجفاف يلفّها والصوت منقطع. عدت إلى نفسي مؤكداً أن هذا هو اتجاه الأمل الوحيد، انطلق الصوت:

- «هيه يا ابو ياسين!».

وركضت باتجاه البيت. وأنا مستمر في النداء المذعور.

لحقني الضبع واحتكّ بي بعنف. كدت أسقط. تماسكت وأسرعت وأنا أطلق النداء من قحف رأسي.

انفتح باب بيت أبو ياسين وهو يسأل:

- «مين؟».

- «إلحقني..».

تحرك معه أبناؤه ومعهم العصيّ.. وجاءوا إليّ، واختفى الضبع».

تصوّر الصبيّ أباه وهو في مثل عمره يجابه هذه التجربة.. ثلج يسري في عموده الفقري.

- «ماذا لو ظهر الضبع قبل ذلك.. في حرش سَرْطَبه، ولم يكن أحد هناك؟. النتيجة معروفة. هل تعلم يا يحيى أن وجودك مدين بالفضل لأبو ياسين؟».

وتظلّ حكايات الضبع تحتلّ سهرات ليالي الشتاء، وينقلها الأولاد إلى أصحابهم في المدرسة يروونها أثناء الطريق أو في الفسحات، وبذلك تتّسع دائرة المعارف العامّة عن التراث

* الضبع – لغةً – مؤنّثة، إلا أن التعامل مع الكلمة هنا (التذكير) جنح الى العُرف العامّي.

الشعبي الذي يتكدّس في بيدر كبير يختلط فيه القمح والشعير والزؤان وغير ذلك. هل سمعت حكاية صيّاح. رواها صاحبه أسعد الزويعي؟ قال:

كان صيّاح راجعاً من وادي سَرْطَبَه وقد حمّل على حماره ما جمع من حطب الملّ والسرّيس. أحراش الملّ بدأت تأكلها العتمة.. أول المسا.. غباش.. والعصافير تتجمع على الشجر للنوم تزعق وتخرفش. صيّاح يجرّ حماره بالرسن، ماشٍ على مهله، والحمار يتحرك ببطء وصبر. فجأة وقف الحمار. تسمّر في مكانه، شدّ صيّاح الرسن بكل قوّته لكن الحمار لا يتحرك. فتح رجليه وأخذ يبول بعنف. صيّاح أخذته الوهرة، أحسّ أن في الجوّ شيئاً مخيفاً. تذكّر أن حالة الحمار هذه تعبير عن خوف من الضبع. يقولون أن الضبع يخاف من النار. أين عود الكبريت أو القداّحة؟ فتّش جيوب قُمبازه في ذعر ولم يجد. كهبوب الريح ركض الضبع صادماً جنب صيّاح. ترك صيّاح رسن الحمار وحاول أن يضرب الضبع بالعصا التي معه، لكن الضبع كان قد ابتعد، وفجأة عاد الضبع كالسهم يصدم جانب الرجل. حاول صيّاح أن يرفع العصا لكن عضلات ساعده لم تساعده. الخوف يشلّ. لم يبتعد الضبع كثيراً وعاد يواجه صيّاح وضع يديه على كتفي الرجل وقرّب وجهَه من وجهِه ونفخ في أنفه، طرحه أرضاً، سقطت الكوفية والعقال على الأرض وكان صيّاح في حالة من الغيبوبة.. بعد قليل قام يركض خلف الضبع..

- «استنّاني يابا.. استنّاني».

الضبع يتخلّع في مشيته أمام صيّاح نحو مغارته، أو كما يسميها الناس موكَرَته، وفي تلك التسمية تلميح للمكر والوكر معاً.

- «هيه يابا.. يابا.. استنّاني».

دخل الضبع المغارة ثم انقلب بجسمه متّجهاً بوجهه نحو صيّاح. الضبع لا يستطيع أن يلتفت برأسه إلى الخلف، فرقبته لا تساعده على ذلك.. ولذلك عليه أن ينقلب خلفاً بجسمه كله.

- «هيه يابا.. يابا..» وكان صوته كأنه طالع من مطحنة خوف. زعيق يرتجف..

اقترب صيّاح من باب المغارة. دخل الضبع يحضّر للوليمة.. اندفع الرجل يركض بذعر ليلحق «أباه»، وفجأة ارتطم رأسه بالصخر عند أعلى فتحة المغارة. فُشِخت رأسه وسال منها

الدم على وجهه.. فصحا صيّاح. نزيف دمه أعاد اليه وعيه، فانحلّ «انضباعه» وأدرك الخطر المحيط به فركض هارباً.. فنجا.

وكم تتحوّر نصوص الحكايات وتتغيّر الأسماء، ولكن المحور يظلّ أن نزيف الدم من جرّاء ارتطام رأس المضبوع بالصخر هو السبيل الوحيد للنجاة من مداعبة أنياب الضبع وزيارة معدته.

لكن هذه الحكاية تختلف عن حكاية ناصر النداّف:

- آه.. هذا الرجل بلوَة على الضبع.

- له سطوة على كل الضباع، يُخرج كل ضبع من مغارته، يأتي إلى موكرة الضبع ينادي عليه: «أبو حسن.. هيه يا بو حسن، إنتِ جواً؟ جيتك يا بو حسن جيتك». يدخل المغارة وبيده حبل وعصا، ويخرج راكباً على ظهر الضبع، والضبع أطوع من الكُرّ المطبّع.

ويسكن الضبع في أحلام الأولاد. وتتحول الحكايات الي تجارب يعيشها الأطفال.. فيفيق البعض من نومهم وقد جفّ الريق وفاض الخوف.

عندما سمع يحيى المنادي واقفاً أمام الخان قبالة المدرسة في الناصرة معلناً عن عرض ضبع على الناس لقاء قرش، تخلّى عن مصروف يومين ودفع المبلغ للرجل، دخل من البوابة العتيقة الكبيرة إلى ساحة الخان الواسعة فشاهد حيواناً قميئاً أغبر لا يزيد في علوّه على كبش، وقد وقف إلى جانبه رجل كفى شرّه بكمّامة من الجلد وضعها على فمه، وربطه برسَن ثبّت طرفه الآخر بوتد.

غابت الأسئلة الكثيرة التي أعدّها ليسأل صاحب الضبع عنها. تحت اللسان شيء من طعم خيبة الأمل.

*

تربّى أبو يحيى بحزم أقرب إلى القسوة. كان أبوه عصبيّ المزاج سريع الثورة. إلا أن هناك استدراكاً. يتذكر والد يحيى حكاية العيد.

كان في السادسة عشرة من عمره آنذاك، وكان مع أصحابه في ساحة القرية، يلبس جاكيتاً جديداً وقد أشعل سيجارة. وشاء حظه السيّء أن يمرّ أبوه من هناك فاحتضن السيجارة

بكفّه وجعل كفّه في جيبه إلى أن يمرّ الأب. لكن الأب رأى المشهد كاملاً، فوقف عند الابن يحادثه، وظلّت اليد في جيب الجاكيت الجديد، فقال الأب:

- ألا تخجل أن تكلّم أباك ويدك في جيبك؟

بلع الابن ريقه، ودارت زوبعة في رأسه. وأخرج يده من جيبه وقد أسقط السيجارة فيه. وراح الأب يحادث ابنه بهدوء حتى علا الدخان من الجيب. وذُعر الابن يعالج الحرق، وتدمير الجاكيت وفرحة العيد. نظر اليه الأب ببرود ثم مضى ساكتاً هادئاً.

رسخت هذه الصورة في مخيّلة يحيى وحار في التفسير. سمع فيما بعد عن رجال في الخمسين من العمر، متزوّجين ولهم أولاد، لكنهم ما زالوا لا يدخّنون في حضرة الأب احتراماً. ما هذا الاحترام المُرائي؟

الأب يدخّن، والابن يدخّن، والأب يعلم بذلك، ولكن الابن ما زال يخشى أن يراه أبوه متلبّساً بتلك الجريمة!

وكيف هان على الوالد أن يحترق ثوب ابنه.. وفي العيد؟

وكيف لم يصارح الابن أباه فيمنع الاحتراق.. ولا بدّ أن يُكشف السرّ عاجلاً أو آجلاً؟

معقّدة هذه العلاقات. ولعلّ والد يحيى ورث شيئاً من تعقيدها، فانعكس الأمر على علاقته بأبنائه.

ومن يعلم كيف يمكن أن تتطور العلاقة لو كان الأب في البيت يوميًا، وكانت صلته أكثر بالصغيرة والكبيرة.

ولكن العبء وقع على الأمّ، وهي أكثر تواصلاً، لا تعرف الأقنعة، وحنانها نقطة الانطلاق دائماً.

*

عندما عرض على الوالد الفتيّ أحد أصدقائه أن يعمل معه في دائرة المساحة لم يتردّد. بدأ عاملاً يساعد المسّاح فيما يحتاج اليه. ولكنه شرع يدرس وحده، كما اتّخذ له معلماً للغة الإنكليزية، واستطاع أن يصبح مسّاحاً، واطّرد تقدّمه حتى أصبح مدير مخيّم، ثم معلّماً في مدرسة المساحة التي أقيمت في جِنين في أواسط الأربعينيّات. كان حازماً على نفسه أيضاً،

مستنداً إلى ثقة بالنفس وشعور بالقوّة. وكثيراً ما كان يتّخذ من مسيرته مثلاً لأبنائه يشحذ طموحهم ويؤكّد على قدرة الإرادة على التحدّي والنجاح.

*

جَدّ يحيى لأبيه اسمه صالح. كان بيته في بستان كبير في أرض اسمها «البصّه» ملكها الجدّ وأخوه، فيها نبع فيّاض أقاموا له بركة عليها شادوف ـ أو كما يسمّى هنا شلاف ـ أحبّ يحيى أن يشدّ طرفه الذي عُلّق به دلو يدليه في الماء ويرتفع طرفه الآخر في الهواء وفي مؤخرته حجر كبير يعين ثقله على رفع الدلو الممتلئ، ثم يصبّ ماء الدلو في قنوات تتفرّع بين الأشجار كالشرايين، فيرتوي الجوز والتين والخضار المزروعة بينها. الأشجار وارفة، خاصة التينة المحاذية للبركة التي كان أبو جميل وزوجته ينامان تحتها في الصيف. وأبو جميل فلاح ضمن ثمر البستان في بعض السنين وكان قصيراً هزيلاً ولكنه نشيط كأنما قدماه نابتتان في التراب. أما زوجته أم جميل فكانت ضخمة سمينة. حدّث أبو جميل أنه أفاق ذات ليلة وهما نائمان تحت التينة وإذا حيّة تنساب من فوق الشجرة وتهبط على صدر أم جميل.. ماذا يفعل؟ ارتعد وأخذ يقول بصوت مخنوق: «سيري يا مباركه»، ولم تتحرك أم جميل فظلّت الحية تسير حتى ابتعدت عنها. قال: «لو تحركت لبطشت بها الحية». ولم يطارد أبو جميل الحية بعد مغادرتها، فلماذا يؤذيها وهي لم تؤذه.

اقتطعت السلطة من البستان شارعاً يمتد بين الناصرة وطبريا. ففصل هذا الشارع بين البيت والبستان، وسيّج البستان بالعنّاب وشجرة من كل نوع في البستان ليأكل منها عابر السبيل. تلك السنّة استنّتها حلوه جدة يحيى. وكل من عرف حلوه كان يتحدث عنها بمحبّة وتقدير. كانت روح البستان تتعهد كل ما فيه برعاية متفانية. وكان الجد صالح يتعاطى التجارة، يسافر ليجلب الغنم حيناً لما كان لحّاماً، أو يحضر مختلف البضائع حين فتح دكّاناً. ولذلك أوكل البستان لنشاط حلوه، وإليها أوكل شأن الأولاد ـ أربعة أبناء وبنت.

وكانت حكيمة. حدّثوا كيف جاء إلى البيت ذات يوم بعض الضيوف من حوران، وكان صالح على سفر. سألوا عنه فقالت: تفضلوا سأبعث أستدعيه. نزلوا، أطعمت الخيل وأعدّت غداءً ودعت إلى الغداء أحد أقربائها. تغدّى معهم وقال لهم: «صالح خاطِر. يعود غداً، وأنتم ضيوفي هذه الليلة».

عندما عاد صالح في اليوم التالي نزلوا عنده وهم يشيدون بحنكة حلوه وحسن ضيافتها.

لكن صالح كان عصبيّ المزاج، وكان عنيفاً مع زوجته. عندما تقدّم والد يحيى يطلب يد ابنة خاله عارض بعض الأقرباء قائلين للخال: هل تريد أن تمرمر حياتها مثلما مرمر أبوه حياة أختك حلوه؟

توفيت حلوه أثناء الولادة ومعها جنينها، وتيتّم الأولاد. وقد ملأت الزوجة الثانية البيت بمزيد من الأطفال.

عند أخذ يحيى يتردّد على جدّه صالح كان بصر الجدّ قد ضعف وقعد في البيت.

أما البستان فقد أخذوا منه النبع وتمادوا في توسيع الشارع على حسابه فهدم البيت، وتغيّرت التضاريس، وقامت مقام الأشجار بنايات.

27. عن الصخر والعظم

الخامسة صباحاً. أفاقت العصافير. ديك كسول يعالج حنجرته بنداء متعثر، وقد سبقته ديوك كثيرة أنشطها ديك أم عزيز الأرملة التي كان صوت مِقشّتها البلان يعلو صاخباً وهي تنظف ساحة البيت بعد أن سرحت بقرتها صَبْحه مع العجّال.

تعوّد يحيى أن يفيق مبكّراً. في أحد دروس القراءة تعلم الحديث: «نَوْمَةُ الصُّبْحِ تورِث الفقر» فكان يردّده كلما أفاق يعزّي نفسه على انتزاعها من حضن الدفء. لا مجال للتمطّي والتلكّؤ فالطريق إلى الناصرة تنتظره، وصوت البريموس الهادر الذي أشعلته أم يحيى وهي تعدّ الزوّادة والفطور يَعِد بفنجان شاي ساخن.

صاح يحيى غاضباً. وجد أنّ بنطلونه غير مكويّ. رفع عمّه أسعد رأسه من تحت اللحاف: «إلى من توجّه صياحك؟ البنطلون غير مكويّ؟ ألله الله! كنا نمشي إلى المدرسة في الناصرة حفاةً تتقمّز فوق الحجارة ونلبس قنبازاً خلقاً. قال البنطلون غير مكوي قال!». تمتم يحيى: «تغيّر الزمان. دائماً ترجعون بنا إلى أيامكم!».

وأم يحيى تطمئن ابنها: «تعال أفطر وسوف أكوي البنطلون. أضع المكوى على البريموس وأكوي. لا تعكّر صباحك وصباحنا».

أخواه ما زالا في الفراش فهما يتعلّمان في مدرسة القرية ولا داعي للتبكير. أما الأصغر فما زال دون سن المدرسة ـ ولكنه قام يشرب الشاي.

نايف ينادي.

يسرع يحيى يحمل الشنطة بيمناه والسفرطاس بيسراه. يعرّجان على بيت موسى الذي كان واقفاً عند الباب ينتظر.

الطريق إلى الناصرة أسفلت يتعرّج ويلتفّ يسلكه من أنعم الله عليه وكانت عنده درّاجة، يمسك بمؤخرة سيارة شحن إذا سَنَحَتْ يستعين بها على صعود التلة. أما التلاميذ العاديون فـ«يقاطعون» ـ أي يسلكون الطريق الوعريّة الأقصر. هناك سفح تلّة شديد الانحدار يهبطون فيه راكضين إلى أسفل الوادي ليستجمعوا تسارعاً لصعود السفح المقابل.. ويتعثر حديثهم باللهاث الشديد. بعد حين تنبسط الطريق ويكون الحديث..

الطريق حافلة بالتلاميذ من مختلف الأجيال: منهم الكبار في الصفوف الثانوية، ومنهم الصغار الذين ما زالوا في الصف الخامس مثل يحيى. ومنهم من جاء من الرينة أو أبعد ـ من المشهد وكفر كنا، بل من طرعان.

الحديث يتناول شتى الشؤون، عن المعلمين والتلاميذ والقرية.. كل جيل مع جيله. لكنّ حديث الكبار ملوّن. يسير معهم يحيى وبعض أصدقائه أحياناً. وقد يتحرّج بعض الكبار من الصغار وهو يروي شيئاً، فيلتفت قائلاً: «يا عمّي امشوا مع جماعتكم».

جمال في الصف الثاني الثانوي. شديد الذكاء، يتأنّق في اختيار الكلمات ويقولها بصوت رقيق ينفرج في آخر الجملة برنّة من التهكم والخبث في كثير من الأحيان. يروي نكات مبطّنة، أو تحتاج إلى شيء من التأمّل.

قال: «دخل معلّم الجغرافيا إلى الصفّ وهو يحمل مجسّم الكرة الأرضية، وسأل التلاميذ: «من يحمل الأرض؟»».

أجابوا: «الثور، يا أستاذ».

يعقوب أنهى صعود التلة على دراجته وانضم إلى الكبار، وهو منهم، رياضيّ عَفِيّ، لا يعنيه الكتاب كثيراً، بعد قليل تنساب الطريق ثم يكون الهبوط القوي عند الخانوق فينقضّ على الطريق وكأنه على جناح الريح.

راشد يلمّح عن دخل يعقوب الجديد: قال ـ تعرّف إلى راهب أجنبي يعطيه بعد كل لقاء شلناً وعلبة لحم «بولبيف» وقنينة نبيذ.

علّق جمال: «يسعى البعض إلى رزقهم على أرجلهم، أما البعض فرزقهم بين الأرجل.

وأنت يا راشد في حديثك رائحة الغيرة. ألله معك».

توفيق يحكي كيف تصدّى للأستاذ نعمه حينما روى أنه كان يعلّم في بلدة في لبنان أثناء الحرب العالمية الأولى. كانت المجاعة كاسحة والناس تموت يومياً بالعشرات. قال المعلم: «كنت يوماً في أحد الصفوف وإذا بجنازة تمرّ، ثم تلتها جنازة وأخرى.. ثم أخرى حتى عددت ٤٥ جنازة حتى الظهر». رفع توفيق يده بأدب وسأل:

- «من أين جاؤوا بالخوارنة ليجنّزوا كل هؤلاء، يا أستاذ؟».

ويروي بديع كيف كان المعلم نعمه يسخّر أحد تلاميذه ليشتري له حاجات البيت من السوق، فيتعطل عن الدروس ويخدم. عائلة الأستاذ كبيرة: سبع بنات وابن واحد. ومع الوالدين عشرة أنفار. الحمل ثقيل. يسجّل ما تطلبه الأم. يذهب إلى الدكاكين، يعطونه الحاجات ويسجّلون الحساب في الدفتر.

بعد زمن تذمّر ذلك التلميذ أمام أحد أصدقائه. قال له الصديق: «خلاصك هيّن. غداً إقلب الكميات بين الحاجات». في اليوم التالي طلبت إليه زوجة المعلم أن يشتري ثلاثة أرطال من الكوسا ونصف رطل من اللحم، فاشترى ثلاثة أرطال من اللحم ونصف رطل من الكوسا. جُنّ جنون زوجة المعلم، شتمت غباءه وأرادات أن تعيده إلى السوق. لكنّه كان قد هرب وهو يصيح: هذا ما طلبته أنت، سلامة عقلك. عندما عاد الأستاذ نعمه إلى البيت في الظهر لم يجد غداءً ينتظره. «دبّر حالك يا معلّم الهُبُل».

القبيلة تصل إلى الخانوق وتبدأ الهبوط. قال سامي: «سمعتم ما حدث هنا؟ طاف بهذا الحيّ رجل يحمل على حماره لحماً في صندوق يبيعه بسعر رخيص جداً. اشترى الناس كل اللحم ومنهم من عمل منه الكبّة النيّة. ولكن انكشف بعد يوم أن ذلك كان لحم حمار نفق فطاف الرجل يبيعه ليتعوّض. وشاع بين الناس التندّر على أهل الحيّ كيف أخذ النهيق يغزو الحناجر».

قال جمال: «ومن قال إن لحم الحمار غير صالح للأكل؟ في بعض دول أوروبا يطوفون بالأتان على البيوت يحلبونها أمام الزبائن. فإذا كان حليب الحمير صالحاً فلماذا لا يصلح لحمها؟ وفي بعض تلك الدول يُعتبَر لحم الحصان من الطعام المفتخَر الغالي. وما رأيكم في الضفادع التي تُعتبَر من المآكل الشهيّة؟».

قال فالح: «ولماذا تبعد؟ أنا أكلت لحم القنفذ».

يحيى أيضاً أكل لحم القنفذ. يضعون القنفذ في الماء ليتغلبوا على الشوك ثم يذبحونه ويسلخونه ويؤكل مشوياً أو مطبوخاً. لم يكرّر تلك التجربة.

قال موسى: «قالو إنهم يأكلون لحم الضبع».

قال رافع: «الفخذ اليمنى فقط».

- لماذا؟

- هكذا قيل.

قال جمال: «كله بروتيين. الإنسان مفترس والجوع كافر. في شرق آسيا يأكلون الحيّات والكلاب والقرود. والمغول الذين جاء منهم هولاكو ودمّر بغداد يشربون حليب الخيل. لكل امرئٍ من دهره ما تعوّدا».

مرّوا ببناية المدرسة الابتدائية قرب عين العذراء. الصفوف فيها حتى الرابع فقط. يتابعون السير إلى المدرسة «التحتا»، الثانوية - قرب محطة الباصات، في شارع الكاراج.

نايف ينظر إلى شرفة أحد البيوت. يحضن شنطته تحت إبطه ويركض صائحاً: «طلعَت الشّمسْ.. طلعَتْ»، ويظل يركض. الأنظار كلها تتّجه إلى فوق. على الشرفة المعلمة سناء وقفت سافرة تواجه الشمس. يعرف الناس وجهها الجميل عبر نقابها النيليّ الشفّاف. للنقاب ستاران إذا أسدلت أحدهما كانت الملامح بيّنة مؤطّرة، وإذا أسدلت الثاني صعب استطلاع الوجه وتعب النظر. لكن في هذه الساعة الشمسان طالعتان ولا تحاول أي منهما أن تتقنّع.

ظلّ الزملاء يتندّرون على هذه الحيوية التي تدفقت في نايف لهذا المشهد، ويسألونه عن موعد طلوع الشمس، وعندما يرون تلك المعلمة وعلى وجهها حجابها النيلي الشفاف يقولون له: «مغيّمه» فيقول: «ونعم الغيم الأزرق».

يُقرع الجرس. يصطف الجميع في السّاحة. المربّون يمرّون بين الصفوف يفحصون الرؤوس التي يجب أن تكون حليقة، ويتأكدون أن الأحذية لامعة نظيفة، وكيف تضمن لمعانها ونظافتها بعد هذه الرحلة الطويلة؟ المربّي قروي مثلنا، يفهمنا.

مسعود البوّاب يفتح علبة السعوط يتناول بأطراف أصابعه وجبة صغيرة لمنخريه، يعطس مرتاحاً. قال عبّاس ليحيى قبل أيام: «تعرف اني أحسد العمّ مسعود؟ لا درس ولا سهر. يقوم بخدمات قصيرة، يملأ المحابر في الصفوف، يكنس ويرتب. له شريك في تنظيف الساحة. لا همّ دنيا ولا عذاب آخره». قال يحيى: «لو سألت العم مسعود لسمعته يحسدك. جدّي زايد

يقول: يا ابني، كل واحد همّه على قدّه».

الأستاذ سعيد، معلّم الجغرافية والتاريخ، وأحياناً الرياضة، والمسؤول عن الكشّافة في المدرسة، أشقر البشرة وبقايا الشعر، رشيق رياضيّ. يدخل الصف مرحاً يخطو خطوات دراميّة بهلوانية ليبعث المرح في التلاميذ الذين يقفون احتراماً. يلقي تحية الصباح وهو يلوك شيئاً يعرف الجميع أنه حبّات هال. بأطراف أصابعه يخرج منديله من الجيب العلويّ لجاكيته، يمسح فمه بأناقة تمثيلية ثم ينفض المنديل في الهواء ويعيده، جامعاً أطرافه، إلى مكانه. يتناول طبشورة يقسمها ويكتب على اللوح:

- «ما هو الهُعْخُع؟».
- «ما هو العِظْلِم؟».

لا يرفع أحد يده. يلفظ المعلم الهعخع بتقعُّر ساخر وكأنه على وشك أن يقيء. يتوجّه إلى أحد الطلاب:

- «داهية تِسمّك! كيف لا تعرف معنى الهعخع؟».

ثم يشرح بظرف وتهكّم:

- «الهعخع، أيها الجهَلة نبات صحراوي تأكله الجمال. أما العِظْلِم فهو «النّيلة»، تعرفون ما هي النيلة. تأملوا جمال الحروف وموسيقاها: هُعْخُع.. عِظْلِم.. هذا هو البيان».

وتتحوّل لهجته إلى جدٍّ صرف، فيشرح معنى الحضارة ويعلق:

- «إحياء الهعخع لا يحيينا. نريد لغة حديثة حيّة نشيطة تماشي الحضارة والعلم والتطوّر. العرب في أوج انتصاراتهم انفتحوا على العلوم وحضارات مختلف الشعوب. تفاعلوا وانطلقوا. ولم تجِد اللغة العربية حرجاً في التعريب». ثم يتوجّه إلى فريد:

- «هل تعرف معنى التعريب؟».
- «الترجمة إلى العربية».
- «لا يا أستاذ. عندما تأخذ كلمة أجنبيّة وتطوّعها للّفظ العربي - هذا هو التعريب. العرب لم يتحرّجوا أن يقولوا الأرثماطيقي والابريسم والأسطرلاب». كتب هذه الكلمات على اللوح، تأمل قليلاً ثم قال: «ولكن ما رأيكم في ذلك الهبنّقة الذي ترجم عن الإنجليزية كتاباً عن الحروب الصليبية فعرّب اسم صلاح الدين الأيوبي وجعله «سلادينوس». آه.. «ابن الرسحاء!». تعلمتم نقائض جرير والفرزدق؟ اسألوا أستاذكم عن معنى هذه الشتيمة».

شاع بين التلاميذ أن الأستاذ سعيد يعرف سبع لغات، سبعة ألسُن. الرقم سبعة له جلالة وتقديس. لكنّ الذي يكيّل القمح بالصاع يبدأ العدّ: «بَركه» (بدلاً من واحد)، «من كريم» (بدلاً من اثنين).. وعندما يصل إلى العدد سبعة يقول: «سَمْحَه».

- «لماذا يا جَدّي؟».
- «لأن السبعة مسبوعةٌ.
- «ولكن السماوات سبع».
- «لكن السنوات كانت منها سبعٌ عِجافا».

يعرف يحيى أن المعلم سعيد يعرف العربية والانكليزية والفرنسية والتركية. كان يتأبط الكتب دائماً، يطالع. وكان هو الذي ينظم الرحلات المدرسية. يقول: «إعرفوا البلاد بأرجلكم. إعرفوها لتحبّوها».

إحدى الرحلات كانت إلى مستوطنة «نهلال» اليهودية. الطلاب يمشون من الناصرة إلى يافة الناصرة.. ثم إلى المجيدل ويهبطون بعد ذلك إلى السهل ويتجهون إلى المستوطنة. يدخلون من بوابة حديدية. مدير المدرسة اليهودية يستقبلهم ويوكل معلماً يطوف بهم على الصفوف والمختبر. الأولاد والبنات يتعلمون معاً. المختبر حافل بالأجهزة. يزورون صفّاً يتعلم اللغة العربية. يتعرفون إلى المستوطنة. صِيرة كبيرة للبقر. دواجن، ماكنات زراعية. أكداس قش ذات شكل هندسي. رجال ونساء يلبسون ملابس العمل. يعملون بهدوء.
في اليوم التالي أثناء الدرس سأل المعلم سعيد عدة أسئلة عن الرحلة والارتسامات. قال: «يجب أن تعرفوا. المعرفة قوّة والجهل قتّال».

رحلة أخرى كانت إلى جنجار القريبة من المجيدل. مدير المدرسة يتكلم اللغة العربية، لم يكن مهاجراً من بلد عربي. هو أشكنازي تعلّم هذه اللغة وأتقنها. شرح لهم عن مبنى الكبوتس. بعد سنين، بعد ١٩٤٨ أصبح هذا الرجل مديراً للمعارف العربية في إسرائيل.

رحلة أخرى كانت إلى حوض بحيرة طبريا وفي إطارها زاروا «دجانيا». مختبر علوم الأحياء هناك مدهش.

بعد كل زيارة من هذه الزيارات كان يتّسع النقاش. هذا مجتمع منظّم تنظيماً دقيقاً. حاملو الشهادات العالية يلبسون الخاكي ويعملون في الأرض، يربّون البقر والدجاج ولا يأنفون

من أي عمل. نجهل الكثير عنهم. هم يعرفون عنا ولا نسعى للمعرفة عنهم. مدارسهم مستقلة يعلّمون فيها ما يريدون. الإنكليز يدعمونهم. هم الذين وعدوهم بوطن قومي على حسابنا. عائلة سُرسُق اللبنانية باعت الكثير من مرج ابن عامر. عائلات إقطاعية أخرى باعت وتبيع. هناك سماسرة يشترون الأرض من إخوانهم العرب ثم يبيعونها لليهود. هؤلاء السماسرة اعتُبروا خائنين، وقد قُتل بعضهم. اليهود الذين عاشوا في طبريا وصفد والقدس اسمهم: يهود عرب، كما نقول: مسلمون عرب ومسيحيون عرب. دينهم اليهودية ولكنهم جزء من القومية العربية. جاءت الصهيونية بمفاهيم جديدة، بمطمح جديد.

وادي الحوارث.. فلاحون عرب يُطردون من أرضهم لتُقام عليها مستوطنات. كان الفلاح العربي يعيش على الأرض يخدم الإقطاعي السيد، فإذا تغير السيد عاش هذا الفلاح تحت لواء المالك الجديد. ألم يقل المثل العامي: «اللي بوخذ امّي هو عمّي»؟ لكن هذا المالك الجديد لا يريد للفلاح العربي أن يبقى على الأرض، كل العلاقات تتغيّر.

المعلم سعيد قال الكثير ولكنه اعتصر رسالته في قوله: «إعرفوا...! المعرفة قوّة».

أحبّ الأستاذ سعيد بنت العنب. أمام المدرسة بار كان يزوره أثناء النهار كلما تيسّر، ويمحو الرائحة بمضغ حب الهال. هل كان ذلك سبب مرحه الدائم؟ أحياناً يحزم بنطلونه بربطة عنق قديمة. وحين يغسل يديه أمام حنفيات الساحة ينشفهما بتمريرهما على شعره.

زوجته الثانية من عائلة معروفة. له من الزوجة الأولى ولد، ومن الثانية ولد وبنت. كانت العلاقة تتوتر أحياناً بين الأستاذ وزوجته. كانت تستنكر تعلّقه الشديد بالكأس. في إحدى الأزمات قضى بضعة أيام بعيداً عن البيت. وذات يوم استدعى نصر الله، وهو قائد رهط كشفي، وبعث معه هدية - زوج كلسات نايلون - إلى زوجته. عاد نصر الله أثناء الدرس وهو يحمل الهدية. سأله الأستاذ: «ماذا حدث؟».

قال نصر الله: «قالت لي يلعن أبوك وابو معلّمك.. انصرف». وأحرِج المعلم وأحرِج الصفّ.

عندما تخرّج يحيى من الكلية بعد سنين أصبح زميلاً للأستاذ سعيد، وقد توثّقت الصداقة بينهما. كان الأستاذ سعيد يدخل غرفة المعلمين في الصباح في حركة أشبه بالرقص وهو يقول: «نشيد الصباح اليوم: ضمّيني بحضينك ضَمّ». ويتغيّر هذا النشيد في الأيام

الأخرى حسب المزاج متأثراً بما التقطت أذناه من الحان في ذلك الحين.

الأستاذ جورج معلم الحساب في الصف السادس يبادر كمربي صفّ إلى أمر جديد. أحضر معه كتاب «أسرار المراهقة بالفتى» للدكتور شخاشيري، شرح بعض فصوله ونصح الطلاب باقتناء الكتاب، اقتناه يحيى وعدد من الطلاب.

عادل - الطالب في الصف السابع - يعرض على الطلاب كرّاسات وصلته من إيطاليا. تروّج بالعربية للدوتشي - موسوليني وللنظام الفاشي. وصلت من «إذاعة باري» وهي تذيع بالعربية. كل من يريد شيئاً من تلك الكراسات يمكنه أن يكتب لتلك الإذاعة، فتصله كل النشرات فيما بعد.

بشير يعرض صورته على بعض الطلاب.. إنه يقود طيارة محلّقة في الفضاء وتحته بنايات وأشجار. الطيارة أكبر بكثير من البنايات. تأمّلْ قليلاً في الوجه. نعم إنه وجه بشير. بعد أيام عرفوا سرّ الصورة. أمام المدرسة جاء مصوّر يُدخل رأسه تحت ستار أسود ويده تمسك بالكاميرا. على الجدار لوحة رُسمت عليها طيارة وتُركت فتحة عند المقود، يقف عندها الراغب في الصورة فيبدو وكأنه طيار يحرك المقود. الصورة بدائية والفكرة لم ترق ليحيى. التصوير شمسي، يحمّض المصوّر الصورة. يلصقها مبتلّة على لوحة يعرضها للشمس. وحينما تجفّ يقصّ أطرافها لتستقيم، ويتقاضى قرشاً حلالاً زلالاً.

الأستاذ جمال زميل الطريق والذي درس بضع سنوات في القدس يعود ليعلم اللغة الانكليزية، لكنه نشيط في إقامة ندوة الطلاب «الجمعية الخطابية». يلتقي الطلاب مرة كل أسبوعين، يقرأ بعضهم ما كتبوا ثم يجري نقاش حول ذلك. تجربة ممتعة ومحفّزة. أعلن الأستاذ عن مباراة في كتابة القصة. كتب يحيى قصة بطلها شاب عابث يبيع أرضه ليحصل على منافع آنيّة ويمعن في مطاردة أهوائه.

من المعلمين من جاء من صفد ونابلس وكفر ياسيف عدا القادمين من الناصرة وقضائها. طلع بعضهم بمبادرة جديدة - مكاتب الصفوف. ميزانية المكتبة المدرسية العامة كانت ضئيلة، فقام مربي كل صفّ بجمع اشتراك شهريّ من كل تلميذ في الصفّ. قرش شهرياً، واقتنى كتباً لمكتبة الصف. في نهاية السنة كانت مكاتب الصفوف تحوّل إلى المكتبة العامة. فرح يحيى بهذه المبادرة، وقد جاءت بكثير من الكتب الحديثة.

عامر في الفرع المهني. الطلاب الذين لا ينجحون في كل المواضيع يُلحَقون بالفرع المهني، يتعلمون مع بقية الطلاب العربية والانكليزية والحساب، ويقضون بقية الوقت في المنجرة. شهادات الطلاب تشير إلى تدريجهم في الصف حسب معدل المواضيع كلها. عامر يحمل شهادته إلى البيت بشيء من الزهو. يسأله أبوه: «ما هي نتيجتك يا عامر؟».

- «الثاني.. الثاني يابا».
- «أحسنت يا عامر، أحسنت».

عندما نظر والد عامر في الشهادة وجد أن عدد الطلاب في الفرع المهني في ذلك الصف اثنان فقط.

يذكر يحيى كيف خسر غداءً دسماً، زغاليل وملحقاتها. جاءت شهادة الفصل الثاني بالبريد، وجاء بالبريد ابن المختار. كانت العائلة على مائدة الغداء، وقد شرعوا في الأكل. تناول الأب الرسالة، قرأ شهادة يحيى، نظر إليه معاتباً: الثالث من ٣٤، لماذا؟ منذ متى؟.. ومضى يوبخه. قام يحيى عن المائدة وقد أفلت الدمع من عينيه، وظلت حسرة الزغاليل ممزوجة بالقهر. علامة واحدة تغيّر النتيجة. أيّ مقياس هذا؟

المعلم فؤاد تخرج هذه السنة من الكلّية. يتعامل مع الطلاب كصديق. يعود مع تلاميذ القرى مشياً إلى كفر كنا، الكلّ يتجمّعون حوله يصغون إليه باهتمام شديد. يسابق في المشي ويسأل كل طالب عن أخباره، عن عائلته وعما يواجه من صعوبات. يحاول أن يساعد. في أيام الامتحانات يلبس حذاءً مطاطياً لا يُسمع وطؤه. ألقى القبض على بولس وهو «ينقل». كتب بولس بعض الملاحظات على ورقة مقوّاة ربطها بخيط مطاطي وربط الطرف الآخر حول كتفه. كان يسحب الورقة من كمّه ينظر فيها فإذا خشي المفاجأة أفلت الورقة ليسحبها المطاط. شكّ الأستاذ فؤاد في حركته، ظلّ يراقبه، وتظاهر بالالتفات إلى موقع آخر. وثابر حتى أمسكه متلبّساً. قال مروان: «لعل كثيراً من جهد الإبداع يُصرف في كيفيّة الغش في الامتحان. لماذا لا يُعطى صاحب أبرع طريقة جائزة على إبداعه؟ أما المقلّدون والتقليديون في هذا المضمار فيجب أن يُعاقَبوا على كسلهم المضاعف».

الأستاذ رشدي يعلّم اللغة العربية. هو أيضاً حديث التخرج من الكلية في القدس. يأتي بقصائد حديثة لابراهيم طوقان وبشاره الخوري وآخرين. بعد قراءة القصيدة وشرحها على الطلاب أن يحفظوها غيباً للمرة القادمة. ذات ليلة حفظ يحيى «سينيّة البحتري» في وصف

إيوان كسرى. حوالي خسمين بيتاً. تتجسّد أمامه تلك اللوحة الجدارية الملوّنة لمعركة أنطاكية:

فإذا ما رأيت صورة انطاكيّة ارتعت بين روم وَفُرْسِ
والمنايا مواثلٌ وأنو شروان يزجي الصّفوف تحت الدّرَفْسِ
تصف العين انهم جدّ أحياء لهم بينهم إشارةُ خُرْسِ
يغتلي فيهم ارتيابي حتى تتقرّاهم يدايَ بلمسِ

بارعٌ هذا الشك في أن ما يراه ليس صورة بل هو حياة مجسّدة فيمدّ يده إلى اللوحة ليتأكد من الحقيقة.

يقول الأستاذ: «البحتري رسّام بارع، ولكنّه يؤكد كذلك انتماءه العربي ويحسن تفسير إشادته بكسرى وبذلك الأثر الفارسي، إنه يذكر كيف أعان الفُرس سيف بن ذي يزن العربي ضد هجوم الأحباش، ولذلك لا ينسى جميلهم:

ذاك عندي وليست الدار داري باقتراب منهم ولا الجنس جنسي
غير نُعْمَى لأهلها عند أهلي غرسوا من ذكائها خير غرسِ
أيّدوا مَلْكنا وشدّوا قواه بِكُماةٍ تحت السنَوَّرِ حُمْسِ

ويفيض الأستاذ في الحديث عن الشعوبية والقومية والرؤية الأممية.

في الصف الأول الثانوي تعلموا الانكليزية في كتاب «بريطانيا وجاراتها»، والشعر الانكليزي في كتاب «الذخيرة الذهبية»، أما شكسبير فتعلّموا منه رواية «يوليوس قيصر»، وتعلموا في الصف الثاني الثانوي رواية «تاجر البندقية».

قال الأستاذ تركي وهو يعلم «بريطانيا وجاراتها»: «لعلّكم تعرفون عن بريطانيا وهنري الثامن أكثر مما تعرفون عن هارون الرشيد والمعتصم. حاولوا أن تتعرفوا إلى تاريخكم». أستاذ اللغة العربية يعلم القراءة في كتاب «الفخري» للطقطقي، وهو يتناول تاريخ العرب من وجهة نظر شيعيّة معادية للأمويين. يحضر نصّاً من مؤلّف آخر معارض، وتكون مناقشة كيفية كتابة التاريخ. وهل هناك موضوعية مطلقة؟

على رصيف الشارع قريباً من المدرسة «بَسْطة» كتب. البائع كهل يلبس قفطاناً وعلى رأسه لفّة ولحيته بدأ يعبث بها البياض. كثير من كتبه في مواضيع دينية، لكنّ فيها العديد

من كتب الملاحم الشعبية: تغريبة بني هلال، سيرة عنترة، الملك سيف. هذه الكتب مطبوع كل منها في ملازم عديدة مستقلة على ورق أصفر. يُقبل يحيى على هذه الكتب، يحلّق مع الخيال الشعبي. عنترة ـ هذا البطل يختلف عن أبطال الملاحم الإغريقية. هناك الأبطال ملوك أو أمراء من علية القوم، وهنا البطل عبد يكافح ليحظى بحريّته وحبيبته. ويحار يحيى في النهاية. عبر كفاح متواصل ضد المكائد ينتصر عنترة ويحظى بعبلة، وينتصر للمظلومين، ولكنه يُقتل بسهم الانتقام المتمرّس. إلا أن هذه النهاية التراجيدية ليست خاتمة الملحمة..

كان حسين الابراهيم معجَباً أشد العجب بكتاب «ألف ليلة وليلة»، ويطيب لأصدقائه أن يسمعوا منه تلك الحكايات في طريق العودة من المدرسة إلى القرية، ففيها ما يمتع ويسلّي، وحسين بارع في روايتها يسترسل في بعض المشاهد ويؤكد على بعض الأحداث مثلما يفعل المخرج البارع. لكنّه يروّج لظاهر المعنى بل يؤكد كَيْد النساء، ويحيى يخالفه الرأي: شهريار يتزوّج العديد من النساء ولا يعتبر ذلك خيانة منه لأية زوجة.. لماذا؟

ما هو سرّ انتصار شهرزاد؟ هل هو مجرّد براعتها في رواية الحكايات ورغبة شهريار أن يسمع بقية الحكاية منها؟ أم أن شهريار الذي لم يعرف الحب ـ وتوهّم أن الجنس فحسب هو الصلة، وجد عند شهرزاد بُعداً آخر هو المشاركة الوجدانية؟ ظلت هذه الأفكار تلاحق يحيى وتتشكل بمزيد من الوضوح مع الزمن لتأخذ فيما بعد صياغة ورؤية خاصة.

28. جند الله

كانت أم عفيف تدخّن سيجارتها بعصبية. سواكير علب، فليس لها طول روح لتلفّ كما يفعل أكثر الرجال في القرية. علبة السجاير لا تفارق زنّارها منذ مقتل زوجها وابنها وقريبين آخرين. قالوا: حكمت الثورة عليهم بالإعدام. وأم عفيف ستضع رجلها في خرابة الخمسين بعد زمن يسير، وقد اكتسبت خبرة وحنكة منذ اختفى زوجها وابنها. ذهبت لمقابلة الكثيرين ممن توسّمت فيهم إمكانية العون، تحدثت مع رجال اللجنة القومية، ومع آخرين ممّن لهم صلة بالثورة. قيل لها إن الثورة اعتقلتهم في آبار منفردة وهي تحقّق معهم. التهمة..؟ لم يقولوا لها ما هي التهمة. عندما بلغها نبأ إعدامهم، وأن جثثهم موجودة في مكان معيّن جُنّ جنونها. وقرّرت أن تنتقم.

قالت أم يحيى وهي تنشّف يديها بطرف مريولها: ألله يكون بعوننا، ألله يفرجها علينا، وقامت تجهّز القنديل بالكاز وتضيئه. تمتمت أم عفيف: «أولاد الحرام مصيرهم يقعوا. يا ظالم إلك يوم!» وقطع السعال كلماتها فركضت أم يحيى وأحضرت لها كوباً من الماء لكنها لم تشرب وقالت مشيرة إلى السيجارة: «هذا الخاير قطع نفسي».

كان يحيى يعدّ دروسه، ينظر في برنامج دروس الغد ويراجعها درساً درساً، يحلّ الفروض ويراجع ما تعلموا في الدرس الماضي، وحين ينتهي إعداد الموضوع يضع الكتاب والدفاتر في المحفظة لتكون جاهزة حين يأخذها في الصباح. ولكنه أتاح لنفسه فسحة من الدرس ووجّه إلى أم عفيف أسئلة عن زوجها وأبنائها، وفيمن تشكّ..

أجابته ثم علّقت: «ألله يتمّ عليك يا ابني. هاي البلاد بتحرق اولادها. بتحمّلهم الهموم من يوم ما بخلقوا. ألله يحميكو يا بنيّي».

وعاد والد يحيى من زيارة ومعه بعض الأصدقاء. جاءوا ليسمعوا الأخبار من الراديو، فهو الجهاز الوحيد في القرية غير الجهاز الذي وضعته الحكومة عند المختار.

الأخبار والأحاديث في السهرة أفق مختنق بالدخان. بيوت بل أحياء بكاملها تُنسَف. ذكّرهم يحيى أن «دار عثمان» البناية التي نقلت إليها مدرسته في الناصرة عندما احتلها الجيش البريطاني نسفها الإنجليز وصارت جبلاً من الحجارة تكدّست فيه أعمدة الرخام والأبواب الخضراء والقرميد..

تحدثوا عن مشروع مقترح لتقسيم البلاد بين العرب واليهود. الوالد المسّاح الذي عرف البلاد كلّها برجليه أو على ظهر فرسه يتحدث بالتفصيل عن الحدود المقترحة ويعجب من منطق الإقتراح.

الثورة التي انطلقت عام ١٩٣٦ تدخل عامها الثالث ولا تبدو في الأفق أيّة بارقة أمل.

انضمّ إلى الهيئة التدريسية في مدرسة يحيى عدد من المعلمين الشباب وهم يشعّون حماسة وطنية في نفوس الطلاب، بينما يتحرّج عدد من المعلمين القدماء من حديث هؤلاء الصريح عن الثورة وتاريخ العرب وعن المستقبل وضرورة المشاركة في النشاط الوطني. هؤلاء المعلمون نفتهم الحكومة بعد حين من الناصرة إلى الخليل والقدس وغيرها.

يتعلم الطلاب قصيدة بشارة الخوري «جهاد فلسطين»:

يا جهاداً صفّق القلب له — لبس الغار عليه الأرجوانا
يا فلسطين التي كدنا لما — كابدته من أسى ننسى أسانا

وهي طويلة يحفظها الطلاب ويسمّعونها. ويحفظون شعر إبراهيم طوقان: «كفكف دموعك ليس ينفعك البكاء ولا العويل». طبعاً ليس من ذلك شيء في المنهاج المقرّر.

والطلاب تمرّسوا في المشاركة في المظاهرات. في المدرسة طلاب كبار يوجّهون الدفّة. عندما نقلت المدرسة من مبناها ليقيم فيها الجيش قامت مجموعة من الطلاب بإحراق المختبر في المبنى المحتل. وقد احتمل هؤلاء الطلاب من التنكيل والتعذيب في المعتقل ما أصبح

حديث الجميع يروونه بمزيج من الألم والاعتزاز بالصّمود.

في أيلول ١٩٣٧ اغتال الثوار المستر أندروز البريطاني حاكم لواء الجليل. جُنّ جنون الإنجليز. البطش العشوائي لم يوفّر أحداً أو شيئاً. اعتقالات جماهيرية وحكايات جارحة عن التعذيب الرهيب.

لكن الناس يتحدثون منذ زمن بقلق عن أعمال الانتقام التي يقوم بها البعض باسم الثورة. أناس يُستَدعَون بإشارة إصبع فيُساقون إلى اعتقال عند «الأمّة» في آبار في الوعر، ثم يقدّمون إلى محاكمات ميدان بتهمة الخيانة وينهي الرصاص مشروع حياتهم. وتُساق الأسماء والشهادات بالبراءة، والشك في أن ما حدث كان وشاية انتقام.. ولكن عدد الضحايا من هؤلاء يرتفع، والذعر ينتشر، وشيء كثير من المرارة وخيبة الأمل يسري في النفوس. بعض الناس يتحدث عن أصابع الإنكليز التي توجّه هذه الأمور من وراء ستار للقضاء على الثورة.

في ذلك الصباح من آذار ١٩٣٩ كان يحيى ومحسن في فسحة ما بعد الدرس الثاني يقفان قرب عربة بائع الهريسة في ساحة المدرسة ينتظران دورهما للحظوة بالقطعة الحلوة الشقراء التي تغمز بنصف حبة الفتسق المستلقية عليها. والحديث يدور عن كتاب في «العَروض» يقول محسن إنه عنده فقد تعلّم فيه أخوه الكبير الذي يدرس في القدس. اهتمّ يحيى جداً بهذا الكتاب، فهو ينظّم الشعر وكم يودّ لو يزيد معرفته بأسرار «المهنة».

أقبل عرفان – أحد طلاب الصف الثانوي الثاني – على زبائن الهريسة ومن حولهم وقال: «سمعتم الخبر؟ اعترفوا باستقلال فلسطين. كلنا الآن خارجون في مظاهرة احتفال. ننتظم في الساحة ونخرج معاً». وكان آخرون من الكبار قد انتشروا بين الطلاب، فإذا بالساحة تتحرك حركة عفوية وتنتظم الصفوف وتبدأ الهتافات وتتقدم المسيرة تخرج من ساحة المدرسة إلى الشارع.

أفراد الشرطة يملأون الشارع إلا أنهم يقفون بهدوء ولا يعترضون المسيرة ولا يحاولون أن يمنعوا أحداً. إنهم غير متوتّرين... وغير متهدّدين، بل إن تجمّعهم مسبقاً وبهذا الإنتظام أمر غير مألوف. العادة هي أن تهجم الشرطة على المتظاهرين وتلاحقهم، فيركض الطلاب إلى الأزقة الضيقة يمترسون وراء بعض الجدران ويشرعون في الردّ على الهجوم بالحجارة، فإذا أحسّوا أن الشرطة قد تمسكهم طاروا خفافاً يتقافزون كالجنادب فوق السطوح والجدران.

يذكر يحيى مناسبة أخرى كانت الشرطة فيها «ودّية». كان ذلك يوم خرج الطلاب إلى احتفال تأبيني لملك العراق غازي ابن الملك فيصل. فقد مات في حادث مأساوي، وانتشرت الإشاعة أن الإنكليز تسببوا في قتله، فكان الحزن عليه في العديد من مدن فلسطين، وقد أعدّ أستاذ اللغة العربية نعمه الصبّاغ قصيدة رثاء ألقاها في ذلك الحفل. وظلّ يحيى فيما بعد يحاول أن يتعرف إلى سبب ذلك الإعتبار لغازي، وما هو دوره؟

تحركت المظاهرة في الشارع الرئيسي.. «نحن جند الله شبّان البلاد - نكره الظلم ونأبى الإضطهاد». النشيد يتعالى، هناك هتّافون برعوا في هذا الدور، وهناك من يقف بين موقع وآخر على مفارق الشوارع فيلقي خطاباً تُسمع منه بعض الجمل، وتُرى الأوداج وقد انتفخت واليدان تشيران والعنق يتطاول. لم تكن الميكروفونات قد انتشرت حتى ابتُذلت كما هي الحال اليوم. الكلمات التي تتطاير هي عن الاستقلال، عن الضحايا والشهداء، عن الثورة، عن النصر.. ولكن - ما هو هذا الإستقلال وكيف يتحقق؟ لم يستطع يحيى وزملاؤه أن يعرفوا، إلا أن الحماس شديد والأناشيد الوطنية تتعالى. و«جند الله، شبان البلاد» سائرون بهمّة وعزيمة قوية، والخطباء يتغيرون عند المفارق حتى استوت المظاهرة على الساحة الواسعة فتتابع الخطباء.. في الجو طيور استقلال ترفرف، وفي القلوب فرح.

بعد حوالي ست سنوات، عندما كان يحيى يدرس في الكلية العربية في القدس أتيح له أن يستعيد تجربة المظاهرات والتمرّس بها، وما زالت أصداء «جند الله» تتجاوب في وجدانه.

ذات صباح وجد يحيى وزميلان له في الكلية نسخاً عديدة من منشور وُضعت أمام أحد الأبواب الداخلية لمبنى الكلية، ومع المنشور رسالة موجهة إلى طلاب «الكلية العربية» تعاتبهم على عدم مشاركتهم في النشاط الوطني، وتدعوهم إلى مظاهرة تشارك فيها كل المعاهد الدراسية العالية في المدينة في ساحة المسجد الأقصى ويتكلم فيها جمال الحسيني.

كان يحيى وزميلاه عرفاء يشرفون مع زملاء آخرين على النظام. تداولوا في أمر الرسالة والمنشور وقرّروا أن يشاركوا في المظاهرة، وذلك بأن يدعو كل واحد الصف الذي يشرف فيه على فترة الإستعداد الصباحية قبل الدروس للخروج والمشاركة في المظاهرة. عندما قرع الجرس لفترة الإستعداد انطلق كل واحد في موقعه يشرح ويدعو إلى المظاهرة. لم يكن الأمر يسيراً. فطلاب الكلية العربية اختيروا من كل أنحاء فلسطين، الأول في المدرسة الثانوية من كل بلد،

وهنا تكون المنافسة العنيفة للتفوّق على المتفوّقين، ثم الحصول على بعثة للدراسة في إنجلترا. لكن نجاح يحيى وزملائه كان مذهلاً. خلال أقل من ربع ساعة كانت الصفوف تخرج إلى الممرّ الدائري المغطّى بالحصى والمزروعة جوانبه بالحَصَلبان، ثم تتحرك على الأسفلت الذي يؤدي إلى خارج البوابة الرئيسية للكلية. كان النشيد: «نحن جند الله شبان البلاد» يدوّي، والصفوف تنتظم حين جاء فخري الخطيب المسؤول عن القسم الداخلي وأحمد سامح الخالدي مدير الكلية - فقد كان بيته محاذياً لمبنى الكلية.

وقف أحمد سامح الخالدي يقول بعصبية هادئة: «كل من يخطو خارج البوابة لن يُعاد». وعاد إلى مكتبه. وبقي فخري الخطيب يهدّد وينادي يحيى وزملاءه أن يعودوا. لكنّ هؤلاء في الطليعة يقتربون من البوابة يتحدّون بالنشيد والاندفاع. التفت منذر إلى خلف ولكز زميليه. كانت وجوه الطلاب تيمّم الناحية الأخرى عائدة إلى الصفوف ولم يبق للّه من جند سوى ثلاثة. ولم يكن بدّ لهؤلاء «الجند» من أن يعودوا هم أيضاً، وقد تعلّموا أن المظاهرة تحتاج إلى طليعة وإلى من يحرس المؤخّرة، إذن هذا هو معنى التعبير العامّي: «أنظر قفاك».لا بد من حماية المؤخّرة وتوجيهها.

لم تكن تجربة المشاركة في المظاهرات في شوارع الناصرة كافية لقيادة مظاهرة كهذه، فلا بد من حساب الخطوات المختلفة والاحتياط للطوارئ. حتى لو تابعت المظاهرة السير وخرجت من باب الكلية فالمسافة من جبل المكبّر إلى المسجد الأقصى طويلة بعيدة. ولم يجر أي تنسيق مع منظمي المظاهرة. هل هناك نقطة لقاء لطلاب الكليات المختلفة قبل التوجّه إلى الأقصى؟ على كل حال لم تعد عندئذ حاجة إلى هذه الأسئلة بعد أن تفرّق جند الله أيدي سبأ.

أما مظاهرة الاستقلال في الناصرة فظلّت عصافيرها تنقر في رأس يحيى أسئلة كثيرة - متى سيخرج الإنجليز؟ وماذا عن اليهود؟ كيف تمّ إعلان الاستقلال؟

يدور الحديث عن شيء اسمه «الكتاب الأبيض»، أصدرته بريطانيا وتتحدث فيه عن نيّة إنشاء دولة فلسطينية مستقلة ترتبط مع بريطانيا بمعاهدة، ويساهم العرب واليهود في هذه الدولة بحكومة ترعى مصالحهما.

من الذي دعا إلى تلك المظاهرة؟ ومن الذي ادّعى أن العرب أحرزت استقلالها؟ كيف تحركت الأمور حتى وصلت إلى تحريك الطلاب ليحركوا البلد كلها؟ من أعدّ الخطباء؟

كتاب أبيض؟ الألوان عنصرية. فالأبيض خيِّر محبوب والأسود مأساوي مكروه. يقولون: بيّضتَ وجهنا.. سوّد الله وجوههم. إنما الزنوج في أميركا يؤكدون: «الأسود جميل».

اشتدّ النقاش حول هذا الاستقلال، واختلف الناس في أمره. الفتى الفلسطيني تهاجمه السياسة ومتاهاتها في كل مكان. إنها تحرق طفولته بنارها وتعرّضه إلى محاورات حادّة تغتصب إدراكه.

هذا الكتاب الأبيض يتحدث عن نيّة.. أليست الأعمال بالنّيات؟

كانت مظاهرة الاستقلال تلك بمثابة إعلان انتهاء الثورة. بعد شهور نشبت الحرب العالمية الثانية، ودخلت بريطانيا الحرب بدون ذيول في هذه المنطقة وعملت على تهدئة الساحة لئلا يتحرك العرب ضدها كما تحركوا معها ضد الأتراك في الحرب العالمية الأولى.

هذا التعامل مع التسميات حيوان جريح يقبع في زاوية من وجدان يحيى. فكم يكفينا الاسم ولا نستقصي ما وراءه. ألا يقول المثل العامي: «ممزوع مملوع اسمه قميص، أعور اجقم اسمه عريس»؟

هناك تسميات يُراد أن تكون مؤشراً على حلم أو مطمح. وقد اجتهد علماء البلاغة فوجدوا لمثل تلك الحالات تسمية فقالوا إنها «على اعتبار ما سيكون». هذا ما خطر ليحيى عندما تأمل في تسمية اسم «جامع الاستقلال» في حيفا، ذلك الجامع الذي احتضن الشيخ عزّ الدين القسّام وكان منطلَقاً لدعوته قبل أن يستشهد في أحراش قرية يعبد. كان هذا الجامع يطل أيام الانتداب البريطاني على شارع اسمه «شارع الملوك»، ولكن اسم هذا الشارع تغيّر بعد سنة ١٩٤٨، بعد قيام الدولة اليهودية، فسمّوه بالعبرية «هعتصمأوت» – وتلتقي هذه اللفظة مع الجذر العربي: «عصم» و«العصامي» هو الذي يبني نفسه مستقلاً عن عون الآخرين، والمرأة التي عِصمتها بيدها تستطيع أن تتصرف بمصيرها، ومن هنا كان لقب «صاحبة العصمة». وهل نذكر الخليفة المعتصم وصرخة تلك المرأة في عمورية: «وامعتصماه»؟

تحوّل اسم ذلك الشارع إلى ما معناه: شارع الاستقلال على التحقيق، وظل اسم الجامع على التفاؤل.

وعلى بعد أمتار شمال شرق «جامع الاستقلال» كان «عمود فيصل» نصباً قائماً في وسط الشارع تلتف من حوله السيارات في ذهابها وإيابها، وقد جُعل على شكل عمود كُسر في أعلاه، إشارةً إلى أن الملك فيصل - الذي تعاون مع لورنس البريطاني في الحرب العالمية الأولى والذي لم يفسح له أن يحكم في سوريا وأصبح ملكاً على العراق - مات قبل أن يحقق مهمته. وقد أقيم العمود على قاعدة رخامية كتب عليها بخط الثلث الأسود الجميل قول فيصل: «الاستقلال يؤخذ ولا يعطى».

لعلّ هذا هو السبب في تسمية الجامع تفاؤلاً باستقلال يؤخذ. لكنّ عمود فيصل لم يظلّ يتصدّر الشارع، فقد رأى المسؤولون في الدولة الجديدة أنه يعرقل انسياب السيارات، فأزيح إلى جانب الشارع بحذاء سور كالح وقد غطته شجرة وارفة، ولا يتلفّت باحثاً عنه إلا الذين عرفوه يوماً قبل أن يُحال على الرصيف.

وإلى الغرب من «جامع الاستقلال» مقبرة تبعد عنه بضعة أمتار، نكّل بها الزمان، وشكا المدفونون فيها الغربة فلا يُدفن فيها أحد منذ سنين، إذ أقيمت مقبرة إسلامية في منطقة المقابر المجاورة للبحر في الغرب. وقد ساءت حال هذه المقبرة القديمة وأحوال القبور فيها فاستدعت النخوة الغيورين فقاموا بتنظيف المقبرة وترميم بوابتها ووضعوا فوق البوابة لافتة لامعة الألوان جميلة الحروف كتب عليها «مقبرة الاستقلال».

29. أخ رابع ليحيى

كانت تجربة عسيرة. أهي مجرّد تجربة؟

وُلد للعائلة طفل خامس، أخ رابع ليحيى. كان دمية للجميع. منذ الشهور الأولى كانت عيناه تلمعان بالذكاء، بنّيتان غامقتان تطلّ منهما غابات من الفرح والدهشة والاثتناس. وشعره الخروبي ينعقد خواتم تغري أن تمدّ أصابعك تتخلّلها وكثيراً ما مارس يحيى تلك اللعبة فقلّده إخوته.

كان جسم الطفل وافر البنية، ولعلّه أكبر مما يُؤلف في سنّه. وافر النشاط يتجاوب مع مداعبات الجميع بحيوية فوّارة. في الشهر التاسع من عمره كان أبوه يُجلسه على سرج «الزرقاء» يسلّمه اللجام وهو منتصب الظهر. يبعد الوالد يديه عنه قليلاً ويرعى جلسته والفرس تسير رويداً. حبا مبكّراً وملأ البيت بهجة.

حين يعود يحيى إلى البيت يسرع بالتخلّص من حقيبته ليحضن إميل ويرتاح بين يديه وعلى نغمة لثغه.

ذات يوم، والصغير في الشهر الحادي عشر من عمره، مالت عنقه كغصن مكسور، وفترت حيويّته ولكنّ ثغره لم يفارق شبح الابتسامة التي راحت تتهدّل. فجأة ودون سابق إشارة حدث ذلك. العينان البرّاقتان تخبوان والصوت المزقزق أنين خافت.

أسرع يحيى وأمّه يحملان الطفل إلى المستشفى في الناصرة. كان يحيى يضمّه إلى صدره لكن رأسه انحنى والرقبة مالت، ولم يعد يتجاوب إلا بنظرة باهتة مسايرة. لم يكتشفوا

سبباً. وبعد ساعات عاد يحيى وأمّه بالطفل ميتاً إلى البيت.

لا يستطيع أي بيان أن يصف الذهول واللوعة على هذا الاختطاف البرق. على يحيى أن يتصرّف. فالوالد بعيد ولا واسطة اتصال إلى قرى قضاء الخليل آنذاك. ولذلك لا بدّ من دعوة القسّ لترتيب الجنازة والدفن. الأمّ تكتم الحرقة ليتصبّر يحيى وإخوته، إلا أن أقنعة الصبر سرعان ما تتساقط. فالإخوة الصغار ينشجون ولا يصدّقون أن حبيبهم صامت وأن عينيه مغلقتان لن تنفتحا بعد، وأن جسمه بارد فقد الحراك.

كان وقع المأساة على الوالد فوق ما تصوّروا. لم يره الأولاد مرّة يبكي. لكنه عندما دخل البيت انفجر يشهق. كان يسأل: كيف وماذا وهو يختنق بالدمع. خمّن أحد الأطباء: كان قلب الطفل صغيراً لا يتناسب مع حجم جسمه فانهار. لكن الخالة قالت: «عين طرقته. كيف لا تصيبه عين وهو ثابت على ظهر الفرس ممسك باللجام. لو خرّجنا عنه ورقيناه كنّا منعنا العين».

ذهب الوالد لزيارة القبر وأخذ معه فأساً وشتائل من الزهر، زرعها حول القبر وسقاها، ورعاها فيما بعد. ذات يوم وكان عائداً من العمل في عزّ الهاجرة، مرّ بالقبر فتوقّف هناك، أقام أربعة أركان من الخشب ونصب فوقها عريشة تظلّل وتحمي من الحرّ. عندما رأى الجدّ ذلك عاتبه وقال له: ماذا دهاك؟ تصبّر ولا توسّع اللوعة والحرقة في العائلة.

هذا الفقد حفر عميقاً في نفس يحيى، وظل جرحاً ينكأ وينزّ كلما استُثير. لا ينسى اليوم الذي تعلم فيه قصيدة ابن الرومي في رثاء ولده الأوسط. لم يستطع أن يكبح دموعه وهو يقرأ:

لقد قلّ بين المهد واللحد لبثه	فلم ينس عهد المهد إذ ضُمَّ في اللحدِ
وظلّ على الأيدي تساقط نفسه	ويذوي كما يذوي القضيب من الرّندِ
فيا لك من نفس تساقط أنفساً	تساقط درّ من نظام بلا عقدِ

وظلّت تراجعه هذه الصورة، ويهاجم عينيه الدمع حينما أخذ يعلّم هذه القصيدة فيما بعد، سنة بعد سنة.

يكون الموت شبحاً مزعجاً حين يصيب البعيدين، حين تسمع أنه أصاب أحداً، وكم يصيب، أو تقرأ رثاءً وتسمع تفجّعاً. يظلّ الفقد على الصعيد النظريّ الذي يتعامل معه

العقل أولاً. ولكنه حين يدخل عتبة البيت يدمّر ويعصف بالقلب وكل أنسجة العواطف، ويرفض العقل أن يتعامل ويزلزل التوازن.. يأخذ العزيز ويعطي الفَقد.

عندما وُلد الطفل السادس في العائلة سمّوه باسم الأخ الفقيد، ليبقى الاسم وتبقى الذكرى. والعجيب الغريب أن تتكرّر هذه المأساة في طفل آخر، كان السابع في ترتيبه، سمّوه فاروق وكأنه نسخة عن الفقيد في الذكاء والجسم والبهجة.. بل في تفاصيل المأساة: ذات يوم وهو في الشهر الحادي عشر من عمره، مالت عنقه كغصن مكسور، وفترت حيويته، ولكن ثغره لم يفارقه شبح الابتسامة التي راحت تتهدل. فجأة ودون سابق إشارة حدث ذلك. العينان البرّاقتان تخبوان والصوت المزقزق أنين خافت. وعاد يحيى وأمّه من المستشفى في اليوم نفسه وهما يحملان الحرقة واللوعة ملفوفتين في لفاع افترس فيه الموت الفرخ الواعد.

وعاد التفسير وعادت حكاية العين.. وقال يحيى: إذا أصرّت خالتي على الإصابة بالعين.. فهي إصابة عيوننا بالتقرّح لفرط البكاء.

كيف يكون الانتقال من الوجود إلى العدم؟ وكيف يكون العدم وجوداً.. سلبياً سالباً؟

التعزية بالإيمان أن الموت انتقال، وأن ثمة إرادة ومشيئة لا ندركها تحرّك الكائن والكيان، تضبط الجذب والتنافر والازدهار والذبول، فلنروّض الأنفس على القبول.

قال جدّ يحيى عندما لاحقه بالأسئلة:

«يا سيدي، الوعا الزغير ما بِسَع الوعا الكبير. الطنجرة الكبيره ما بتفوت في الطنجرة الزغيره. عقلنا زغير قدّام العقل الكبير اللي خلق هالكون ورتّبه.. عقلنا ما بحوّق».

لكن يحيى ظل يلاحق الأمور بعقله. لم يتوقّف الإنسان في كل العصور عن المحاولات. لماذا يكون الاعتراف بالعجز سبيلَ الإيمان؟ الوعاء الصغير في ظاهره كبير جداً في طاقاته. الذرّة حينما عُرفت واعتُقلت كانت جبّارة. حكاية الوعاء الكبير والوعاء الصغير لها وجوه عديدة. حافز محاولة التعرّف إلى السرّ يوجّهه إلى قراءات في الفلسفة. وظلت طيور الأسئلة تحوّم حول رأسه ترفرف وتنقّر.

*

الضربة خارج العتبة هذه المرّة ولكن قريباً من الساحة.

كان نايف أكبر من يحيى. أعلى منه بصفٍّ واحد. وكان المتفوقَ في صفّه. وبيته لا يبعد

عن بيت يحيى إلا بضعة بيوت. ولكن المشي معاً يومياً إلى المدرسة من القرية إلى الناصرة، ذهاباً وإياباً، وتفرّع الحديث على الطريق إلى شتّى الشؤون والتنقّل من الجدّ إلى الهزل، من مناقشة لمواضيع الدروس إلى التندّر على سلوك بعض المعلمين إلى المباريات الشعرية والمباريات في الحداء.. كل ذلك عقد بين يحيى ونايف صلة صداقة قوية. الجميع يشهدون لنايف بالتفوّق وجديّة الدراسة. لا يمكن أن يهمل فرضاً ولا يُعجزه أي موضوع. وقد كسبت له دماثته الاحترام والودّ.

لكن وجه نايف القمحي فيه صفرة غامقة، وفي ظهره انحناء إلى أمام. قالوا: ذلك لانكبابه الشديد على الدراسة. وغمقت الهالات السوداء حول عينيه، قالوا: لكثرة السهر والقراءة. إلا أن صحته أخذت تسوء، ولم يسعفه العلاج الطبي، ولم يطل به ذلك العلاج ففاجأ موته الجميع وفجعهم.

كان نايف في الصف الثانوي الأول، والسنة الدراسية تميل إلى الانتهاء، ولكن منطق الموت لا يستقيم لنا. إنسان واعد، ذكيّ دمث، يعمّق حفر الأساس ليُعلي البناء، يكدّ ويحرم نفسه من الكثير ليهنأ في غدٍ.. فإذا بكل شيء ينهار.. وإذا غد تحت التراب.

الهيئة التدريسية والتلاميذ جميعهم شاركوا في الجنازة. كان يوماً حاراً فكسرت كثير من قناني العطر على الجثة في التابوت المسجى في الكنيسة، والزحام شديد، رؤوس الأولاد تتزاحم لترى وجه الزميل الذي فارقهم، وتطل على وجه الموت. رائحة البخور المنبعثة من المجامر تختلط بالأنفاس والعطر المتصاعد مع بداية فساد الجثة، وأصوات الجوقة والكاهن، ونحيب الوالدة.. والوالد الذي لم يستطع أن يكبت الدموع يوجّه العتاب إلى الفراغ أمامه ويسأل: لماذا؟ وهل ارتكب أيّ خطيئة أو ذنب فعوقب في ابنه؟ الأمّ تمسح وجهها الشاحب، وتخاطبه كأنه يسمع.. أي جواب يمكن أن يهدّئ لوعة الوالدين؟

التلاميذ يحملون أكاليل الزهور ويمشون في صف مرتب أمام النعش، والأقارب والزملاء والشباب جميعاً يتناوبون في حمل النعش على الأكفّ.

أعدّ يحيى كلمة ألقاها فوق القبر المفتوح، بعد أن نثر الكاهن التراب على النعش في الحفرة قائلاً: «من التراب وإلى التراب تعود».

كان يحيى يغالب الحشرجة في صوته الذي تخنقه الدموع. هذا الموقف رهيب محرج غريب: أن تقف أمام الحشود لتعرّي الحزن واللوعة.

يذكر يحيى من كلمته تلك بيت الشعر الذي اتخذه للتعزية:

والموت نقّادٌ على كفّه　　　جواهرٌ يختار منها الجيادْ

قالت الجدّة: «عندما أموت أريد أن تلقي كلمة على قبري».

لماذا يهتم الإنسان بالتكريم بعد موته؟ حتى وإن فني الجسد تظلّ الـ«أنا».. ويُراد تأكيدها فلا يكون إلا الزوال المادي. أم أن التكريم هو في الواقع للأحياء الباقين وللأقارب الذين يهمّهم عدد المشاركين في الجنازة والمعزين.

هذه الجدة تتعامل مع الموت تعاملاً واقعياً، فهو حقٌّ، وعادل لا يحابي أحداً ولا يفلت منه أحد. ولذلك فإن «الذّهبه» - ذلك الثوب الجديد الذي كرّسته لموتها حاضر في الخزانة تُزَفُّ به إلى ملاك الموت في أي حين يحين. المهم أن يكون منظرها لائقاً كريماً في رحلة الوداع، فلا يشمت شانئ ولا يُحرَج قريب.

وكان دعاؤها دائماً أن تموت وغبار الشارع على قدميها، فلا ترقى أو تعجز عن الحركة فتعاني ويعاني مَن حولها مِن عنائها. وترى أن الموت يتعامل مع فريسته أحياناً تعامُلَ القط مع الفأر، يقذفه ويلقفه ليستثير عذابُ الفريسة لعابَ المفترس. فكثيرون يعانون ويتعذّبون ولا يكون في وجودهم الشقيّ المريض العاجز إلا انتفاء للحياة وبلاء شديد.

ولكن دعاء الجدة لم يتحقّق، فقد وقعت مرة فانكسر عظم الحوض ولازمت الفراش إلى أن أعلن المخوّل انتهاء الرحلة.

قال أبو يوسف: للموت وجوه عديدة - عندما ماتت أمّ سليم العيّاش، وكانت فوق الثمانين، أخذ الإمام يلقّنها: «وإذا جاءك الملكان...» صاح به ابنها سليم: «قَوّ صوتك يا شيخ، الاختياره سمعها ثقيل». فانفجر الذين في الجنازة ضاحكين، نظر اليهم سليم نظرة استهجان، فلم تكن تلك إلا ملاحظة في محلّها ليضمن أن تسمع الأمّ ما يجب أن تقول للملكين فلا تعثر أو تخطئ!

وأضاف: لعلّك تعرف تلك الحكاية عن البدويّ الذي كان يسرق رزقه ممّا حصد الآخرون، ولا يبخل على الشيخ بحصّة من ذلك الخير المكسوب. عندما مات خشي الشيخ أن يفضحه هذا الرجل في الاستجواب لدى الملكين فقال في تلقينه: «إن جاءك ناكر ونكير لا تقرّ لا بقمح ولا بشعير»، فصاح ابن الفقيد: «قل لو يا شيخ ولا بالذّرة اللي سرقها من دبوريه».

ولكن يظل الموت هو الخنجر الذي يطعن بقسوة، وتظل الحياة تتناساه ليمضي موكبها، جيل يفني جيلاً، وأحياناً - كما يقول المثل - «كم شاة سبقت أمّها إلى المسلخ».

30. الطابغة

السيارة متّجهة نحو طبريا.

الطريق تعانق التاريخ. القرية الجارة ـ المشهد ـ هل هي حقًا مشهد يونس كما قال بعضهم، أم مشهد نبيّ أو وليّ سواه. هناك مدينة في إيران اسمها المشهد.. والمشهد أيضاً: اسم أطلِق على قريتين في سوريا.

كان يستثيره دائماً أن يطلّ على ماضي المكان. هذه الأرض حرثها وزرعها أجدادنا. أشجار الزيتون هذه غُرست قبل مئات السنين. تحتها جلس الفرّاطون، وارتفعت الأصوات في أيام الحصاد تغنّي وتنادي، ويردّد صداها السفح والوادي.

وتلوح قباب في كفر كنا، قانا الجليل. نعم قبل ألفي سنة كانت هنا أعراس، وكان المسيح، وكانت عجيبة تحويل الماء إلى خمر..

عندما تنظر عبر البُعد الزمني للمكان، تنشأ بينك وبينه علاقة حميمة. لكل شيء حكايته، وهذه الحكاية هي ما سمّاه البعض «البُعد الخامس» للأشياء. هذه العبّارة عند منعطف الشارع بين كفر كنا وطرعان ليست مجرّد فتحة تحت الشارع يجري فيها ماء الأمطار والسيول. هنا دارت معركة بين الثوار، قبل بضع سنوات، وبين قافلة من سيارات الجيش البريطاني. الكمين ربَط هناك، وهنا استشهد البعض..

عندما أطلّ «قرن حطّين» على الطريق، كان يحيى يسمع صدى الجيوش الزاحفة، صهيل

الخيل، وقعقعة السلاح، وصلاح الدين الأيوبي يُحكم القبضة على جيوش الفرنجة، ويفطن حتى إلى هبوب الريح واتجاه الدخان في وجوه العدوّ. هناك خلف السفح قرية حطّين، قبل قرون كانت المعركة الحاسمة. على هذا التراب كانت تحت هذه السماء.. وتجاوب في أذنيه صدى النشيد الذي تعلّمه في الرحلات المدرسية:

إنَّ دِمـــاءَ الجُــــدودِ مَمْزوجَـةٌ في ذا التُّـراب
إنّـا عـلى تِـلكَ العُـهـودِ فَلـنَمْشِ لا نَخْشى الصِّعاب

أطلّت السيارة من الشارع الملتفّ على كتف الجبل كالحبل الملتفّ على غارب الجمل، هابطة نحو مدينة طبريا وبحيرتها.

يا للرعشة!

دائماً تَسحره بحيرة طبريا.

المرتفعات المحيطة بالبحيرة تنظر في المرآة الواسعة إلى صورتها لتطمئن إلى زينتها.

في ذلك الصباح الصيفيّ اللاهث لم تستطع الشمس أن تقاوم إغراء الاستحمام في البحيرة لعلها تبترد قليلاً.

الشارع يلتف ويهبط، والبحيرة تتّسع وقد التفّت شواطئها بخضرة منعشة - إطار المرآة. كذلك رأى المتنبّي البحيرة وما حولها. نعم: «الماويّة» هي المرآة، و«المطوّقة» - هي المحاطة بإطار، وهذا الإطار من الجلد:

فهي كـماويّة مطـوّقة جُرِّد عنها غشاؤها الأدَمُ

عادت أبيات المتنبّي في وصف بحيرة طبريا إلى الذاكرة. هنا كان المتنبي. أقام عند بدر بن عمّار حيناً يمدحه. أين كانت الحادثة التي صرع فيها بدر بن عمّار الأسد بالسّوط؟

وردٌ إذا ورَدَ البحيرةَ شارباً ورَدَ الفُراتَ زئيرُهُ والنّيلا

وتلك اللوحة الرائعة المتوثبة في وصف ذلك الأسد:

يطأ الثّرى مترفّقاً من تيهه فكأنّهُ آسٍ يَجسُّ عَليلا
ويردّ عفرتَهُ إلى يافوخـــه حتّى تصيرَ لرأسه إكْليلا
وتظنّهُ ممّا يُزمجِـرُ نفسُـهُ عَنها لشدّةِ غَيْظه مَشغولا

كان صوت المتنبّي يهدر في أذنيه مضفوراً بزئير الأسد: «ألقى فريسته وبَربرَ دونَها..».

السيارة تهبط في الغور. المتنبي يمنّن ممدوحه التالي أنه لولاه لم يترك البحيرة «والغور دفيء وماؤها شَبِمُ..».

والموجُ مـثل الفحولِ مزبدةً — تَهدر فيها ومـا بها قَطَـمُ
والطّيرُ فوقَ الحبابِ تحسَبُها — فُرسان بُلْقٍ تخونُها اللُّجُمُ
كأنّـها والـرّيـاحُ تَضْرِبُـها — جيشاً وَغىً هازِمٌ وَمنهَزِمُ
كـأنّهـا فـي نَهـارِها قـمَـرٌ — حَفَّ بِهِ مِنْ جِنانها ظُلَمُ
تَغَنَّتِ الأرْضُ في جَـوانِبِها — وَجادَتِ الأرضَ حولَها الدِّيَمُ

وتسرح عينه في المنظر. كان المتنبي هناك على جواده. وينصت يحيى فيسمع الحسرة والحزن في ذلك الصوت المدوّي، فهذا الجمال، في نظر المتنبّي، يعكّره ويفسده أن البلاد التي تجود عليها البحيرة بمائها يسودها «الأدعياءُ والقزمُ» – قال:

يشينُها جريُها على بلدٍ — يشينُهُ الأدْعياءُ والقَزَمُ

وإذا كان الشعراء قبل المتنبّي بكَوا على أطلال بيوت الأحباب، فإن المتنبّي يرى أن الهمم والعزائم هي التي تهدّمت، وهي الأطلال التي يجب أن يقف عليها الشعراء نادبين:

أحَقٌّ عافٍ بدَمعِكَ الهِمَمُ — أحدَثُ شيءٍ عَهداً بِها القِدَمُ

كبير هذا الشاعر.. أنفاسه هنا تحوّم، وستظل يرافقها الزمان.

على طرف الشارع لافتة كُتب عليها: «مستوى البحر».... والسيارة تهبط وتلتفّ، تغور في الغور دون مستوى البحر. هذه هي الحجارة السوداء التي خلّفتها البراكين.. وهذا هو الشقّ السوري-الإفريقي. الانحدار يشتدّ. هذا السور المبني من الحجارة السوداء، وذلك المسجد بناهما ظاهر العمر قبل حوالي ثلاثة قرون. السيارة تحاذي الشاطئ وتلتفّ باتجاه الشمال الغربي. هنا في طبريا بيت ابن عمّ أبيه، رجل عصاميّ، يشرف على تعبيد الطرق في دائرة الأشغال العامّة.اشترى أرضاً على السفح وبنى فيها بيتاً جميلاً يحيط به بستان وعند مدخله نافورة تعانق عريشة ياسمين.

الشارع محاذ للشاطئ. أشجار الكينا وارفة تطوف حولها أسراب من الطيور. فوق الماء تحوّم النوارس زاعقة، وتنقضّ ليعود المنقار بالصيد.

على بعد يسير من طبريا، عند منعطف، تقيم «المجدل» القديمة التي تنتسب اليها مريم المجدلية. بقي أثر يسير من المكان وبقي الاسم. تسترسل الذاكرة تراجع البلدات التي تحمل اسم المجدل، أو المجيدل.. مجدل طبريا.. مجدل عسقلان.. ويُستثار ليسأل عن معنى الكلمة فهو البرج.

من البحيرة وشاطئها تهبّ أنسام المجدلية وحكايتها..
المسيح يمشي على الماء. الشاعر أحمد شوقي يشيرإلى ذلك:
«سِر على الماءِ كالمسيح رُوَيدا»..

ويطلّ على السيارة «جبل التطويبات». ليس عالياً. سفحه يصلح أن يكون مدرّجاً مسرحياً. على قمّته كنيسة التطويبات. هنا كانت «الموعظة على الجبل»: «ولمّا رأى الجُموع صعد إلى الجبل..: طوبى للرُّحَماء لأنّهم يَرحمون.. أنتم ملحُ الأرض.. أحبّوا أعداءكم باركوا لاعِنيكم.. اقرَعوا يُفتَح لكم.. كلّ شجَرة لا تصنع ثمراً جيّداً تُقطع وتلقى في النار..».

هنا عند السفح تعرّج السيارة إلى اليمين، تمرّ بمخيّم المساحة مركز الوالد، وتتابع السير إلى بيت من طابقين قريب جداً من شطّ البحيرة. الطابق الأول فيه عائلة صيادي أسماك.. خرج الشابان مصطفى وحسين ليساعدا الضيوف في نقل ما معهم من فراش وأدوات إلى الطابق الثاني. غرفتان ومنافع وشُرفة مسقوفة واسعة جداً. تجلس على الشرفة فتعانقك البحيرة والجبال التي تحضنها. صوت الأمواج الناعم في الليل ووجه القمر النرجسيّ الذي يعشق صورتَه في البحيرة.. والطيور المفترسة، وزوارق الصيّادين والشّباك المنشورة على الجسر الخشبي القريب.. كلّ ذلك يرقّى بك إلى عوالم نادرة من الجمال والموسيقى.

هذا البيت وبيوت أخرى، ومطحنة، ونُزُل بين الطابغة وعين التينة - بناها مستوطنون ألمان. إلا أن السنة هي ١٩٤١، مضى حوالي السنتين على إشعال الألمان نار الحرب العالمية الثانية، وقد اعتقلت السلطات البريطانية السكان الألمان هنا وفي غير ذلك من المواقع في فلسطين باعتبارهم رعايا دولة معادية.عصر ذلك اليوم قام يحيى وأخوه الثاني بجولة استطلاعية للتعرّف إلى المكان. الأخ الصغير الرابع ظلّ في البيت، أما الأخ الثالث فحاول

اللّحاق بهما، ولكنهما رأيا فيه معوّقاً فانتهراه ولم يسمحا له بالذهاب معهما. مرّا بالمطحنة، وبكنيسة أمامها حجر كبير مستدير فيه حفرة بشكل القدم، قيل لهما إنها أثر قدم المسيح، وثارت الأسئلة: إذا كانت قدم المسيح بهذه الشدّة فلماذا لم يبقَ إلا هذا الأثر؟ فقد تجوّل في طول البلاد وعرضها؟ ثمّ كيف تكون قدمه بهذا الثّقل ويمشي على الماء؟ ومَن قال إن ثقل القدم وحفرها هذا الأثر، في الحجر هو من صفات القَداسة؟ تفرّع الحوار وتضاربت الآراء.

ومرّا ببركة ظاهر العمر وهي صغيرة جميلة تستقبل الماء من جدول مرتفع فيستقر فيها، ثم تطلقه ليتابع المسير إلى جدول آخر يصبّ في البحيرة. بعد أيام شارك يحيى في السباحة، في هذه البركة، في ليالٍ قمرها كان ينضج ليكون بدراً، ويطلّ من بين غصون أشجار الكينا العالية المستسلمة للأنسام الرقيقة. كان المستحمّون كلهم من الذكور، أبوه وأصدقاؤه المسّاحون، ولذلك لم تكن حاجة للتستّر بالمآزر. قطعة من الجنّة قبل أن تُخلق حوّاء.. إلا أن آدم لم يكن واحداً وحيداً.

عند قدمَي التلّة بئر يُفضي إليها مدخل ضيّق. إنها «بئر أيوب». أي أيوب هو هذا؟ هل هو أيوب الذي ابتُلي بالويلات، ليثبت صحة إيمانه، ويؤكد الله فيه للشيطان أن تقواه لم تكن لمجرّد النعم التي تمتّع بها «فقال الربّ للشيطان: هوَ ذا كلّ ماله في يدك، وإنما إليه لا تمدّ يدك». فتعاقبت البلايا وثبت أيوب؟ ولكن أيوب ذاك كان في «أرض عوْص».. لا بُدّ أن هذه البئر سُمّيت باسم أيوب آخر. إلا أن الناس يعتقدون أن لهذه البئر ميزات ومواهب مقدّسة فهم يأتون للاستشفاء في مياهها وقد تمنّ على العاقر بالخصوبة.

البقعة مليئة بالجداول والعيون، والأشجار باسقة تمدّ أعناقها إلى السماء بفيض من حبّ الاستطلاع حيناً أو نشوة الدّلال زهواً بمحاسنها وأسراب طيورها الملوّنة.

كانت خيام المسّاحين على الشطّ، تقترب المياه منها كثيراً حينما يكون المدّ، وكان بين المسّاحين مسّاح يهوديّ اسمه سيكال.. لعلّ ذلك اسم عائلته. يذكر يحيى أنه كان لطيفاً، تحدّث معه بالعربية والانكليزية حديثاً لا يبتعد عن أمور المكان اليومية. وكذلك كان تعليق الوالد – إن الحديث مع سيكال يدور حول شؤون العمل والشؤون اليومية العامة، ولكنه لا يتطرق إلى قضايا السياسة والعلاقات بين الشعبين. وعلى الصعيد الشخصي هذا كانت الصلات جيدة جداً، بل إن بين مجموعة صوَر الوالد صوَراً مع سيكال، وأخرى يظهر فيها

سيكال وحده متسلقاً إحدى أشجار الكينا.

خيمة الوالد كبيرة، لها مدخل مظلّل، تفتح الستار فتدخل إلى مكتب واستراحة ثم ستار وراءه «غرفة النوم»، ووراء ذلك كله قسم للاغتسال والاستحمام. لمدير المخيم خيمته هذه المستقلّة، أما المسّاحون الآخرون فلهم مثل تلك الخيمة ولكن يشغلها اثنان. وأما العمال فلهم خيام مستديرة صغيرة، يشغل كل خيمة عاملان أو ثلاثة.

عقليّة السلطة البريطانية لا ترضى بإلغاء الفروق «الطبقية». بل تسعى إلى تأكيدها، وهذا ما تفعله في التعامل بين الضابط والجندي في الجيش.

الطريق إلى «عين التينه» محاذية للشطّ، تحيط بها الأشجار والأزهار من الجانبين، وأحبُّها أشجار الصَّفصاف المتهدلّة الأوراق الناحلة نحو الماء كصبايا تُسرّح شعورها، تستر وجوهها وتُغرق في تأمل ذواتها.

تدخل من الباب الغربي فيستقبلك طرف من النُّزُل، بل تدخل في ردهته الزجاجية إذا شئت، ثم تخرج من المدخل الشرقي فإذا على بُعد يسير عالم صغير من الفتنة والسِّحر. «عين التينة» - غابة من أشجار الكينا الوارفة تجتمع جذورها الفضّية في لقاء حميم تتشابك أغصانها وتتعانق فلا تترك لأشعة الشمس إلا نوافذ دقيقة تتأرجح فيها وعبرها.

- وقد عمرت صدور تلك الأشجار بالحِلْم فلم تمتنع أن يحتضن ظلها أولئك الناس الذي جرحوا جذوعها بالمُدى وغيرها من الأدوات الحادّة ليكتبوا أسماءهم أو الحروف الأولى من أسمائهم وأسماء من يحبّون معلنين للفضاء خبر ذلك الحبّ الأنانيّ أو الصبيانيّ. كانت تلك الأسماء دماء بنّية متخثّرة. يخترق هذه الغابة الصغيرة جدول هامس بُني مجراه بالحجارة والإسمنت، وأقيم لمفترّش الغابة سياج من الإسمنت علوّه متر وبعض المتر، تهبط منه إلى بساط رائع من الرمل الناعم، يسلّمك إلى ماء البحيرة الشفّاف الذي يتدرّج في العمق تدرّجاً بطيئاً جداً فوق رمل ناعم يدغدغ قدميك بالتحرّك الليّن.

الماء والخضراء وموسيقى الطيور ووجوهٌ حسان وأجسام - في كثير من الحالات - رشيقة تحاول أن تطفئ حرارة الغور بين أيدي الأمواج الطريّة.

تستطيع أن تخرج من أحضان الموج لتستلقي على الرمل، مستطلعاً الفضاء، سارحاً في

عوالم تتأرجح بين المرئي والحُلم.

عاد الوالد ذات يومٍ من الناصرة ومعه رزمة كبيرة، نادى يحيى وقال معاتباً: «لماذا لم تقل لي بأنك مشترك في مجلات، في مكتبة عودة الحلاق، لأدفع ثمنها وأحضرها لك؟».

قال يحيى: «أنا أدفع ثمن المجلات من مصروفي، وكنت سأسدّد ذلك عندما نعود إلى البيت بعد شهر».

قال الوالد: «فاجأني صاحب المكتبة، حينما سأل عنك ولماذا لم تحضر لتأخذ المجلات منذ ثلاثة أسابيع. لم أكن أعلم بالأمر. على كلّ حال تفضّل هذه المرّة على حسابي».

كان يحيى منذ سنة يشتري مجلّتَي «الرسالة» و«الثقافة» المصريّتين أسبوعياً، وقد طلبَ إلى صاحب المكتبة أن يحجز له نسخة من كلتا المجلتين فهو متعهد بدفع الثمن، وقد كانت المجلتان، وهما طليعة المجلات الأدبية في العالم العربي آنذاك، تحفلان بشتّى الألوان الأدبيّة، يكتب فيهما أحمد حسن الزيات صاحب «الرسالة»، وأحمد أمين محرّر «الثقافة»، وطه حسين وعبّاس محمود العقّاد وزكي مبارك وكثيرون آخرون من أعلام الأدب العربي.

وكان مشتركاً أيضاً في هاتين المجلّتين زميل آخر هو محمد ابراهيم، فكانا يناقشان ما يقرآن بروح من التلمذة المعجَبة.

جاءت هذه المجلات زاداً لجائع متعطّش، فانفرد يقرأها على الشرفة حيناً وتحت الأشجار حيناً آخر. المتعة الفكرية كلّلت هذه العطلة السعيدة. كان يعيش بفكره في القاهرة وفي أرجاء العالم العربي الواسعة. وقد أحسّ بالانتماء الوثيق إلى التراث الأدبيّ والثقافيّ العربيّ، وعاش أنفاسه وعاشت فيه.

ذات أصيل كان يحيى وأخوه وحدهما في «عين التينة»، وقد خرجا من الماء يتسابقان ويتخاطبان بلغة ابتكراها قبل بضعة أيام. مرّت من الغابة مجموعة من الشبّان والشابّات اليهود من كيبوتس «غينوسار» المجاور، ومعها رجل كأنه المعلم للتلاميذ. لباس الفريق قمصان زرقاء غامقة. البنات يلبسن بناطيل من الخاكي قصيرة جداً أقصر من بناطيل الشبان. هناك إحساس من المشية والحركة أن هذه فرقة كشفية أو عسكرية وهذا مدرّبها.

توقّفت الفرقة قرب الأخوَين وقفة التفاف. بدون سلام، قال «المدرّب» ليحيى وهو يشير

إلى إحدى الفتيات بلغة عربية مأزومة:

«أنا بقول هاي البنت بتقدر تبطحك، شو قولك؟».

وكانت القاف في كلامه بدويّة كالجيم المصريّة المفخّمة. كانت البنت المُشار إليها ممشوقة ناهدة، ولا بدّ أنها أكبر منه بسنة أو اثنتين، وقد وقفت تتحدّى والجميع ينظرون بترقّب. رطن يحيى مع أخيه باللغة الجديدة أن يستمرا في السير دون جواب أو كلام.

«إنتو إيش بتحكو» - قال الرجل.

لم يردّ الأخوان وتابعا السير عبر حلقة هذا الفريق.

قال أحد الشبّان: «إنت مش رجّال، إنت بتنهزم من بنت. عيب عليك تعال باطح».

لم يلتفت الأخَوان إلى وراء. ظلا يتابعان السير بشيء من الاضطراب.

لم يبلغ يحيى الرابعة عشرة بعد، وأخوه كان يخطو نحو الحادية عشرة. كانت الأفكار كلمع البروق وسط الرعود. لم يعودا آمنَين في مشوارهما إلى «عين التينة». ولماذا هذا التحدّي الإستفزازي، وما معنى هذه المباطحة؟

تأخّر النوم في الوصول إلى عينيه تلك الليلة، فهو يقلب المشهد على وجوه عديدة، وعندما نام حلم أنه يباطح ذلك الجسم المتدفّق وهما وحيدان وقد بطحها فكان تحته النهد والخصر.. في الحلم، ولكنه سرعان ما أحسّها تنقلب عليه وتسلبه لذّة الظفر... فالمشهد يتغيّر والفريق يحيط بهما والمدرّب يرطن بالعبرية التي لا يفهمها يحيى.. وينقلب الحلم إلى كابوس تُمسخ فيه الوجوه والأجسام ويكون عراك دامٍ مرير.

قلق الوالد حينما علم بالأمر، وتحدّث مع سيكال في الموضوع، وظلّ الأخوان لا يذهبان الي «عين التينه» وحدهما حتى قال سيكال للوالد ذات يوم إن ما كان لن يتكرّر، ولكن الحذر ظلّ يلازم يحيى وأخاه.

31. عدله وفارس

جلست عدلة على قرطة خشب في ساحة الدار تحت التّوتة العتيقة وأمامها لجن الغسيل مليء بالثياب المغمورة بالماء المزبد المرغي ويداها تتحركان بنشاط فورة السادسة عشرة وعنفوانها. وهي قمحية واسعة العينين السوداوين وقد تمادى شعرها الخرّوبي ينتهز حريته ويتشيطن على ردفيها قبل أن تحبسه في جديلتين طويلتين شديدتي الوثاق. وهي تلبس ثوباً رقيقاً لا يرهقها في العمل، فالتي تغسل تكون «مْعَرِّية» - كما يقال هنا - أي أنها لا تلبس إلا اليسير من الثياب مما يكشف عن الساعدين بل عن الساقين المشرفتين على جانبي اللجن وقد انطوت الركبتان واتّسع الانفراج وتواترت حركة الظهر متجاوبة مع حركة اليدين. قال القدماء: «الفِضال» أو «المِفضل» هو الثوب الذي يُبتذل في الشغل.

وفارس في حاكورة بيته يعالج الأرض بالمنكوش ويقف بين الحين والحين يرتاح ويمدّ نظره إلى توتة الجيران.

كانت عدله واقفة تنشر الغسيل على الحبل ويداها ترفّان كجناحي النحلة والقامة الجمريّة يتراقص لهبها حين تنحني تلتقط الثوب من اللجن وتنتصب تنشره على الحبل وتثبّته بالملاقط لتحضنه النسمات الربيعية. وعلى شجرة الرمّان وتحتها عصافير الدوري تتقافز وتزقزق. والشمس تسري في الشرايين دفئاً ظامئاً.

اتّكأ فارس على منكوشه وأطلق صوته محرجاً وكأنه يغني لنفسه يسلّيها، ثم مضى الصوت يقفز عن السنسلة الحجرية بين الحاكورتين:

تغسلْ وتنيِّل تغْسل وتنَيِّلْ
تحت سالفها يا عاشق قَيِّلْ
هيا يا برجاوي علينا مَيِّلْ
واقطع للحلوه قميص النّوما

وصل الصوت إلى يحيى وكان في حديقة بيته يشرب مشهد الطبيعة من حوله بمسامّ جسمه فتمتلئ الرئتان ويتّسع الصدر وينتشي بالعطر والطير والشعاع. وكان صوت فارس كأنه نافورة تنبثق متوثبة من صميم المشهد.

إنها عطلة الربيع وأيام يحيى تُنسج على نول الطبيعة والكتاب. وغناء فارس يمتد فوقه كعريشة الياسمين.

حاذر يحيى أن يحسّ به فارس أو عدله. تذكّر صورة «العذول» التي ارتسمت في شكاوى شعر الحب العربي. لكنه حرص أن لا يفوته المشهد. هل هو التطفّل واقتحام خصوصية الآخرين؟ يقسم يحيى أن الذي استثاره لم يكن غير الفرحة باستكمال المشهد. فالربيع راعي الحب يحدوه بشبّابته إلى الينابيع والزهر والعطر.

قال الراوي: تسألون عن الفعل «تنيِّلْ»؟ رحم الله أيام زمان حين كانت «النّيله» حاجة شائعة تستعملها النساء المعدّلات في الغسيل وهي مادة زرقاء غامقة الزرقة داكنة، كانت تُباع في مكعّبات صغيرة يُحلّ شيء قليل منها مع ماء الغسيل فتصطبغ الثياب البيضاء بزرقة خفيفة جداً وتكتسب عطراً شاحباً يوحي بالنظافة. ويقول المعنيّون برحلات الكلمات بين اللغات أن هذه الكلمة فارسية الجنسية كانت تنتهي بالجيم فقالوا «نيلج» وهي شيء يُتخذ من نبات العِظْلِم. رحم الله الأستاذ سعيد الذي كتب على اللوح كلمة «العِظْلِم» وأخذ ينغمها تنغيماً يسخر من ذلك التزاوج بين الحروف. إلا أننا جميعاً نعرف ما هو اللون «النيلي». صَحْ، رحم الله أمواتكم، إنه نسبة إلى النيلة.

أما البرجاوي فهو ذلك الرجل الذي كان يحمل على ظهره أصنافاً من القماش يطوف بها على البيوت في القرى فتنادي عليه النساء يستعرضن بضاعته ويشترين ما يحتجن أو يُعجب، فيقيس الثوب بقضيب من المعدن يسمونه ذراعاً، وقد تقيس المرأة على طول ذراعها من طرف الأصابع إلى مفصل الكتف.

وأما سبب التسمية ففيه خلاف: قال البعض لعلها من «برج» التي غدت كناية عن «المدينة» المسوّرة ذات الأبراج، وقد ارتحلت إلى اللغات الأوروبية فظهرت في أسماء العديد من المدن أو وظائف المسؤولين في المدن. ولأن البائع قادم من المدينة لحقته تلك التسمية. بينما يؤكد أبو فؤاد التاجر الشفاعمري المعروف أن النسبة إلى بَرْجا وهي بلدة معروفة في لبنان وكان كثيرون من أهلها يتعاطون مثل هذه المهنة ويطوفون في قرى الجليل.

ولكن ما رأيكم في تلك القيلولة تحت السالف الوارف؟

إنها نعمة نتمناها لكل عزيز وحبيب، فقد قيل إن من نعم بها ذاق طعماً سانحاً من طعوم الجنة، والله أعلم فإن فوق كل ذي علم عليم.

رحم الله الجاحظ وأعوذ بالله من الاستطراد الذي يخرج بنا عن جادّة السرد فنضطر إلى أن نلوي عنقه عائدين. ويرجع مرجوعنا إلى عدله وفارس ويحيى.

كانت قامة فارس كالرمح يتقمّز عمره حول العشرين. وهو لوّاح الدبكة المعروف في الأفراح يرقص موتّر القامة شامخاً في الفضاء ملوّحاً بمنديله في دورات مروحية، ثم يقرفص يجوب الساحة متوثباً ويهتف برعيته الراقصين أن يتألقوا ويحلّقوا.

رآه يحيى في أحد الأعراس يُكثر العودة من حلقة الدبكة إلى ابريق فخار على حافة شباك، فيرفعه عالياً مصوّباً إلى فمه ويستقبل شرابه بفرحة غامضة. وجاء أبو نمر بعد قليل يشرب من ذلك الإبريق وما كاد فمه يستقبل الشراب من ذلك الموقع العالي حتى انتفض مجنوناً وقد هاجت عيناه بشيء من الحمرة والدمع وهو يبصق ويشتم ويقحف حنجرته:

«يا اولاد الكلب... خمرا»

وكادت تنشب الفتنة، فقد هرع إليه البعض يشمون ويذوقون ويؤكدون ويوجهون اللوم إلى أصحاب العرس الذين أنكروا كل صلة أو معرفة بذلك.

قال ناجي وكان قد كرع الكثير من الابريق: «يا قليلي الإيمان. في قانا الجليل حوّل المسيح الماء إلى خمر، والبلد لا يبعد عنا إلا أربعة كيلومترات، فكيف لا نصدق أن تحدث العجيبة هنا وفي هذا العرس؟ إفرحوا وتهللوا فقد حسنتم في عين الربّ».

وقام بعض الرجال يحضنون ضحية الإبريق يقبّلون جبينه:

- «إمسحها بهاللحية يا ابو نمر، جُهّال - وانت كبير القدر. الكرامه لاصحاب العرس.

خلّ فرحتهم تتمّ».

أما فارس فلم يقطع حبل الدبكة بل زاد من فورة النشوة التي أشعلتها بنت العنب. فصال مع رجاله وجال وعلا صوت الشبابة يلدغ الأرجل كاللهب.

وفارس معروف بالمرح والجرأة. رآه يحيى في حمّام أحد العرسان يليّفه بشلخة من نبات البلان، فيقفز العريس متألماً صارخاً ويضيع صوته في خضمّ الغناء والزغاريد وتحريض القائمين على الحمّام للعبث به.

وفي جرأة فارس وثقته بالنفس ما يثير حسد الكثيرين من الشبان الذين يجفلون أمام الفرصة السانحة، يضطربون ويلوكون مشاعرهم كما يلوك الجمل ألواح الصبر، ويبلعون الكلمات حين تنتظر الفتاة تصريحاً بالإعجاب أو إعلاناً عن حبّ. عرف فارس كيف يجعل الأغنية الرسول الرائد، ففي ذلك من التلميح ما يعجب وفي الصوت الشجيّ ما يطرب.

وقف فارس يتأمل الوهج الذي يشب في جسم عدله وهي ترفع يديها بالغسيل إلى الحبل وقد سكر ذلك الجسم بالربيع واللحن والإطراء.

- «والغواني يغرّهن الثناء». الله عليك يا شوقي.. الله عليك يا فارس.

ولكن سرعان ما أطلّ من باب بيت عدله وجه جدّتها. سمعت غناء فارس. لعب الفار في عبّها فحملت نفسها تطلّ على المشهد في الساحة.

تحركت نشيطة إلى طرف السنسلة وقالت:

- «الله يرضى عليك يا ابني يا فارس.. كُفّ شرّك عنّا. عدله أختك وألله أوصى بالجار».

اضطرب يحيى. كان قد أسعده المشهد الذي تنامى مع شمس الربيع، أسعدته وردة الحبّ التي تتفتّح أمامه وبدأ ينتشر عطرها فجاءت الجدّة تقتلع الوردة من الجذور.

الجار والجارة. يذكر يحيى شعر عروة بن الورد الجاهلي الذي يفخر بأنه يصون حرمة جارته إذا انكشفت عليه فيغضّ الطرف ويحوّل وجهه عنها، والبيوت آنذاك خيام من شعر الإبل.

وإن جـارتي ألـوتْ ريـاحٌ ببيتِـها

تـغافَلتُ حتى يسـتر البيتَ جـانبه

ويؤكد عنترة العبسي موقفاً مماثلاً، يقول ذلك الفارس:

وأغضّ طرفي إن بدت لي جارتي

حـتى يـواري جـارتي مـأواها

أما فارس هذه الأيام فيتصدّى للجارة ويلاحقها.

نظر إلى الجدّة بهدوء وقال:

- «مش فاهم عليك يا ستي. أنا وين والشرّ وين؟ والله العظيم أنا بحبكو، بحبّكو يا ستي».

- «سايقه عليك الله يا ابني حيّد عن طريق البنت. بلاش تلعب بالنار».

دخلت عبلة إلى البيت تلافياً لحرج المشهد ولكنها ظلّت ترهف السمع. «يا ستي ما بريد الكو إلا كل خير».

- «يا بنيّي إنت عارف إنه طريقك غير طريقها. الله يسهّل عليك. إنت عاقل وابن أصل. الله يرضى عليك لا تغبّر بعينيها».

أسرعت الجدة عائدة إلى البيت. بعد حين، وكانت قد بدلت ثوبها وهي تمسح بكفّيها على منديلها ووجهها لتتأكد من انسجامهما، مضت إلى بيت أم فارس تدق الباب وتعلن عن رغبتها في شرب فنجان قهوة.

بعد يومين سمع يحيى من أمه أخبار تلك الزيارة وكانت جدّة عدلة معنية بنشر الخبر. أكّدت لأم فارس أن اختلاف العقيدة يمنع العلاقة ولا يتيح الزواج، فلتتعاون العائلتان على إخماد النار قبل أن تنتشر. لكن أم فارس لا تستطيع أن تعد بشيء، أبو فارس غارق في عمله ولا يلتفت إلى هذه الأمور. وفارس صلج - أو كما تقلب الكلمة بالعامية أحياناً - جلص، لا يسمع.

عندما عادت الجدة إلى بيتها نادت ابنها فالح والد عدله وتداولت معه في الأمر. وفي المساء جاء ابنها ناصر يسأل ما سر التأكيد على حضوره حال وصوله إلى بيته:

- «خير يمّا.. الفرح بدقّ ع الباب».
وحثّته أن يطلب يد عدله لابنه جمال.
قال ناصر: «جمال بعمر عدله، بكّير عليه.
قالت الجدة: «أخطبوا.. والزواج بعد سنة سنتين. خطيّة عدله برقبتك يا ابو جمال».

بعد أسبوع دُعي الجيران إلى خطوبة جمال وعدله..
قال يحيى لأمه: لو كنت محلّك ما شاركت في الاحتفال.

32. حكاية المنداء

امتحانات نهاية السنة الدراسية تقترب. والقلق حمّى معدية والمنافسة شديدة، ونتائج الامتحانات هي التي تقرّر حقّ الارتقاء من صفّ إلى صفّ.

واحد من الطلاب كان مطمئن البال لا يبذل الجهد الكثير، فقد كان عدّاءً متفوقاً في ركض المائة متر ونصف الميل وغير ذلك من المباريات. وكان يحمل للمدرسة في المهرجان الرياضي السنوي الذي تشترك فيه مدارس المنطقة الكؤوس الفضّية والانتصارات. كان ارتقاء هذا الطالب من صفّ إلى آخر مضموناً، فهو ذخر للمدرسة، ومن قال إن التفوّق في الرياضة يجب أن يُهمَل؟ فالعقل السليم في الجسم السليم.

إلا أنّ رياضياً آخر، وكان السبّاق دائماً في ركض الميل، كان من السبّاقين أيضاً في الدروس، وكان ارتقاؤه من صفّ إلى آخر، بين الطلائع، بعرق الجبين وعرق الجسم كله. كان أسمر قصيراً مكتنزاً فوّار الحيوية، بارع النكتة، وكان بوسعه أن يحرك أذنيه، فيضحك الزملاء خلفه، وهو يقصد بتلك الدعابة أن يستثير ذلك الطالب الجديد القادم من حيفا إذ تركت عائلته تلك المدينة بعد أن قامت الطائرات الإيطالية بغارات جوّية عليها في مطلع الحرب العالمية الثانية. فقد كان هذا الطالب الجديد رزيناً متّزناً، غاية في الدماثة والأدب، معروفاً بهدوئه وانتباهه في الصفّ. فكيف لا يستثير التحدّي لإضحاكه وإخراجه عن هدوئه؟ وهكذا أصبح تحريك الأذنين مصدر تطبيع لهذا الطالب الجديد ليشارك في بعض التسلية. إلا أن نمر الصادق الرّياضيّ والذكي المجتهد لم يكتفِ بهذا النجاح، فقد رأى أن الزميل الجديد

عفيف الفكر وعفيف اللسان، لا يشارك في سماع النكات التي تنزلق عن سياج الحياء، وبالطبع لا يشارك في تداولها. وكان وجهه يحمرّ حمرة شديدة محرَجَة عندما تقحَم أذنَه كلمة، أو يوماً قدّامه بإشارة فيها شيء من العبث. هذه العذريّة استفزّت نمر الصادق، فأخذ يروي النكات ويومئ بالإشارات حتى افتضّ بكارة ذلك الحياء، وأصبحت إيماءة بسيطة في الصفّ تكفي لينفجر هذا الزميل الجديد بضحكته المكبوتة المتمزقة بأصوات تستثير الضحك في الصفّ كله. أما نمر، في المقعد الأماميّ، فهادئ كل الهدوء، وكأنه لا يعرف مما يدور حوله شيئاً. والزميل الجديد ينظر إلى هذا الهدوء الخبيث فيزداد ضحكاً.

كان هذا الزميل الجدّي عاشقاً للأدب، يطالع بنهم شديد، وكان مطّلعاً على الإنتاج الحديث يواكب ما يجدّ في المكتبات فيقتني ويقرأ. وقد ربطته بيحيى صلة وثيقة من خلال هذا التعلّق بالأدب. وكانت كتب طه حسين ومصطفى صادق الرافعي والعقّاد وغيرها مواضيع الحديث الذي لا يقف عند المضامين ولكنه يسعى إلى أن ينفذ إلى أسرار الأسلوب. أعجبا بموسيقية أسلوب طه حسين، بذلك النسج الدقيق الهادئ المتردّد، كيف يستهلّ الحديث وكيف يعاوده، وكيف يختار الكلمة ويبرع في التعدية بالحروف. اتّفقا على أن في أسلوب طه حسين شيئاً من مميزات مشية الكفيف فهو يتحسّس الموقع بعصاه فتطوف العصا طوافاً رفيقاً يراوح حول الشيء حتى يتأكد منه، وهكذا الجمل في أسلوب طه حسين تتقارب في إيقاعها وتحسّسها، تحوّم في تردّد حتى تَرِد. وقد بلغت منهما النشوة أقصاها عندما اكتشفا في كتاب «على هامش السيرة» فصلاً – الصفحة الأولى فيه – كلها شعر موزون من غير قافية ولم تعط شكل الشعر، بل إن يحيى ما زال يحفظ عن ظهر قلب شيئاً من ذلك النصّ: «أقبلَت تسعى رويداً رويداً، مثلما يسعى النسيم العليل، لا يمسّ الأديمَ وقعُ خطاها، فهي كالروح سرَت في الفضاء....». وكانا يُعجَبان كذلك بأسلوب مصطفى صادق الرافعي، فهو كالرخام الملوّن المصقول المشكّل ببراعة. بل كان كل منهما يسجّل فقرات مما يعجبه من كتابات الرافعي في كرّاسة للمختارات، ويحفظها. وكانت كتابات جبران خليل جبران تثيرهما ببكارة الصور وموسيقية العبارة وعفويّتها، والثورة في تلك الكتابات كانت تهزّهما وتستثير النقاش وتحريك مياه البحيرة الراكدة.

لقد انقطعت أخبار هذا الصديق الأديب منذ النكبة، وجاءت أخبار نمر الصادق من الشام حيث لجأ بعد تدمير قريته المجيدل وتشريد أهلها.

وماذا عن الامتحانات وحمّى القلق المعدِية؟

قال أبو محفوظ، وهذه كنية ذلك الزميل - ولكثير من الزملاء كنية تنطوي عادة على اسم الأب، إذا كان الابن هو بكر العائلة - قال ليحيى: «سمعت أن في قريتكم رجلاً يقرأ الغيب ويفتح في المندل، فهل يستطيع أن يعرف أسئلة الامتحانات؟».

- «إنّ له قريباً في الصفّ الثاني الثانوي تستطيع أن تسأله».

وعد ذلك القريب أن يسأل قريبه العرّاف إن كان بوسعه أن يسخّر الجنّ ليعرفوا أسئلة الامتحانات. وجاء في اليوم التالي يبشّر بالإيجاب. اتّفق الثلاثة على صيانة السرّ. ورتّب ذلك القريب في بيته في القرية لقاءً مع العرّاف، على أن يكشف العرّاف عن أسئلة صفّ القريب أيضاً، على حساب أبو محفوظ.

في اليوم التالي، بعد الظهر، تم اللقاء. كان العرّاف واثقاً من نفسه، جلس على الفراش الممدود على الحصير، مسبحته بيُمناه تتساقط حباتها بإيقاع مطمئن، شارباه الكثيفان يهتزّان على إيقاع التمتمات الخافتة التي لا يُسمع منها إلا شيء كالحشرجة. جاء أبو محفوظ ومعه زميل آخر من الصّف. أليس في ذلك شيء من التفريط، وقلّة الحَيْطة؟ فالسرّ إذا جاوز الإثنين ذاع. ولكن لا مجال للعتاب الآن.

سأل العرّاف عن الغاية التي جاءوا من أجلها، وبعد أن سمع الجواب أكّد أن له من الجنّ أعواناً يرَون في مثل هذه المهمّة لعب صبيان، فهي أهون ما كان، وكم من مهمّة اقتضت قطع البحور والبلدان، في سحيق المكان أوالزمان، قام بها هؤلاء الجان بلمح البصر وعادوا بأمان.

قال العرّاف: «بَيِّضوا بختكم!» وفتح كفّه. وكان متّفَقاً أن النفقات يسدّدها «أبو محفوظ»، فهو صاحب الاقتراح، وأبوه ميسور الحال، إذا قيس بآباء الآخرين.

- «بكَم تبيّضون البخت»؟

- «لأنكم طلاب لن أطلب منكم الكثير. يكفي منكم عشرة قروش». بالملاليم.. هو يطلب ١٠٠ مليم. إنه يطلب أكثر من المصروف الشهري لبعض المحظوظين. كم قطعة هريسة يمكن أن تشتري في الفرص من أبو حافظ الذي كان يحتفظ بموقع خاص لعربته في الساحة، وعليها صدر الهريسة وقد ترتّبت القطع فيه وعلى كل قطعة شقراء نصف حبّة فستق. وكم رغيف فلافل من بائع الفلافل في تلك الساحة يمكنك أن تشتري؟ عشرة قروش، سعر مخفّض

للطلاب؟!

مدّ أبو محفوظ يده بالقروش العشرة - شلنين كاملين، فتناولهما العرّاف وقبّلهما ثم دسّهما في محفظته.

تناول أبو محفوظ من يد العرّاف فنجاناً صغيراً فيه زيت. قال له: أمسك الفنجان بقوّة، وركّز نظرك في الزيت. وفيما أبو محفوظ يشدّ على الفنجان، ويتأمّل في الزيت الذي فيه ألقى على رأسه العرّاف شرشفاً حجبه عن عيوننا كأنه الخيمة، وقد عتّم ما حوله.

- «أنظر جيداً»، أخذ العرّاف يتمتم وكأنه يتلو سطوراً من سِفر شيطانيّ، ثم قال: «هل ترى الدّهليز الكبير أمامك؟».

لم يقل أبو محفوظ شيئاً، لكنه ظلّ ينظر.

- «قُلْ لهم أن ينادوا على شمهورش».

- ...

- قُلْ للجان! نادوا على شمهورش، أعِدْ بَعدي.

- قال أبو محفوظ: «نادوا على شمهورش».

- هل جاء؟

- أنا لا أرى شيئاً، لا دهليز ولا جان ولا أحد.

هزّ العرّاف رأسه متحسّراً، ثم قال: لا بدّ أنّك جَنِب، ولذلك لا يظهر لك الجان الأطهار. ليجرّب زميلك. هات الفنجان. ظلّ أبو محفوظ ممسكاً بالفنجان وهو يتأمّل في الزيت.. لعلّه يرى شيئاً، ولكنه لم يرَ غير الزيت.

ناول الفنجان لصديقه الذي جاء معه، وغطى العرّاف رأس ذلك الصديق بالشرشف، وعاد يكرّر التوجيهات التي ألقى بها من قبل.

- «تأمّل جيّداً. هل أنت طاهر؟ إذن أنظر بتمعّن في الفنجان. قُل للجان أن يصفّوا الكراسي، وأن يُحضروا لوحاً أسود ليعلّقوه على الحائط. أسمِعني صوتك - قُل: «صُفّوا الكراسي»، فأعاد ذلك الصديق تلك الجملة.

- «قُل لهم أن ينادوا شمهورش، قل ذلك بصوت عالٍ».

- «نادوا شمهورش..» سمعنا صوته يرتجف من تحت الشرشف.

- «تأمّل جيداً. إنك ترى شمهورش الآن. صف لنا ماذا يلبس على رأسه. صف لنا اللفّة الخضراء التي على رأسه. وصف لنا لحيته البيضاء».

- «لا أرى شيئاً»، قال الصّديق.

غضب العرّاف، وصاح: كلّكم جنبون! الويل لهذا الجيل الفاسق! إنّ الجان الأطهار لا يدنّسون أنفسهم بالظهور لكم.

قال له يحيى: يا أبا يوسف أنت تُهين الضيوف.

فتدارك أبو يوسف: لا لم أقصد الإهانة، فمن الناس من يظهر على وجوههم المندل، ومنهم من لا يظهر على وجهه. تعال جرِّب.

وتناول يحيى فنجان الزيت، وتحمّل الرائحة المزعجة للشرشف الذي طُرح على رأسه، وقد عتّم المشهد.

- «ركّز نظرك على الزيت. هل ترى الحركة. أنظر إلى الباب الذي إلى اليسار، هل تراهم يدخلون؟ قل لهم أن ينادوا على شمهورش.. نادِ بصوت عالٍ.

- «نادوا على شمهورش».

- «بصوت أعلى..».

فارتفع النّداء.. ولكن شيئاً لم يظهر على شاشة الزيت، لا حركة ولا باب، ولا عمامة ولا لحية.

- «أنظر جيداً، هل ترى ذلك الذي يلبس في رجليه خلاخيل كالخراخيش، هذا هو زعيمهم. أنظر إلى لفّته الكبيرة».

كل هذا الإيحاء لم ينفع. فلم يظهر على الزيت شيء.

- «إسمع - لا تقُلْ لي أنت جَنب، ولكنّي لا أرى شيئاً».

- «كان الله في عوننا، أنتم قليلو الإيمان. لو كنتم تؤمنون لرأيتم كل شيء. أنتم الخاسرون».

ثم توجه إلى قريبه صاحب البيت قائلاً: قم نادِ نايفه... فإن المندل يظهر على وجهها. أسرع قل لها تعالي عند أبو يوسف.

ونايفه هذه شابّة كانت وسيطته في أكثر من مرة في فتح المندل. وهي تسكن قريباً من

المنزل الذي اجتمع فيه العرّاف بأولئك الطلاب.

بعد قليل عاد ذلك القريب ومعه نايفه.

تناولت الفنجان، وغطّى العرّاف رأسها، وقال: «أنظري في الزيت جيّداً، هل ترين شيئاً؟».

- «نعم، دهليز كبير، فيه بعض القناديل. جنّي على رأسه عمامة كبيرة خضراء، في رجليه خلاخيل بأجراس».

- «قلت لكم، على وجه نايفه يظهر المندل»، قال العرّاف بثقة، وتابع: «قولي لهم أن ينادوا شمهورش..».

- «صفيه لنا!».

- «طويل، لحيته طويلة بيضاء، على رأسه عمامة كبيرة خضراء، عيناه سوداوان تلمعان».

- «هل حوله غيره من الجان؟».

- «نعم هنالك جان أقزام، صغار».

- «قولي لهم أن يصفّوا الكراسي، وأن يجيئوا بلوح أسود يعلّقونه على الحائط.

- «إنّهم يعلّقون اللوح».

- «قولي لشمهورش: يأمرك أبو يوسف بتلبية كل ما يطلبه منك حالاً.».

أعادت الجملة.

- «قولي له أن يكتب على اللوح أسئلة الهندسة في امتحانات الصفّ الأول الثانوي في الفصل الثالث في المدرسة الثانوية في الناصرة».

«هل بدأ الكتابة؟»

- «نعم، وهو يكتب على اللوح بسرعة».

- «إقرأي السؤال الأول».

- «أنت تعرف يا أبو يوسف أنني لا أعرف القراءة!».

كتب شمهورش الأسئلة - لكن نايفه لا تعرف القراءة، وأبو يوسف لا يريد أن يرجع الشلنين، فقد قام بما عليه: الأسئلة مكتوبة على اللوح، وما عليكم إلا أن تقرأوها.

33. بين عيسى الخليل والجندب

ناصر الكايد – أبو نمر – فارع الطول، غليظ العظم. قمبازه نظيف هنهاف يكشف عن شروال مغسول بالصابون والنيلة. حذاؤه لامع تصدر عنه نغمة طريّة صادحة مع كل خطوة. قصّ شعره سعيد الأخرس، الحلاق، وأبقى له قذالاً يمتد في وسط رأسه، تنهدل خصلته الأمامية على طرف من جبينه متمردة على الطاقية المشغولة بالإبرة والتي ترتاح فوقها الحطّة الروزة والعقال المايل ميلة غاوية.

وهو في العقد الرابع من عمره يبث في مشيته وحركاته رسائل الاعتداد بالذكورة الخشنة.

كان يتصدّر المجلس يسرح في الحديث ويمرح. يتعامل مع الحروف في كلامه تعاملاً خاصاً يضغط على بعضها ينغّمها، وله أسلوب خاص في توزيع الصوت والسكت. صوته جهوري في حدّة الصخر وتجاوب الوادي.

وأبو نمر بارع في رسم صور كاريكاتورية كلامية لكثير من الناس من حوله. يصطاد الضعف الإنساني الجسدي أو المعنوي ويعالجه بكثير من الدهاء والمبالغة والاستعارات. وله فلسفته في هذا الموضوع. يقول: لماذا أصيب هذا الرجل بالشلل ولماذا نبت لذلك الشخص سنام بين كتفيه، وهذه المرأة لماذا قصرت رجلاها واعوجّتا وسارت متأرجحة كأن كل رجل في كفة من كفتي ميزان الجزر؟ للّه حكمة في كل ذلك. ولا بد أنه – جلّ جلاله – أرادنا أن نستخلص عبرة من ذلك. لماذا جعل الله هذا المخلوق غير عاديّ؟ حين تلفت الأنظار إلى بليّته فإنك تساعد على التأمّل في مشيئة الله وحكمته تعالى. تعرفون ما الفرق بين عيسى الخليل

والجندب؟ لو خلقه الله جندباً لكان طبيعياً، أما خَلْقُه على هيئة البشر وهو ممسوخ كالجندب المعوط المشعوط ففي ذلك إرادة من الخالق لتحقيره في عيون الناس. وكل من يسخر من ذلك الممسوخ فإنّ له أجراً عظيماً عند الله.

أما عبد القادر، أخو ناصر، فهو غارق كله في الاستماع والاستمتاع معجب بأخيه كل الإعجاب وكأنه يحمل وعاء يجمع فيه العسل المتدفق من شفتي ذلك الأخ المهيب البليغ اللامع. وكان يستغل فترات السكت في حديث ناصر فيلتفت إلى هوّاش الراعي الجالس أمامه قائلاً: «إنتبه يا هوّاش. لذّ لمعنى القول هه..». ثم يتوجه إلى ناصر: «عيد لو يابو نمر خلّيه يفهم ويستوعب». وهو في ذلك يحاول أن يتقمص أخاه في صوته وإيقاع حركات يديه. إنه أشبه بمن يسمى «المطيّباتي» الذي يرتفع صوته طرباً لغناء المغني فيصيح: «أللها»، أو كلمات أخرى تعبر عن الإعجاب الفائق.

- عندما زار يحيى مدينة أطلانتا في الولايات المتحدة بعد عقود وطاف بمتحف المكافح الزنجي الشهيد مارتن لوثر كنج، حدّثوه كيف أنه كان يقف وراء مارتن لوثر، وهو يخطب، أحد أنصاره، يعود على بعض الكلمات، أو يلهج بالثناء فيهيج الجمهور مصفقاً متحمّساً.

ويمضي أبو نمر شارحاً أن بعض العاهات قائمة على التناقض بين كبر الزير وشحّ الماء فيه. يقول: «بعض الناس مثل الخابية الفارغة كلما كانت أكبر كان الصدى أضخم. الدردير معروف للجميع. بتْشوفُه بتقول: ياريته في دياري. جثة مثل الفيل. الهيبة بتنقّط من ذياله وهو ساكت. أكتافه عريضة وكل ذراع مثل إيد القَطْمَه. لكن قلبه أضعف من قلب الصوص، وعقله - بلا مؤاخذة - أخف من بيضتين على جمل. يوم من الأيام كان راجع من «ام الغنم». الدنيا مسا، والشتا كبّ من عند الربّ. ميّل على مغاره يِذري من الشتا. لما دخل قال: «بسم الله الرحمن الرحيم»، والا صوت من المغارة بِعيد وراه.. الرحمن الرحيم.. قال الدردير: «جنّي ولا بدك تجنّني؟». ردّ الصوت: «تجنّنّي». انعمى قلب الدردير. من الخوف ضرب راسه بسقف المغارة وهو يدوّر على الباب تيهرب. صار يصيح والصدى يردّ وراه.. حتى وصل باب المغارة. راح يركض على سفح التلة.. لحقته الحجارة والشتا زخّ على راسُه والريح والخوف. عصاه ظلّت في المغارة.. وظل يركض. نفَسُه انقطع وروحه بدها تطلع. لولا صدره اللي أوسع من لوح الدراس كان قتلته الطريق والركض المجنون. وصل الدار نصّ قتيل، حلقه تصحّر من الرعب.

لما شافتُه مرّته على هالحال قالت: «اسم الله حولك وحواليك، مين لاحقك؟» ارتمى عند اجريها. جابت لُه طاسة الرّعبه. شرب ونام مثل القتيل».

قال عبد القادر: «سامع يا كُلّش. لِذّ لمعنى القول هذ. الزلام مش بالشوفات. يا شايف الزول يا خايب الرجا. احكيلهم يا خوي يا بو نمر حكاية الدردير وابو نايف. اسمعوا.. لِذّوا لمعنى القول..».

وراح أبو نمر يروي الحكاية. كان أبو نايف قصيراً مدملجاً ينفذ من الطاره. وكان قاطع طرق. وفي كثير من الأحيان لم يكن ينتظر إلى أن تجود عليه الطرق بالزبائن. كان يمرّ قرب البيوت يتبخّنها ليسطو عليها في الليل. مرّة، كان مع أبو نايف زميلان. أرادوا أن يتبخّنوا البيوت في قرية مجاورة. ولكن كيف يسير ثلاثة غرباء في قرية يتسكعون دون أن يلفتوا النظر؟

وقفوا عند البيادر يتداولون في الأمر وإذا بالدردير مقبل، يلبس ثياباً نظيفة، وشارباه الكثيفان الأشمطان يضيفان إلى وجهه مهابة، وطوله وعرضه يكتسحان العيون. لمعت الفكرة في رأس أبو نايف. رحّب بالدردير وسأله: إلى أين؟ قال الدردير: «إلى البيت». قال أبو نايف: «لا، إنت رايح معنا». وبين الوعد والوعيد أقنعه أن يذهب معهم لينزلوا ضيوفاً على دار فلان في القرية المجاورة. ثم اشترط عليه أبو نايف أن يسلك سلوك الوجهاء، فلا يتكلم إلا الضروري، ولا يتحدث عن أمور سخيفة.

ساروا إلى تلك القرية وتوجهوا إلى بيت الوجيه. عندما دخلت الجماعة البيت كان الترحاب بالدردير الذي بدت الوجاهة على سيماه، وقد قدّمه أبو نايف على الجميع. وضعوا له فرشتين في صدر المجلس وتوجهوا إليه بالتحيات والاهتمام وقدموا له القهوة قبل الجميع. نزلوا ضيوفاً على رجل يعرفون اسمه ولا يعرفهم. ولكنهم في الطريق إلى ذلك البيت كانوا ينظرون إلى ما حولهم بعيون الخبراء ويدرسون خارطة القرية، وحينما دخلوا البيت كانوا يدرسون مداخله ومخارجه وكل ما يلزم لمن قد يدخل في العتمة ويفتش عن أشياء خفيفة الحمل غالية الثمن.

انشغل البيت بتحضير الغداء للضيوف. الدردير ساكت وأبو نايف يدير دفّة الحديث ببراعة ويشير إشارات احترام وتقدير للدردير.

وكان أن مرّت صاحبة البيت وقد لحقتها بعض الصيصان الصغيرة، فإذا بالدردير يطلق صوته الجهوري يسأل المرأة:

«زَمانْ فقّسَت جاجتِكْ يا خَيْتا؟»

ذُهل أبو نايف ونظر المضيف باستهجان إلى هذا الوجيه الذي سكت دهراً حتى فضحه لسانه. الخابية الكبيرة وقعت وتطبّشت وطلعت - يا ويلي - فاضية.

قال عبد القادر: «سامع يا مهاوش. إسمع وتفقّه، شوف كيف لما ينحطّ في هيكل زلمه مشورَب لسان مرَه وخُرّاف مرَه. يا ويلي عَ شوال لِسفنج لما بغرق».

قال يحيى: «العقل والحنكة والنخوة مش مقسومة رجال ونسوان. وانت يا عبد بتعرف إنّه هناك نسوان أعقل من الرجال».

نظر أبو نمر نظرة متعالية وقال: «يا خوفي من علِمْكوا يا عمّي يا يحيى. بدكوا تخرّبوا بيتنا وتركّبوا النسوان عَ كتافنا. شو المره؟ خابية حفظت نفضت. ألله عاقب حوا أكثر من الرجل لأنها هي كانت السبب. سَخَط عقلها وسخّرها للرجل اللي خسر الجنة من تحت راسها. يا عمي إنت ناسي: «شاوروهن وخالفوهن»؟ وأجال بصره في من حوله ليكشف عن هبوب الريح فلقي أن حزب يحيى منحصر في يحيى، بينما ظل الآخرون يؤكدون بهزّ رؤوسهم انهم من حزب أبو نمر.

وعاد يحيى يقول: «كلّنا بنعرف الوالدة الكريمة أم ناصر، بتاخذ عشرين زلمه عَ البحر وبترجّعهم عطشانين..».

قال أبو نمر: «نعم، لكنها قدّام أبو ناصر بتعرف حدّها. حكمتها إنها بتعرف إنّه جوزها تاج راسها، وما بترفع عينها فيه. إسألني أنا إبنها».

قال مهاوش: «والله يا عمّي صحيح».

فكّر يحيى: أنا أعطيته الطابة. لما انتقلت إلى الساحة الشخصية تلقفها ببراعة ديماغوغية.

وعاد أبو نمر: يا عمي يا يحيى يمكن معك كَمْشة حقّ زغيره. في مخلوقات بثوب الزّلام، الواحد بشاريه بتكتّف الحرامي، وعنده نَخوه ومروّه، لكن بتيجي حُرمه بتفتل راسه، بلحقها

زيّ المضبوع وبتديره عن دينه.. أيوه بغيّر دينه منشانها. وانتو بتعرفوا عن مين بحكي.. هون في بلدنا صارت! قل لي: هذا زلمه اللي بتشلّحو دينُه مَرَه؟

«سامع يا كَلَشْ» - قال عبد القادر - مين بفوت دينه كرمال حرمه؟ الزلمه اللي جوهره زلمه، قلنا لك الزلام مش بالشوفات».

قال يحيى: «الدين لله. كل واحد منا بورث دينه. وكل واحد إلو حق لمّا بوعى يختار الدين اللي بقتنع فيه».

قال أبو نمر بشيء من ضيق الصّدر: «قول كمان: الدين لله والنساء للجميع على وزن الدين لله والوطن للجميع. يا عمي اللي بختار دينه بعد درس وتفكير.. مالُه.. لكن اللي الدكّه بِتحلّلُه دينُه - بلا مؤاخذه - هذا ما بمشي بشور راسُه، تقولوليش بشور إيش بمشي».

قال حامد: «كلنا بنعرف ليش الاثنين اللي بلمّح عليهم أبو نمر غيّروا عقيدتهم. أنا ما بدّي أدينهم. بكفي ديّان واحد للجميع. لكن ما تقلْ لي مش زلام. كلنا بنعرفهم وبنعرف انّه كل واحد منهم زلمه مُرّ قليلين امثالُه. ما حدا منهم دعس عَ طرف حدا، ولما بتنخاه بتلقاه عند عيونك».

أصبح الحوار حرجاً، فقد تحدّدت الشخصيات، وحديث أبو نمر يحمل تهماً مباشرة، وقد يسفر حديث الليلة عن أمور لا تُحمد عقباها حينما يصل الكلام إلى عنوانه.

تدارك أبو نمر: «ما تفهمونيش غَلَطْ. أنا أوّل من شهد بنخوة ورجولة الاثنين. وكل البلد بتعرف قيمتهم على الراس فوق العين. أنا قصدت بشكل عام.. اللي بتنازلوا عن دينهم كرمال حرمه. واحنا بنعرف انُّه السبب هون ما كان الحريم، مع انّه بعض الناس اللي ما بعرفوا حقيقة الأمر بتوهّموا هيك».

أجال يحيى نظره في من حوله فالتقت عيناه بعيون مستهجِنة إلا أنها تفهم سرّ الانقلاب ولا تستنكره، فليس هناك من يريد أن تتوتّر العلاقات بين أبي نمر وذينك الرجلين.

وفاجأ حامد الحاضرين بالسؤال: «بالمناسبة، ما هي أخبار مهيوب؟».

استذكر يحيى أن مهيوب ابن أحد هذين الرجلين هو قاتل محترف، تستأجره ليقتل من تريد.

كان أبوه متزوجاً من امرأة من القرية ولكنها لم تلد له الخلف. تزوّج بدوية من حوران ولدت له مهيوب وقد نشأ بين الخيل.كان دون السنّ القانونية عندما تورّط في سرقة عروسين في القرية المجاورة. أفاق العريس وتصدّى للص فبادره هذا بطعنة خنجر قتلته. وظل مهيوب في السجن حتى بلغ الخامسة والعشرين من عمره فأخلي سبيله. في السجن تخرّج على أيدي المجرمين العريقين وبرع. حدّث أنه استخدم الفار في السجن لينقل السجاير. صدّق أو لا تصدّق – هكذا يُروى، والناس يتبارون في وصف براعته.

كانت عيناه، إذا ثبّتّ نظرك فيه، تبعثان الرعب. وكان قليل الكلام.

تزوّج المعلمة سليمة (من قرية مجاورة) وكنت لا تراه إلا أنيق الملبس، رشيق الحركة. قيل إنه يؤجر كفّه ومسدّسه لمن يحسن الدفع وكتم السرّ. ويعزى إليه قتل فلان وفلان.. وفلان. بعض هؤلاء القتلى متّهمون في وطنيتهم، وبعضهم ممن ثار بينهم الصراع في أعقاب ما حدث من إرهاب فردي عندما بدأ التشويه يلحق ببعض أعمال ثورة ١٩٣٦.

قالوا – كانت المهمّة قتل واحد من العائلتين اللتين اشتبكتا في القتل والثأر وثأر الثأر. وكان هذا المرشح للقتل صديقاً لمهيوب، ولكن للرّزق أخلاقه ومتطلباته. ترصّد مهيوب ضحيّته وكاد ينفّذ المهمّة لولا أنّ رجلاً من أقرباء المغدور رآه من خلف، فاجأه، أمسك به وأسقط المسدس. طوّق الجيش بيت مهيوب، ولكنه استطاع أن يهرب من الشباك القبلي ومعه مسدّس. في المطاردة أطلقوا عليه الرصاص، جُرح في رجله ولكنّه أفلح في الفرار واجتياز نهر الأردن، إلى أخواله في حوران.

عاد مهيوب بعد حين إلى قرية زوجته ولجأ إلى أنسبائه هناك. يُقال أنه اختبأ في مغارة بظاهر القرية.

وقع السؤال عن أخبار مهيوب على الحاضرين وكأنه غراب اقتحم الباب فزعق وحوّم في فضاء الغرفة ثم وقف عند حافة متخّت يجيل النظر في الحاضرين.

أي سؤال هذا؟ ومن يجيب عليه في محضر كهذا أمام زوّار طارئين. هل أراد حامد من سؤاله هذا تلميحاً بالتهديد لناصر الذي لم يوفر والد مهيوب في حديثه؟

لم يجب أحد عن السؤال، ولكن المجلس كله أخذ يتبعثر، بصمت لا يقطعه إلا تمتمات: «تصبحوا على خير» بصوت باهت خافت.

قال الراوي: ظل مهيوب مطارَداً إلى أن ألقي عليه القبض في تلك المغارة. وقد أدين وحُكم عليه بالإعدام. فقضى زمناً في السجن بين الاستئناف والاسترحام، إلى أن نُفّذ فيه حكم الإعدام شنقاً في السجن المركزي في عكا.

34. لمياء

ما زالت رطوبة تلك القبلة على شفتيه.

كان في سريره على الجسر بين النوم واليقظة أقرب إلى إقليم اليقَظة.

شلال حرير ينهال على وجهه ودفء رطب يطوّق شفتيه ويعصرهما. مسام جسمه كلّها تُستَنفَر.. تتفتّح.. تتمطى وتنتَشي.

لهذا الوجه الذي يغطّي وجهه رائحة ترفّ في وعيه كجناحَي الحسّون. وعيه يتزلزل ويحلّق. إنه ليس مجرّد عطر. هل هي الأنوثة تتوهّج وتبث سحرها من كهف غامض سحيق؟ سؤال استثاره فيما بعد وظلّ يحاوره.

حاول أن يفتح عينيه لكن شعرها الناعم كان يغطيهما ويتماوج فوق جفونه.

تراخى الطوق على شفتيه برهةً وارتفع وجهها قليلاً ثم عاد شعرها يخيّم على وجهه وشفتاها تعيدان احتضان شفتيه فتجاوبت شفتاه. تعانقت غيمتان فكان برق ورعد أصداؤه على السّفوح والأودية. أجفلت شفتاها. انحسر شعرها وارتفع وجهها.

كان يحيى في ربيعه الرابع عشر. وكانت بكارته كحبّة التين أوّل ما يناجيها الرحيق وقبل أن تعالجها مناقير العصافير.

«الفتنة نائمة لعن اللّه من أيقظها».

قال الشارح: ظلّ يحيى يستدرك على هذا الحديث الشريف مستغفراً ويقول: أما هذه الفتنة فليغفر الله لمن أيقظها فهي رسالة الغيث إلى الأرض الواعدة الموعودة.

قالت بصوت يتعانق فيه الشعاع والعسل والمطر:
«يا صباح الفُلّ!».
وقبّلته هذه المرة في خدّيه وشعرها يتأرجح على وجهه.

ردّ على تحيّتها بصوت فاجأه كأنه المولود الجديد، رنّتُه مذهلةٌ وبيانه في غموضه.

سريره جار الشباك الشرقيّ وقد تدفّق ضياء الشروق منه كأنه قطيع من الأرانب البيضاء المذعورة المشرَعة الآذان.

لم يكن وحده في الغرفة، ففيها أخَوان آخران ولا بدّ أن يستيقظا أيضاً.

أما ملاك اليقظة فكان هذه المرأة قريبة أمّه، وقد حملها زواجها القريب إلى بلد بعيد بجوار القدس. جاءت ضيفة تقيم بضعة أيام في بيت عائلة يحيى.

كانت مكتنزة الجسم. بياضها كالحليب الذي تعشقه موجة شقراء من العسل. في صوتها غنج يحتضنك فترافقه إلى حيث يشاء. وشعرها الخرّوبيّ أطفال سمر يلهون بالركض على شواطئ الجبين والخدّين.

لم يرَ يحيى ذلك كله قبل زلزال تلك القبلة. حين احتضنته قبل يومين وقبّلته على خدّيه لم يجفل عصفور ولم تتحرك حبّة رمل.

الآن فقط - وهو على جبل التجلّي - تتفتّح عيناه على ضياء جديد ويرتعش وعيه في غمرة جدول فجّر ينبوعه الصّخر وتدفّق.

ويتساءل الشارح: هل استترت وراء قبلة تلك المرأة نوايا لم تكن واضحة لها فارتعد التوازن بين الاستلطاف الحبيب وبين ما يتعدّى ذلك؟

أجفلت عندما أحسّت بتجاوب شفتي يحيى مع القبلة فتحولت إلى الخدّين.

وحدّق يحيى في العينين فلم تكن فيهما محاولة للتلميح أو الإيماء بما يتعدّى حدود الاستلطاف. في لحظة عابرة أحسّ أن هناك فلكاً من الشموس يدور فيه ويدور به وأن للدنيا

مذاقاً ساحراً يهزّ كيانه.

بقيت الضيفة أياماً ولكنّ قبلة الصباح لم تتكرّر وقد أخذ الفتى يغضّ الطرْفَ كلما اصطدمت نظرته بنظرتها، ولكنه يسترق النظر اليها يتأملها، وكأنه يرتشف عصير التفّاح.

لا شكّ أنها أحسّت بارتباك الفتى وأدركت سرّه، فهذه المشاعر تُدرك بالإشعاع، ولكنها تعاملت معه بكل لطف يؤكّد المحبة التي لا تتجاوز قبلة الخدّ. وعندما ودّعت العائلة وقبّلته على خدّه أحسّت ارتعاشته واستسلامه، بل رأت دمعة صغيرة تفرّ من مآقيه.

احتلّت هذه التجربة أحلامه أثناء النوم وأثناء اليقظة وكان يلوّن الموقف بألوان مختلفة كما تشاء له الأمنيات فإذا بالحدَث يتطوّر ويتغيّر.. تتّسع عناصره وتتواصل.

ظلّ يحسّ الوهج على شفتيه ورطوبة شفتيها تؤكد له دائماً أن تلك التجربة لم تكن وهماً، بل كانت حقيقة ارتعش لها كيانه وأحسّ بجناحين يرفّان به ويحلّقان في الفضاء.

*

في صيف تلك السنة التحق مع أخيه بالعائلة في رام الله لقضاء العطلة الصيفية هناك.

البيت الذي استأجره الوالد على السفح المحاذي لشارع الإذاعة تحيطه غابة صغيرة من أشجار الصنوبر تعانق قرميده المكتسي حمرة حائلة، وهمسُ الشجر لا يكفّ أبداً. حوار قد تعلو نبراته حيناً ولكنْ غالباً ما يكون مخمليًا ليّناً.. خفيفاً متأملاً ساهماً في شرود. وسرعان ما نشأت صداقة حميمة بين يحيى وبين بعض الفتية الجيران زارهم وزاروه وتنزّهوا معاً على شارع الإذاعة. لم يكن ذلك الشارع آنذاك يغصّ بالبيوت كما هي حاله اليوم. كان رائعاً بطابعه الريفيّ. كل بيت محاط ببستان وقد ندُرت فيه حركة السيارات وكثر فيه المتنزّهون الذين يمشون في مجموعات صغيرة يتحادثون بأصوات خفيفة تحترم نعومة الحفيف.

التحق يحيى بالمدرسة الصيفية التي أقامتها مدرسة «الفرندز»، وجعلتها في عمارة مدرسة البنات وهي غير عمارة البنين.

أوّل ما فاجأه وأعجبه في تلك المدرسة الصيفية أنها تجمع بين البنين والبنات. هذه تجربة جديدة يعيشها بلهفة فلم يكن آنذاك تعليم مختلَط في مدارس البلاد، بل إن مدرسة الفرندز

ذاتها لم تحقق التعليم المختلط أثناء السنة الدراسية. لا يدري يحيى ما هي الاعتبارات التي أتاحت ذلك الاختلاط في موسم الصيف.. ولكن لماذا السؤال عن أمر معجبٍ يتحقّق؟

كان البرنامج ممتعاً يُراد فيه الترويح عن التلميذ في عطلته وإشراكه في نشاط فنّي فيه النشيد وتمثيل المشاهد المسرحية والرسم والأشغال اليدويّة، وقد قُسم المشاركون إلى فرق عمل مختلطة أيضاً.

أحبّ يحيى أجواء هذه «المدرسة» وأقبل عليها بحماس. لا مكان هنا للملابس الخاكي الموحّدة، ولذلك لقيت أمه عَنَتاً في إعداد ملابسه يومياً. اشترت له بعض الملابس الجديدة. اهتمّ اهتماماً خاصاً بهندامه وتسريح شعره، فهو حين يلبس في الصباح يفكّر في العيون التي ستنظر اليه وينظر اليها هناك. هذا اللقاء بين التلاميذ والتلميذات يشحذ الحواس ويجعل المرء واعياً لحركته وصوته وسائر تصرّفاته.. سواء في ذلك البنون والبنات. هل يجتاز السلوك مَطْهَراً يتسامى بالمشاعر ويأبى التصرفات المحرجة غير المشذّبة؟ يحاول المرء أن يتجلّى بأفضل ما فيه من الصّفات الخيّرة، ويظلّ متوتّر الوعي بذلك.

البنات في مثل جيله أو أكبر قليلاً. يبدو أنهن من عائلات الطبقة المتوسطة الميسورة، ترى ذلك في ملابسهن وسلوكهن الذي يحرص على مراعاة «الإتيكيت».

منذ الأسبوع الأول احتواه جمال لمياء وحضورها. كان صوتها دافئاً كشمس الربيع وضفيرتها تتشيْطَن على ظهرها تغري الأصابع بلمسها والتأرجح معها. تسحر بطيبة قلبها. على الخدّين غمّازتان كأنهما سُرّتا تفّاحتين. في مشيتها ثقة بالنفس ورشاقة آسرة.

يقول الراوي: صدّقوا المحبّ أنه يرى محبوبته كما يصفها فلكل عين زاوية للنظر، وكل شيء يُرى عبر الضوء الذي يُسلّط عليه. قال أحدهم لمن لامَه في حقيقة حُسن محبوبته: خُذ عينيّ وانظر بهما لترى حقيقة الحسن كما أراه.

كان للمياء مجال مغناطيسيّ لم يستطع يحيى أن يتفاداه. بل لعلّ يحيى ألقى بنفسه طوعاً في ذلك المجال.

اختارت لمياء الفرقة التي اختارها والتي كان عليها أن تعدّ مشهداً مسرحياً يكتبه الأعضاء ويمثلونه في الاحتفال النهائي. واختار العمل في تلك الفرقة أيضاً فتاتان أخريان

وفتى آخر.

وكانت مناقشة موضوع المشهد وشخوصه، وفي ذلك كله كانت لمياء بارعة الفكر والخيال. أخذ يحيى على عاتقه أن يكتب المشهد فاقترحت أن تشاركه.. فرحّب بحماس.

في اليوم التالي حمل يحيى نصًا قضى وقتاً في كتابته في البيت، وقد بكّر إلى المدرسة فأدهشه أن لمياء سبقته. جلست على المقعد الطويل تحت شجرة الصنوبر العتيقة، بينما وقف في زاوية قريبة ثلاثة أو أربعة من الزملاء يتحدّثون بهدوء.

اقترب يحيى من المقعد فوقفت لمياء باسمةً تحيّيه. دعته ليجلس قربها.
قال: «أريد أن أقرأ لك النصّ».

فتحت محفظتها وأخرجت منها حبّتين من الحلوى، قدّمت له واحدة وهي تنظر في عينيه وتقول:
«ليكونَ يومنا حلواً».

التقت العينان بالعينين، وكأنما انفتح دهليز أسطوريّ تستقبله فيه أبواب متلاحقة ينفتح كل منها مغرّداً له ويتدفّق عبره شلال من الضياء. ثمّ طوّفت به دوامة عنيفة من الأحاسيس العذبة غيّبته في أقاليم بعيدة.
باحَت الغمّازتان بارتعاشة القلب، وساد صمت صاخب برهة، وكادت الأيدي تتقارب لتتعانق.. ولكن الساحة عيون تُتّقى، والصمت أبلغ تعبير.

في صباح اليوم التالي عندما غادر البيت أغلق الباب وراءه لئلا يراه أحد من أهله وهو يقطف زهرة فُلّ من الحديقة عند المدخل. لا يريد أن يحرجه أي سؤال أو تعليق عابث: منذ متى تحمل الفلّ إلى المدرسة؟ ولمن؟

كانت لمياء قد سبقته اليوم أيضاً. جلست على المقعد ذاته في الموضع نفسه. وقفت تستقبله باسمة مرحّبةً، وعندما أعطاها زهرة الفلّ لمعت عيناها بهناء وشمّتها بلهفة منعشة.

استمرّ تبادل الهدايا الصغيرة في الأيام التالية. كانا يتسابقان في التبكير، ويحاولان التباطؤ في الرّواح في الظهيرة.

ذات أصيل جلس تحت إحدى أشجار الصنوبر يكتب لها قصيدة. كانت معركته مع الكلمات عنيفة. تمرّ الكلمات بخاطره يستعرضها كما يستعرض المحكّمون الفتيات في مسابقات الجمال. لكن كل كلمة تبدو له عاجزة عن التعبير عن فيض مشاعره.

الدنيا أصغر من أن تتّسع لطيرانه، فكيف تتّسع الكلمات. بل كلّ القواميس.

وأخيراً تجسّدت قصيدة أتاح لها النغم المنعقد من الوزن والقافية وصدق الوصف رضىً في نفسه. وراح يرسّخ هذا الرضى بإنشاد الأبيات أمام أنسام الأصيل.. مؤكداً في كل بيت إيقاعه الوزنيّ، ونافخاً في كل حرف من وهج الأحاسيس. خُيِّل إليه أن الصنوبرة تهتزّ أغصانها طرباً.

لعلّه لم ينم تلك الليلة، فهو يستعجل الشروق. كان خياله حافلاً بالمشاهد التي يرسمها لوقع القصيدة عليها.

بكّر كثيراً في ذلك الصباح. كان أول وافد على الساحة وكان يتلو الأبيات بصوت مسموع، ينشدها مكرّراً بعضها وعيناه ترصدان الشارع الذي ستكرّمه لمياء بمشية الفراشة العطِرة.

هل يقرأ لها القصيدة فتتعرّى نفسه أمامها؟ لا يمكنه أن يفعل ذلك في الساحة على هذاالمقعد. فهناك كثيرون حولهما، ولا يمكنه أن ينطلق على سجيّته. إذن سيعطيها الورقة لتقرأها وهو يراقب ردود فعلها. يأتي إليه أول من جاء بعده. حيّاه وشرع في الحديث معه، وجاء آخرون من الفتيات والفتيان فانضمّوا إلى الحلقة. لماذا لا يتركونه وحده لينفرد بها حين تجيء؟ ولكن هل يستطيع أن يصارحهم بذلك؟ الحديث يدور من حوله وعيناه شاردتان ترصدان الطريق.

وأخيراً تسارع نبضه ورقص قلبه على أنغام وافدة. دخلت لمياء الساحة كأنها نهر من النّهار.

نظرت إلى المقعد فوجدته محاطاً بجماعة كبيرة وفيهم يحيى الذي لم يستطع أن يبقى واقفاً في مكانه بل أخذ يتحرك نحوها مرحّباً.

لا بدّ من إرجاء مشهد القصيدة. لا شك أن كثيرين يحسّون بما يدور بينه وبينها. الحُبّ

متمرِّد على كل شيء، ومهما يحاول أن يتكتّم فلا بدّ أن ينكشف. قال الشاعر: «الصَبُّ تفضحُهُ عيونُه». وغير حكايته هو هناك حكايات أخرى يتهامس بها الزملاء ويعرفها أو يحدس هو بها. تمرّ به أحياناً بعض النظرات التي تقول له: لم تعد حكايتك من الأسرار. إننا نعرف.

- ليعرفوا وليقولوا ما يشاؤون. لماذا يحاول الإنسان أن يعكّر سعادة الآخرين؟ أريد أن أقف على قمّة الدنيا وأقول: أحبّها.

لكن المسافة بين الخاطر والفعل بعيدة.. بعيدة جداً. وكأنّما الحبّ بليّة أو بلوى، ولا بدّ من العمل بالقول: «وإذا بُليتُم فاستَتِروا».

عندما قُرِع الجرس تلكأ في الدخول. فتح الكتاب الذي خبّأ فيه القصيدة. زاد الورقة طيًّا وأعطاها إياها في كفّها المطويّة فيما هما يمشيان.

- «إقرأيها وقولي ما رأيك».

أشارت اليه أن يدخل، فسوف تظل في الخارج حيناً.

دخل وعيناه تتلفّتان إليها. عثر بعتبة الباب فصَحا وتابع سيره حيث الزملاء كلّهم.. إلا واحدة.

فارقه التركيز. كان يودّ لو يراها وهي تقرأ القصيدة.

تلا أبيات القصيدة في خاطره وحاول أن يتخيّل وقع كل بيت في نفسها.

وقف الجميع يرتّلون تسبيحة تلتها أناشيد تنعقد أنغامها أقواساً في جوّ القاعة الرحبة، ولكنه لا يحسّ إلا بغيمة لحن يتماوج في الفضاء وعلى خلفيته يرسم تأملاته لمشهد لمياء والقصيدة. كان يفتح فمه ويغلقه مع تضاريس النغم الذي تردّد من حوله، ولكنه بعيد عن عالمه.

احتضنتها عيناه بلهفة حينما دخلت. كانت عيناها تبحثان عنه بين الواقفين المرتّلين.. وقفت تشارك في الترتيل. أحسّ بها تحلّق في فضاء من اللهفة المطمئنة.

عندما تفرّق التلاميذ فرقاً الى غرف مختلفة مشى متلكئاً الى الممرّ الطويل فلحقت به ووضعت في يده ورقة مطوية لم يستطع أن ينتظر لينتهز فرصة لقراءتها فيما بعد. فتحها وإذا فيها هذه الكلمات الثلاث: «أحبّك، أحبّك، أحبّك!».

غرق في بحر من الأحاسيس المتلاطمة، وحلّق في سماوات ملوّنة على جناح قوس قزح باهر. وتساءل في نفسه: أيّهما أبلغ قصيدته أم قصيدتها؟ هذه الكلمات الثلاث أحلى وأبلغ قصيدة يمكن أن يسمعها. لم تُعانِ في كتابتها ما عانى هو في قصيدته. قالت بيُسر وصراحة ما سعى أن يرسمه محوّماً.

نظر في عينيها ونظرت في عينيه، عصفوران في قفصين لم يفلحا في أن يتعانق الجناحان فتعانق القلبان.

لم تستطع العيون إلا البوح المغرّد بالحب، وكأنما اعترفت الفرقة أثناء عملها بهذا الحُبّ فاحترمته..

ويبدو أن زميله الآخر في هذه الفرقة، فريد والزميلة هيام كانا يبثان مشاعرهما على نفس الموجة.. وظلّت سعاد لا تجد الفلك الذي يحتويها، ولكنها - كما بدا لمن حولها - لم تعانِ من ذلك.

لم يحاولا أن يلتقيا بعد الدوام، فكان الورق مستودع السّر. كان كلّ منهما يلجأ بعد الظهر أو في المساء الى الكتابة، فتحتشد المشاعر والخواطر والأحلام ثم تُبيَّض الرسالة بخط جميل وتُعَدُّ الى بريد الغد. كانت تسكن قلبه وفضاءه وتحتلّ الزمان والمكان، ترتسم في غده ويراها في بيته هنا وفي بيتها هناك. وكانت رسائلها حارّة ذكيّة، تدخل به الى حياتها تحدثه عن يومها وأمسها وغدها.. والغد حلم مشترك.

عبر حديثها عرف أباها وأمّها وإخوتها، وانزعج من أخيها الأصغر الذي يعاكسها. أحبّ عائلتها دون أن يرى أحداً منها، ولكنّها قدّمته إلى والديها يوم حضرا حفلة اختتام المدرسة الصيفية وصفّقا كثيراً للمشهد الذي شاركت فيه ابنتهما.

في ذلك اليوم كان حصاد الفرقة وفيراً، فقد صفّق الجمهور كثيراً للمشهد، ولإبداع الممثلين.

وكان الوداع في ذلك اليوم قاسياً لم يدركا مدى قساوته في تلك اللحظة.. ولكنّنا نحسّ بألم الضربة أشدّ بعد حين.

غرقت بالدموع العيون، واشتد ضغط اليد على اليد، وانطلقت الوعود بالوفاء والكتابة

المتواصلة. قالت بأنها مسافرة مع عائلتها غداً الى يافا، وسوف تعود مع بدء السنة الدراسية بعد أسبوعين، وآنذاك تجدّد الكتابة.

سارت الأيام التالية بأقدام الفيل على صدره، والضباب الكثيب الكثيف على روحه. لوعة الفراق تزداد لهيباً، يهرب الى الكتابة يكتب يوميات سيبعث بها اليها حين تعود.

يتعزّى بصديقين، أولهما شوقي الذي كان زميله في المدرسة الصيفية وبيته قريب، على أم شارع الإذاعة. كانا يقومان برحلات إلى الوادي والجبال المجاورة. الطبيعة ساحرة والحديث كالقنابر يتقافز ويتنقّل لا يحدّه موضوع ولا تقيّده كلفة.

سأله شوقي عما أشيع عن حكايته ولمياء فلم ينكر بل فتح قلبه وحدّثه عن حزنه لذلك الفراق الذي كان يخشى أن يكون نهائياً. وكان يسعى إلى العودة لذكرها كلما وجد إلى ذلك سبيلاً، يسأل عن أهلها ويحدّث عن ذكائها ودورها في إعداد البرنامج، ويسأل شوقي إن لم تكن له لمياؤه ويسعده أن يسمع حكاية بنت الجيران وسهرات العائلتين، والتذرّع بالمساعدة في حلّ بعض الأسئلة الرياضية، والهدايا الصغيرة.. كل البراعم يفتحها الندى وكل القلوب يوقظها الحبّ. لكل طير فضاؤه ولكل حنجرة أوتارها وأنغامها.

أما صديقه الثاني فريد فكان أكبر منه بسنتين. وهو ابن الجيران أصحاب الدار التي استأجرها والد يحيى. لم يكن يبدو عليه أنه عرف نعمة الحب. استنتج يحيى ذلك يوم كانا ذاهبين الى النادي التابع لمدرسة الفرندز للبنين. على السفح، قريباً من البيت كانت امرأة لعلها في أواخر العشرين نصبت سلّماً صغيراً عليه لوحة من الورق المقوّى وهي ترسم مشهد الوادي بالألوان المائية. ملامحها تشير الى أنها أجنبية. حيّاها فريد بالإنكليزية فردّت عليه التحية بابتسامة رقيقة. استأذنا - بالإنكليزية - أن يتفرجا قليلاً فلم تمانع. مضت في الرسم وكان شعرها الأشقر يتراقص حول وجهها فتردّه بيُسراها بينما تتابع يمناها توجيه الفرشاة والألوان على اللوحة. كانت الفنانة جميلة. وقد مضى فريد يتأمل وجهها وشفتيها الممتلئتين.. ثم قال ليحيى باللغة العربية:

- «آه على قبلة من هاتين الشفتين».

رفعت المرأة رأسها نحو فريد وقالت بلغة عربية تتعثر بشيء من اللكنة:

- «يا عيب الشوم عليك».

أذهلت المفاجأة الإثنين فأسرعا يبتعدان عن موقع الخزي، وقد احمرّ وجه فريد وقال:

- «يا فضيحتك يا فريد، عربية ملعون أبوها!».

قال يحيى الغارق حبّا في لمياء لنفسه: لو أن فريداً كان عاشقاً مثله لما استطاع أن يقول ذلك لتلك المرأة، حتى ولو كان ذلك على سبيل العبث العابر.

ساقهما سوط الذهول والاضطراب سريعاً الى النادي، وكان من برامج ذلك النهار تعلّم بعض الأغاني الفولكلورية الفلسطينية التي سجّلها أستاذ الموسيقى الأميركي المستر فولي. وقد أعجب يحيى بواحدة من تلك الأغنيات لما فيها من تلاعب على بعض الحروف وتكرير بعض مقاطع الكلمات. يقول مطلع تلك الأغنية:

يا طالعين عَ الجبل / ما موقدين النار / بالفرح يا عين بالهنا يا روح
لا بدّي منكُم خَلعَه / ولا بـدّي زُنّـار / بالفرح يا عين بالهنا يا روح
إلا غـزال الـذي / جـوّاتكم بالـدار / بالفرح يا عين بالهنا يا روح

فتصبح «ع الجبل» عيلللجبل»، وتصبح «موقدين» «مولوقدين»، ثم «بلللفرح يا عين»، «بيلللهنا يا روح» كان يحيى يترنّم بهذه الأغنية ويرى في لمياء ذلك الغزال في حلّها وترحالها، فتتّسع أبعاد الأغنية ويعبق جمالها.

بعد أسبوع كانت العائلة في طريق العودة، تغادر رام الله الى الناصرة.

بعث يحيى برسالة الى لمياء وفيها عنوانه الجديد، وانتظر أسبوعين وثالثاً دون ردّ. بعث برسالة الى صديقه شوقي لعلّه يعرف السبب. بعد بضعة أيام جاءت رسالة شوقي تبلغه أن لمياء وعائلتها انتقلت الى يافا.. ولا يعرفون عنوانهم هناك.. وهي بالطبع لا تعرف كيف تتّصل.

35. هرمزان

انخفضت الغيوم إلى بضع قامات من البيوت لتعين المساء الذي حمل نبع الحبر الأسود وراح يلطّخ الأفق ويشوّش ملامح البيوت والأشجار والأشياء. وبعثت الريح صبيانها تلعب في الحارات بالأوراق اليابسة والعلب الفارغة وتهزّ الشبابيك والأبواب وتتراكض في صخب ومجون.

العتمة والبرد يقبضان النفس. لم يكن يحيى راغباً في القراءة. جلس يستمع إلى الطبيعة وخطوات المساء.

دقّ على الباب. دخل ناجي. مسّى ثم قال: «تعال نسهر عند دار أبو صالح».

- «لا أعرف الرجل إلا من بعيد، ولا أعرف من يحضر السهرة».
- «بدك كرت عزيمة؟ الباب مفتوح. دُقّ ومسّي».

ناجي في مثل سن يحيى، وهو مربوع. استعار وجهه لون الحنطة قبل أن تُنخّل، بل لعله أكثر سمرة. شعره يلمع، يذيع فضل زيت الشعر الذي اهتدى إليه في دكان سَرْوِه، يقول: «أحسن كْييم» وقد استسلم لسانه أمام حرف الراء العسير وقلبها ياءً. وهو طيّب القلب لا يبالي حين يطلق صراحته إذا خدشت أو جرحت: «قل للأعور أعور في عينُه». قلما ينخفض صوته. ولماذا يهمس؟ «المخبّأ بندوق». قد يتصور البعض أن تصرفاته انفعالية عفويّة، ولكنك حين تعرفه ترى أنه يتعامل مع الفكرة التي تطرأ له كما يتعامل الخباز مع العجين: يقطّع ويرقّ ويخمّر ثم يخبز. ليته لم يكن كذلك حين بيّت - بعد سنين بتحريض من أحد إخوته -

لاغتيال قريبة. كانت الفتاة ضحية بريئة، وكان التوقيت في الزمن الخالي من سلطة تحاسب أو تحاكم، في الهامش بين خروج المحتلّ البريطاني وحلول من يليه.

في جانب من ساحة دار أبو صالح غرفة صغيرة جعلها مضافة للسامرين في ليالي الشتاء. على الأرض حصيرة عليها دواشك ومساند. تخلع حذاءك عند الباب وتتربع على الدوشك. والمضافة مليئة من مختلف الأجيال. في جانب الغرفة منقل عليه أباريق قهوة وجَمْرُه ينتحر ليبعث الدفء. وعلى الحائط صُلِب قنديل شاحب يذكّرك بوجوده كلما سعلت ذُبالته فتخفق الشعلة مصحوبة بدخان ثم تنخفض راجفة.

مسّى ناجي وقال: معي ضيف.

ابتسم يحيى ومسّى.

– «هذا الضيف ابن بلد قبلك».

رحّبوا وجلس يحيى إلى يمين أبو سليم.

كان هرمزان قاعداً على ركبة ونص وقد انتصب ظهره وهدر حديثه فانقطع عند دخول الشابين.

يستمر الترحاب بالضيوف بعد الجلوس، فيتوجه عدد من الحاضرين بالتحيات. كان أول من بادر إلى التحية هرمزان الذي أراد أن ينتهي هذا الطقس سريعاً لينهي حكايته.

تطوّع موسى بإعادة الحكاية إلى مجراها: «خلّوا الحكّا يكمّل حكايته، أبو العبد حكى لنا أنه كان يصطاد في بحر حيفا».

وانطلق هرمزان يكمّل: «دايماً بَسَمّي لمّا برمي الشبكة حتى تتمّ البركة. وشبكة أبو العبد أكبر من كل شباك الصيادين اللي علِمَك فيهم. فَرْشَت الشبكة – اللهم عينّي على الصدق – على مساحة دونمين». وحدّق في وجوه من حوله ومسبحته الرخيصة في كفّه اليسرى تتساقط حباتها بين الحين والحين نُقطاً وفواصل لجُمَله.

– «لما بَديت اسحب – يا حفيظ السلامة – أبو العبد وكل قوّته يا دوب يزحزحها. ناديت على الصيادين والناس حواليّ.. أربعين خمسين واحد فزعوا. لو ربطوا ترين بحبل سحبوه. لكن كل قوّتهم ومعونة الميّ على السحب بالكاد وصّلت الشبكة لشارع الملوك – على الشط.. والا فيها سمكة بتخابط. أكبر من أي حوت. صارت الناس حواليّ تسمّي وتتعجب.

لما وصلت الشبكة على شارع الملوك سدّته.. وهات حركها.. أبداً. السمكة بتخابط والناس كثرت. السيارات وقفت من الجنبين. كيف تفتح الطريق للسيارات يابو العبد؟ شارع الملوك شارع رئيسي. المصالح تعطّلت. قدحت الفكرة براس محسوبكو أبو العبد. ناديت: كل واحد يجيب فاس. ورحنا يا حفيظ السلامة نحفر عينين السمكة من الناحيتين حتى فتحنا ممرّ للسيارات. السيارة تهدّي وتمرق من عين السمكة هاي وتطلع من العين الثانية.. فُرجة راحت على اللي ما شاف».

- «بدك حدا يرتّب حركة السير من الناحيتين»، قال أبو نايف وفي صوته الكثير من السخرية.

وصاح ناجي: «ذمّتك يابو العبد أوسع من عين سمكتك».

قال مهاوش: «ألله لا يسامحك يا هرمزان. ولكْ هذا الحوت اللي بلع يونان النبي».

تدخّل أبو سليم معترضاً: «لا.. لا.. أبو العبد بحكي عن اللي صار معه وأنا بحكي لكو شو صار معي. يوم من الأيام كنت رايح ع طبريا. كان موسم الزيتون. مرقت من زتون كفر كنا. لقيت أهل البلد كلهم مجتمعين على زتونه روميّه - ألله يبارك - بقعد بفيّتها ألف شخص. يعمي عين الحسود - حاملة من عيونها: ناس تجِدّ الفروع وناس تلقّط الحبّ وناس تحمّل الزتون في شوالات وتنقل للمعاصر. قالوا صارلهم جمعتين وما لقّطوا ربع الزتونة. بعد جمعة وانا راجع من طبريا لقيت الناس بعدهم بلقّطوا بهالزتونه.. بقي حوالي نصّها، يا بركة الله، يمكن بدهم كمان جمعتين».

لم يستطع هرمزان أن يحتمل: «مش يمكن زوّدْتها يا بو سليم؟ أي هو في زتونه هلقدّ كبيره؟».

قال أبو سليم: «عجيب يا بو العبد، لازم تكون الزتونه أكبر من هيك حتى تجيب زيت نقلي سمكتك».

ضحك الجميع إلا هرمزان، لكنه لم يُحرَج وظل في قعدته تلك مستعداً لرواية المزيد.

هرمزان انتمى إلى القرية بالمصاهرة. جاء من مدينة بعيدة. تزوّج إحدى بنات القرية وأقام هنا. واشتهر بحكاياته التي يجمح فيها الخيال إلى ما وراء آفاق التصديق. يروي الحكاية على أنه بطلها ويؤكد على موقع الحدث. من تلك الحكايات ما يروى عن أناس آخرين في

أماكن أخرى مثل حكاية الكوسا الزاحفة.

حدّث أبو العبد قال: «ليلة من الليالي كنت نايم في مقثاة في أرض الغور جنب بيسان. كنت نايم حدّ بيت كوسا. يا دوب نمت نص ساعة وإلا إشي بنخزني في خصرتي. فقت والا كوسايه مدّت وكبرت وصلت عندي. لا حول ولا قوّة إلا بالله.. أبعدت عشرين متر ونمت. بعد نصّ ساعة والا إشي بدفشني.. فقت والا الكوساية لحقتني. قلت لحالي: «ألله بعينك يابو العبد. أنقل. أبعدت أكثر من عشرين متر. بعد نصّ ساعة وإلا إشي بدقّني بجنبي.. فقت.. الكوساية لاحقة.. وظلّت لاحقتني طول الليل للصّبح، أنا بنهزم منها وهي بتلحقني. صدّق وآمِن مدّت حالها أكثر من مايتين متر. ألله يبارك».

كان هرمزان فناناً ينفخ خياله في الأشياء فتكبر وتتّسع. ولماذا لا تقبل منه مبالغاته بينما نقبلها من الشعر؟ ألم يقولوا: أعذب الشعر أكذبه؟ أما سمعتم الشاعر قطريّ بن الفجاءة يحدثنا كيف اتخذ من ظِلّ العقاب – ذلك الطير المتواضع الشكل – وقاية لمهره من حرارة الشمس أثناء المعركة؟

قال:

يا رُبَّ ظِلّ عُقابٍ قد وقَيْتُ بها　　　مُهري من الشمس، والأبطال تجتلدُ

وقد رأى بعضهم في ذلك «صورة القدّيس الفارس»، بل صورة الإله الفرعوني المنتقم لأبيه حورس وقد نشر فوقه الصقر جناحيه، أو صورة الملك الأشوري سرجون أو القدّيسين في الإيقونات المسيحية والملائكة المجنّحة ترفرف في زواياها.. هذا إذا لم نأخذ بالتفسير الآخر لكلمة «العُقاب» وهو «الراية».

يقول هرمزان: «ألله يلعن الفقر. لو كنت غني كان صدّقوني الناس وحلفوا يمين إنه كلامي صحيح. ألله يسامحهم».

ويظل الناس يتسلّون بتلك الحكايات ويروونها عنه مع مزيد من البهارات، وممّا يزيد في نكهتها أنها تتخذ من المواقع المعروفة مسرحاً. ويظل الناس ينتظرون المزيد من المغامرات الهرمزانية يلوّنون بها ليالي الموقد في الشتاء أو ليالي القمر على البيادر. وقد تنسب إليه حكايات لم يحكها هو بل سمعها الناس من آخرين عن آخرين في أماكن أخرى، ولكن نسبتها إليه تضيف إليها بعداً آخر ومذاقاً خاصاً.

بعد حين انتقل الحديث إلى الموسم وهموم الفلاحة. لكنّ ناجي بادر إلى زاوية الغرفة. تناول طبق القشّ وأخذ يصُفّ عليه فناجين القهوة السادة - وجوهها على الطبق وأدبارها للناس. ثم رفع الطبق بما عليه وقال: «دَنْدَنْ وَرْسَنْ». هاي الصينيّة وهذا الميدان».

انقسم الحاضرون إلى فريقين واتفقوا أن على المغلوب أن ينصاع لأوامر الغالب وينفّذ طلباته وأوامره مهما تكن.

أخذ أحدهم عباءة كانت معلّقة على مسمار في الجدار ومضى بها إلى زاوية الغرفة ليغطي زميلاً له يخبّئ خاتماً تحت أحد فناجين القهوة ويموّه على اللاعبين لئلا يكتشفوا ذلك الخاتم.

رنين الفناجين وهي تُحرّك وتصطدم ببعضها يُراد منه أن يعطي للطقس هالة صوتية. بين الحين والحين تسمع شكوى الخاتم وهو حبيس تحت أحد الفناجين ثم يختلف الرنين باختلاف الفنجان وتغيير مواقعه.

بعد حين ارتفع الطبق في الهواء ودار بضع دورات على كفّ أحدهم.
وُضع الطبق أمام الفريق الثاني. بدأوا يتشاورون. أشار قاسم إلى أحد الفناجين قال: «حاسس إنّه الخاتم تحته». طالت المشاورات.

الفناجين كلها متشابهة مصفوفة في مجموعات ثلاثية هذه المرّة. ويمكن لخيال اللاعبين أن يصفّها بالشكل الذي يرتأونه: دائرةً واحدة كبيرة، أو مجموعات أو أفراداً مبعثرة. المهم أن تموّه على الخصم وتوهم بموضع للخاتم ليس هو فيه. وتتشخّص الفناجين في عيون اللاعبين. قال أحدهم: «هذاك الفنجان مكّار بِتْمَسْكَنْ». قال آخر: «هذاك الفنجان قاعد ع جنب حتى نتوَهّم إنه فارغ». مدّ يده باتجاه ذلك الفنجان وعينه على من قام بعملية التخبئة لعلّه يستشفّ منه شيئاً عن حقيقة الأمر. لكنّ هذا أدار وجهه وابتعد.

وأخيراً فوّضوا أحدهم ليقوم بعملية تطويق الخاتم المسكين المختبئ تحت أحد الفناجين. بدأ بعملية حصر تبعد الفارغ حتى تصل إلى الفنجان المسكون. أشار إلى أحد الفناجين: «هذا بوش» ومدّ يده إليه بحذر ثم هزّه وكشفه. فعلاً فارغ. تجرأ واختار فنجاناً آخر: «وهذا بوش». كشفه. فارغ كذلك. لكنّ الفنجان الثالث خذله. ما كاد يمدّ يده إليه ويحركه حتى رنّ الخاتم رنيناً مزعجاً ساخراً من ذكائه وبراعته. شتمه شتيمة فاحشة، ورُفع الطبق لجولة أخرى.

انتصر الفريق الذي فيه هرمزان، فقام هذا ليفرض الشروط على المغلوبين:

- «يا بو سليم سلامة قدرك، الحلاقة بالمشّاية بنخلّيها لغيرك. ما بدي مِنّك إلا تبوس خيال العصا على الحيط».

عرف أبو سليم أنه جاء دور هرمزان لينتقم من سخريته منه. لكن لا مناص. قال: «الحق مش عليك. الحق على اللي بلعب مع لِوْلاد».

وقف أبو سليم متثاقلاً، نفض ثوبه ونصب قامته، وبجهد بالغ رسم على وجهه ابتسامة غائمة وقال: «يا هرمزان الدنيا مثل الفجلة.. الليله ليلتك لكن دير بالك لما يدور الدولاب وتسرح غزالة الحظ».

- «إحنا ولاد الليلة، وليوم الله بِعين الله».

تناول هرمزان عصا معقوفة الطرف واقترب من القنديل يعرّضها لضوئه ويتفحّص ظلها وكيفية نقله من جدار إلى جدار فوق الرؤوس، ثم قال: «تفضل يا بو سليم وانت كبير القدر.. بوس خيال العصا عَ الحيطان».

ما كاد أبو سليم يتحرك نحو الظل على الجدار ويقترب منه حتى قفز ذلك الظل إلى جدار آخر فلحقه أبو سليم. تلكأ الظل قليلاً هناك. حنى أبو سليم رأسه ليقبّله فهرب الظلّ. والجميع يضحكون ويحمّسون وهرمزان يلعب بالعصا وظلّها ببراعة الخبير، وأبو سليم يتطاوح يقبّل الجدار بعد أن يهرب الظل ويتقمّز بروح رياضية تعرف كيف تتقبل الهزيمة وتترقّب دورها للثأر.

استحضر المشهد إلى ذهن يحيى صورة من الشعر القديم. تصوّر مجنون ليلى قيسَ بن الملوح القائل:

أمرّ على الديار ديار ليلى ... أقبّل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حبّ الديار شغفن قلبي ... ولكن حبّ من سكن الديارا

لو أن هرمزان كان يعرف هذا الشعر، لما سخر من أبو سليم بهذه الطريقة إكراماً للعاشقين الذين يقبّلون الجدران بأسىً وخشوع.

بعد أن شبع هرمزان من التشفّي ورأى أن اللعبة بدأت تعود على ذاتها كالأسطوانة

المشروخة أطلق سراح أبو سليم ونادى على ناجي:

- «تعال. لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أخرى». قَلِّل حكي. لما ربحتو المرْه اللي فاتت فرضتو شروط المسكوب. قل «أمرك يا سيدي».

- «أمْيَك يا سيدي».

«يا هلا بالزّين يا هلا. شو رايكو أصلّح لسانو والا أحلق لو؟ خلّيه اجقم، شوفوا بين الصرامي أهمّل صرمايه مرقّعة وموحّلة منشان زيانة العريس».

بحث نعيم في الأحذية المصفوفة قرب الباب واختار أوسخها وقدّمها لناجي.

قال ناجي: «يخلف عليك يا نعيم. شوف يمكن تلاقي صُيْماية أوسخ من شوايْبك. لكن بيجي يومك».

ضحك نعيم: «إن كان بيدك المدقاق دُقّ وإن كنت تحت المدقاق إحمِل دَقّ».

تناول ناجي الحذاء وتعابير القرف على وجهه. قال هرمزان: «يا هلا بالعريس. بدّك حلاق والا بتحلق لحالك؟ كفّ يا شباب: طلع الزين من الحمّام».

وتردّد جوقة الغالبين بحماس على إيقاع الأكفّ وناجي ينظر إليهم حانقاً ولكنه يتظاهر بالهدوء.

- «زيّنو يا مْزَيّن وناولْو لامّه».

لم يحرك ناجي الحذاء. قال مصطفى الفرهود: «لا، هيك مش رايح يحلق بالصرماية. لازم لو حلاق».

قال ناجي: «إحسب حساب بُكيَه (بُكرَه) يا مصطفى. بدّيش اقول شو بعمل فيك».

أمسك أحدهم بيد ناجي ليحركها بالحذاء على وجهه لكن ناجي شدّ يده ليبقى الحذاء بعيداً. والغناء يرتفع والسحجة تهيج.

قال هرمزان: «دورك يا راشد يا بو المقالب. شو أعمل فيك؟»

نظر راشد إلى وجوه الغالبين نظرة سمحة وقال: «شو رايكو أحلّيكو عَ حسابي؟»

- «بدّو يشتري حاله الملعون».

- «طيّب. الحلوان حلقوم بس للغالبين. إحنا بنوكل وانتو بتمسحوا ريالتكو».

ذهب راشد إلى بيت يونس المجاور. أيقظه ففتح الدكان. اشترى علبة حلقوم وعاد بها

إلى هرمزان الذي أخذ يوزّع القطع على جماعته. كل واحد يتناول قطعته يتأملها ويعرضها على الجميع. يتغزّل بجمالها وحلاوتها ثم يضعها بين أسنانه. يقضمها ويتلمظ ناظراً إلى المغلوبين: «إلحَس ريالتَك إلحسْ. يا حسرتك يا مغلوب». ويتبارى هؤلاء في إبداع مشهد التشفّي من المغلوبين.

قال شحاده الناصر: «مش دايْماً لازم يكون القصاص تْمقْلِزْ على المغلوب. يمكن نطلب من المغلوب يسلّينا ويبسطنا».

- «غير الحلقوم؟»

- أيوَه. بتعرفو كيف الشيخ صالح أخذ رسميّة غصباً عن أهلها. شبّاك قبال شبّاك، وهو يدقّ لها على الشبّابة ويغنّيلها. ألله يجازيك يا شيخ سحرتها».

بعد شدّ وإرخاء وتدلّل ورجاء كان صوت الشيخ صالح يصدح في فضاء الغرفة مثقّلاً بالشجن ومتّكئاً على أنين الشبّابة:

جْمال محمَّلِه وجْمال بِتْعِنّ   على إيّام مَضَتْ عَ البالْ بِتْعِنّ

لكنّ ناجي اندفع بصوته البرّي، وهو يبتلع حرف الراء، مكمّلاً بيت عتابا آخر مسكوناً بصدق الحسرة على جراح هواه الجديد:

كشَف عنّي الطبيب وقال ما اظنّ   ما أظن يطيب مجيـوح الهوى

36. ثريا

مرّة أخرى تنتقل العائلة إلى الناصرة. سكنت الطابق الثالث في بيت مستأجر بناه إقطاعي لنفسه. كثرت فيه أعمدة الرخام، وتحت قرميده سقف خشبي مزخرف بالرسوم. أما الشرفة فواسعة مسقوفة بالقرميد أيضاً تشرف من ربوتها على المدينة وتطلّ على مرج ابن عامر الواسع المتعدد الألوان.

في الطابق الثاني سكنت عائلة من أقرباء الأم. مدخل البيتين واحد والدرج الخشبي الذي يصل بين الطابقين يخترق بيت تلك العائلة، وكأنما العائلتان عائلة واحدة. في عائلة الجيران أربع بنات وثلاثة أولاد. كوثر البنت الكبرى في السابعة عشرة من العمر، أكبر من يحيى بثلاث سنوات. تجربة جديدة أن يحيا يحيى الذي لم يعرف الأخوات بعد في بيت فيه بنات. والبنات الأربع فيهن الحسن وياسمينة البشرة وفورة التفتّح.

كوثر عبلة. في جسمها ذلك الالتفاف وتلك الاستدارة التي تعرف كيف لا تجاوز حدّها. وهي ناعمة الروح. ابتسامتها الدائمة تشعّ أنساً ودفئاً، وفي صوتها حلاوة متفرّدة.

وأم يحيى غيور على شرف أبنائها أولاً وعلى شرف قريباتها. دوماً تبثّ: هؤلاء أخواتك وأنت أخوهنّ. وتؤكد أن شرف الشاب كشرف الفتاة بل أعزّ. وعين أم يحيى دائماً قريبة، لا تغفل أبداً.

ذات يوم كان يحيى جالساً يتحدث مع كوثر وكانت تتأهب للخروج وقد شرعت تلبس جوربها فرفعت ساقها عالياً وانكشف بياض فخذيها لامعاً كالبرق. وكأنما لمع ضوء آلة تصوير

فارتسم المشهد شهياً باهراً محفوراً في وجدان يحيى. والتقت عيناه بعينيها وفيهما تلك الابتسامة الناعمة التي تنفتح لها أبواب القلب في يسرٍ واطمئنان. لكنه سرعان ما حوّل نظره وهو يبلع ريقه وهي ترفع ساقها الثانية لتحضن الجورب الشفّاف، ويدرك اللمعان الشهيّ بعين التذكر. إنها مثل أختك.

هذه النخوة التي ترسخت فيه ظلّت تتصدّى له في أكثر من موقف فيما بعد.

*

يحيى جالس يقرأ على الشرفة. هذا الكاتب الروسي تشيخوف يبهره. يوثقه ويحمله معه في رحلات حافلة بالمتعة والذكاء إلى أغوار النفس الإنسانية. يقرأه بالإنجليزية ولا يلجأ كثيراً إلى القاموس. يستريح يحيى في ظلال الأدب بعد يوم دراسة طويل مضنٍ لا يخلو من كثير من التحذلق والملل وفوضى المعلومات.

على الدرج الخشبي وقع أقدام موسيقية تسرقه رشاقتها وحيويتها من وثاق عالم تشيخوف. كوثر وصديقتها ثريا تعتذران عن اقتحامهما حين أطلّتا عليه في الشرفة. هذه أول مرة يتعرف فيها إلى ثريا. هي في مثل عمر كوثر، بل لعلّها أكبر قليلاً، ممشوقة رقيقة القدّ، في حركتها توثب الغزالة وفي اعتدالها شموخ الحور. أبدع الخالق في ملامحها نسقَ الوردة بتفاصيلها وعطرها. منحتها أمّها ابنة أميركا اللاتينية لوناً خمريّاً ورونقاً غير عادي.

أطلّتا على المنظر الذي تحيط به الشرفة، وثريا تشهق مبهورة، وتتعرف الى معالم الناصرة من علٍ، وتلاحقها بالتفصيل وقد تطوّع يحيى ليبيّن بعض المواقع التي لم تنكشف لأول وهلة. قالت: لم أعرف أن الناصرة جميلة إلا حين شاهدتها من هنا، كاللوحة ترى جمالها حينما تبتعد عنها قليلاً إلى وراء.

سألته كوثر حينما جلسوا عمّا يقرأ. حدّث عن هذا الكاتب الرائع، وعن بعض من قصصه القصيرة. كوثر تجيد الإنكليزية. أخذت الكتاب بين يديها، قلّبته وظلت تحمله وهي تحدّث. في عيني كوثر وفي شعرها سواد لامع متألّق. هذا الشعر يتحاور مع الوجه حواراً شهيّاً، فيه الكثير من الكشف والإخفاء، ينسدل متماوجاً متوثباً فتردّه بيدها حيناً ثم يعود إلى الشيطنة. هذا الصوت الرقراق كأنه انسياب الغدير في الربيع.. أحاطت الشباك بيحيى من كل الجهات. القلب في إشراقة علويّة. أهذا ما يسمونه الحبّ. هل كان يحيى في حالة ترقّب

لطارق طارئ؟ أهو تعلّق من جانب واحد؟ لكن ثريا تقبل عليه بألفة خاصة، تحدثه وكأن بينهما عهداً طويلاً من التواصل، بل إنها ربّتت على كتفه أثناء الحديث. وماذا عن فارق العمر؟ ثلاث أو أربع سنوات. عادةً الصبيّة هي التي تطمح إلى من هو أكبر منها سناً. ومن قال إن هذه الغزالة الملائكية حرصت أن يظل قلبها مغلقاً حتى ينفتح له؟ أهو الفارس الوحيد في الميدان؟ لكنه يفسّر نظراتها وحركاتها واهتمامها بحديثه على أنه حبّ. ولعلّ لهفة ارتمائه على وجدانها استثارت فيها أحاسيس مختلطة جذورها مداعبة الأنا وعاطفة العطف والاحتضان.

احتلّت كوثر عالم يحيى، أحلام المنام وأحلام اليقظة، واستوت صورتها على عرش قلبه، فتطول الطريق إلى المدرسة ومنها لتمرّ من أمام بوّابة بيتها لعله يلمحها خارجة أو داخلة، ولكن ذلك التزامن كان نادراً.

عرفت كوثر بمشاعر يحيى نحو صديقتها، ووصلت الرسالة إلى عنوانها. وفي زيارة ثريا التالية كان هناك الإقبال والتبسّط والمرح. بل كان أكثر من ذلك، فقد عرفت أنه وصلت إلى يحيى قصيدة بالإنكليزية عنوانها «والتر»، وهي أكثر من صريحة في عبارات الحب والعلاقة الجنسية بين والتر ومن حوله. طلبت منه أن يعطيها القصيدة لتقرأها فتمنّع حيياً، فقامت تحاول أن تنتزعها من جيبه بالقوة، فدار عراك، وهجمت كوثر تساعدها فانبطح على الأرض يحمي الورقة في جيبه فهجمتا عليه وانفلتت الأيدي والأجسام، وكان عطرها ناعماً يسري إلى أحاسيسه فيخدّرها، ولمس خدّها خدّه، وكان يحمي جيوبه بيديه وهما تشنان الهجوم تلو الهجوم، ثريّا تقيد يديه بيديها وصدرها على صدره، وكوثر تنتزع القصيدة من جيبه. كان لونه أحمر، ولهاثه كان يترنح بين الجهد وبين النشوة. أخذت ثريا تقرأ القصيدة وتجفل ضاحكة ضحكة شيطانية بين الحين والحين، فقد تعرّى الوصف وفحشت الكلمات.

ظلّ يحيى يطالب كوثر أن تستضيف ثريا أكثر فأكثر، مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع. ولم تكن تتيسّر الزيارة بهذا التواتر دائماً.

عندما أقيمت الحفلة لعرس خالة يحيى في القرية دعا يحيى ثريا أن تجيء مع كوثر إلى تلك الحفلة، واعتبر أن في تلبيتها تجاوباً مع شعوره نحوها. جاءت فأحسّ كأنه يرتقي على أجنحة لا مرئية إلى آفاق سحرية ملوّنة. في تلك الليلة، وفيما ثريا تشارك في الاحتفال، انسحب إلى غرفة مجاورة وكتب لها قصيدة، لم يبق منها في ذاكرته إلا مطلعها:

ثريّا أنيري. إن في القلب ظلمةٌ وليس ينير القلبَ غيرُ سناك

أحسّ أن الأبيات تتدفّق، ولذلك لم تستغرق الكتابة طويلاً. راجع الأبيات، كتبها بخط جميل. توجّه إلى حيث الاحتفال – الغناء والرقص، وأشار إلى ثريا لتجيء. جاءت ودخلت معه الغرفة الأخرى، أعطاها القصيدة، نظرت فيها. قرأت الأبيات الأولى، ثم قالت: أقرأها أنت لي. قرأها وصوته يرتعش وكأنه يتعرّى أمامها. عندما انتهى احتضنته وقبّلته على فمه، نظرت حولها، طوت الورقة في باطن كفّها وعادت إلى ضجة الرقص والغناء.

بعد سنة، عندما تقرر أن يسافر يحيى ليدرس في الكلية العربية في القدس جاءت ثريا تودّعه، وقالت له وهي تغادر: «إحرص على دروسك، أتمنى لك التوفيق والنجاح الباهر».

كان في السنة الثانية في القدس، عندما رآها مع رجل أكبر منها سناً، عرّفته عليه أنه خطيبها.

وعندما بلغه موعد زواجها، غرق في تلك الليلة في بحر من الذهول والحزن. كان الطلاب من حوله في ساعة الإستعداد، وكانت الكتب أمامه، ولكنه لا يرى فيها شيئاً. كانت ثريا ترتسم أمامه، وهي في أحضان ذلك الرجل.

37. إلى القدس

طوّقه السؤال، أطلّ عليه من كل ناحية، بل هو الكابوس:

- «ماذا بعد؟».

إلى أين بعد إنهاء المدرسة الثانوية في الناصرة؟

فهذه المدرسة والعديد من أمثالها في المدن الأخرى ليست ثانوية كاملة. الدورة الثانوية أربع سنوات، وهذه المدارس سنتان. ومن يريد أن يستكمل فلا بدّ له من السفر إلى القدس أو رام الله والإقامة هناك في قسم داخلي. لكن ذلك يقتضي نفقات مالية باهظة لا يستطيع بيت يحيى أن يوفّرها له. راتب الوالد ينقسم للإنفاق على بيتين، فله في مخيم المساحة مطبخ وطبّاخ ونفقات أخرى علاوة على العائلة التي كبرت حتى بلغت آنذاك خمسة أولاد، والحبل على الجرّار. كفّتا ميزان الدخل والمصروف لا تعرفان الاعتدال وكفّة الإنفاق الثقيلة تترك أختها مشنوقة في الهواء.

الأمل الوحيد هو في الحصول على بعثة دائرة المعارف للدراسة في «الكلية العربية» في القدس ولا يحظى بها إلا صاحب المعدّل الأعلى في كل مدينة من مدن فلسطين، أو إلى «الكلية الرشيدية» في القدس وهي للإثنين اللذين يليانه في المعدّل.

من حوالي مائة طالب كانوا في شُعَب الصف الأول قبل تسع سنين لم يبق الغربال إلا أقل من عشرين طالباً في الثاني الثانوي وكلهم قدير وكلهم جدير. المنافسة على أشدّها بل هي طاحنة.

لكنّ ليحيى رصيداً آخر يُضاف إلى المعدّل، هو نشاطه في الندوة الثقافية العامة التي يلتقي فيها الطلاب مرّة كل أسبوعين يستمعون إلى إبداع زملائهم، وقد نال جوائز عدد من المسابقات فيها. واحتفل معلما الإنكليزية والعربية بترجماته الشعرية لنصوص الشعر الإنكليزي المقرّرة، والبحث الذي قدّمه عن شعر بهاء الدين زهير بعد جهد كبير من البحث عن المراجع حتى بلغ به الاعتداد بهذا البحث أن يذهب إلى المطبعة الوحيدة في الناصرة يسأل كم يكلّف الطبع في كتيّب.

لكن القلق يرسم علامات الاستفهام، ويحيى يدرس البدائل إذا لم تتحقّق البعثة. على العاقل أن يحتاط.

السنة ١٩٤٣ والحرب العالمية الثانية في الأوج، وسخرية القدر تشير إلى مزيد من فرص العمل في وظائف مختلفة. قد يكون الملجأ هناك في حيفا حيث الميناء وسكة الحديد وشركة البترول ومصنع التكرير، ووظائف طارئة كالبوليس الإضافي وغير ذلك.

سافر يحيى إلى حيفا حيث عمّه الذي يعمل في شركة بترول العراق، وعمه الآخر الذي يعمل في مصنع التكرير، ومضى يسأل عن مجالات العمل. وعاد ومعه العديد من الكتب التي اشتراها من المكتبات هناك. عاد يصطحب طه حسين وتوفيق الحكيم وعلي محمود طه والياس أبو شبكه ودوستويفسكي.

هذه حيفا التي يحبّها رغم الطائرات الإيطالية التي أغارت عليها ونزح عنها كثيرون إلى مدن الداخل وقراه. صديقه محمد ابراهيم كان ثمرة هذا النزوح.

كانت البالونات المحلّقة في سماء حيفا لتعثر بها الطائرات المغيرة تشوّه الفضاء. ولكن لا بأس ما زال في ساحة الحناطير إيقاع حوافر الخيول تسعى بالعربات في كل اتجاه. لكنّ حيفا تعجّ بجنود الحلفاء.

تعوّد الناس على الوجوه السنغالية والسحنات الهندية والعريدات الأسترالية. الجنود الأستراليون اشتهروا بمبالغتهم في الشرب والمشاجرات. عند مداخل بعض الشوارع والحارات لافتات معدنية مستديرة تعلن بالانكليزية عبر الدائرة الحمراء المرسومة عليها أن تلك المنطقة ممنوع دخولها للجنود ـ خوفاً على أمنهم. مثل تلك اللافتة وُضعت على باب السوق الأبيض، إلا أن ذلك لم يمنع عشرات الجنود أن يقفوا في صف طويل انتظاراً لدورهم لاجتياز درجات

المبغى البائس. وقد نظمت السلطة البريطانية فحصاً طبياً دورياً لهؤلاء النساء اللواتي يقمن بمهمة جليلة للترويح عن الجيوش والمساهمة في انتصار الحلفاء.

وفي حيفا أندية ثقافية يفد إليها محاضرون من مصر ولبنان وغيرها، وتزور المدينة فرق مسرحية، وفيها أدباء وتصدر فيها صحيفة.

يحيى يستعدّ نفسياً للجانب المظلم من القمر. إذا لم تكن بعثة فهذه حيفا يعمل فيها ويقرأ.. يقرأ بنهم وينظّم قراءاته. أمين الريحاني الذي هاجر إلى الولايات المتحدة، واضطر للعمل في متجر وضع برنامجاً للدراسة الليلية في البيت وأفلح. ويحيى الذي عاش في القرية، وفي مدينة أقرب إلى القرية في طابعها سوف يثري تجربتَه العيشُ في مدينة مثل حيفا كثيرة الأصباغ والألوان.

ذات ليلة، وكان يحيى يقرأ كتاباً لجبران خليل جبران هائماً في دنيا «النبي»، وقف والده أمام الشباك مواجهاً ضوء القنديل ووراءه العتمة وقضبان الحديد وسأل:

- «ماذا تريد أن تكون في المستقبل؟»

قال يحيى بحماس: «أريد أن أكون شاعراً».

قال الوالد: «وهل سمعت عن شاعر مات وعليه ثوب؟ أسألك عن المهنة، والشعر ليس مهنة. في هذه البلاد الكتابة لا تطعم خبزاً والشعر لا يستر عورة. حين تكون لك مهنة قد تنعم بممارسة الكتابة».

يعرف يحيى ذلك، وهذا ما حمله إلى حيفا للبحث عن عمل، ولكنه لا يريد أن يرى في مثل ذلك العمل محبسه الأبديّ.

لماذا يريد أبوه أن يبدّد غيمة الحلم التي يحوّم عليها في عوالم مخمليّة؟ بعد بضع سنوات وكان يحيى وأبوه يتنزّهان في شارع الإذاعة في رام الله تفرّع النقاش إلى القيم الاجتماعية والمثل، ويحيى يعرض الآراء التي درسها في الفلسفة، قال أبوه: الناس يعبدون العجل الذهبي والكثيرون ممن يتظاهرون بالورع والتقوى ويتقنّعون بالقيم والمثل إنما يفعلون ذلك ليزداد نصيبهم من خيرات ذلك العجل. «حَمِّلْ حماراً شوالاً من الذهب واجعله يمرّ من هذا الشارع تجد الجميع ينحنون له بالتحية. ويمرّ أكبر فيلسوف فلا يلتفت إليه أحد».

في مناسبة أخرى اعترف الوالد ليحيى أنه كان يؤكد على تلك الزاوية المادية بهذا

الشكل لأنه رأى استغراق ابنه في عالم الخيال والقيم المطلقة فأراد أن يهبط به إلى الواقع العاري قبل أن يرتطم بذلك الواقع. وردّ يحيى آنذاك: «الإنسانية مدينة لأجيال الشباب وتعلّقها بالمثل وإيمانها بالقدرة على التغيير والتضحية في سبيل ذلك، فهذا هو الأمل الدائم للارتقاء إلى مجتمع أفضل».

أخبار الحرب العالمية الثانية تثقل النفوس بالمآسي المروّعة. المعارك ضارية والحديث عن الضحايا مذهل. كل فريق يحاول أن يؤكد على المزيد من قتلى الطرف الآخر وخسائره. يفخرون بالقتل والتدمير. العالم غابة كبيرة تُجنّ فيها الوحوش المفترسة تشحذ أنيابها وتزهو بالدّم الذي تريقه. المنتصرون يكتبون التاريخ والويل للمغلوب. القوة الحق والحق القوة!

في المدرسة أربعة معلمين شباب يهتمون بمناقشة موضوع الحرب ويتوسّعون حين يُسألون. إنهم يرون في النازية العدوّ السفّاح اللدود، أما الإتحاد السوفياتي ففيه تتحطّم أصفاد ورغم الضربات القاسية التي أنزلها النازيون بالاتحاد السوفياتي ورغم التغلغل النازي عبر حدوده لم يتزعزع إيمان هؤلاء المعلمين، ولم يكفّوا عن التبشير بذلك الإيمان.

قال مروان يناقش أحد هؤلاء المعلمين: «عدوّ عدوّي صاحبي. الانكليز أعداؤنا والألمان أعداؤهم، وعلينا أن نناصرهم».

هجم الأستاذ رشدي على هذه المقولة وناقشها بإسهاب، وأكد على سطحيّتها وسذاجتها. فقد يكون عدوّ عدوك أكثر شراسة وأشد خطراً عليك من عدوك الحالي. يجب أن تتعرّف إلى حقيقة كل فريق وإلى الظروف الآنية للمعركة. هل تعرفون أين وضع هتلر العرب في سلّم عدائه للساميّة؟ الانكليز مستعمرون وقد وعدوا الصهيونية بأرضنا وهم يتآمرون على مصيرنا، ولكنّ المعركة العالمية تفرز الأمور اليوم بشكل آخر. إن انتصار الاتحاد السوفياتي وحلفائه مصدر للأمل. إنه قوة جديدة على الساحة لا تتيح للاستعمار أن يستمر كما كان. أما انتصار المعسكر الآخر ففيه الدمار للجميع.

بعد سنة وزّعت حكومة الانتداب هؤلاء المعلمين على مدن مختلفة، نَفَتْهُم بعيداً وفرّقت ما بينهم.

*

وصلت رسالة إدارة المعارف تبشّره باختياره للدراسة في الكلية العربية في القدس، ومع

الرسالة ملحق بالتجهيزات اللازمة، ومنها آلة لحلاقة الذقن.. ولم تكن ذقنه قد عرفت أيَّ شفرة إلى ذلك الحين ولكنه سيقيم هناك في القسم الداخلي وسيحتاج إلى هذه الآلة بعد زمن يسير، فلتكن في جهازه. وتشير اللائحة إلى ضرورة التزوّد بحذاء للعب كرة القدم، وذلك شيء نادر وجوده آنذاك في الناصرة، وجد حذاء لم يعجبه فسافر إلى حيفا وعاد بهذه الحاجة الثقافية الجديدة. لم يكن يحيى شديد الصلة بالرياضة وإن يكن قد حاز على جوائز في مسابقات «الأكياس» و«البطاطا» في بعض المهرجانات الرياضية السنوية. ولكنه في الكلية سيلعب كرة القدم وسوف يلعب التنس، فلا بدّ من شراء مضرب أيضاً. أما الكتب فلا بدّ من التزوّد ببعض المعاجم.

أخذت أم يحيى على عاتقها أن تدبّر النفقات المالية الطارئة. كان الوالد بعيداً في منطقة القدس. باعت قطعة من مصاغها ووفّرت الحاجات المطلوبة، ونفقات السفر ومصروفاً متواضعاً.

ذهب يحيى إلى الخياط وفصّل بدلة. لأول مرة سيلبس البنطلون الطويل. ظلّ قصير القامة ولكنه عندما عاد من الكلية بعد شهور في عطلة الفصل الأول كان البنطلون قد قصر عدة سنتمترات، فقد طال الفتى، وعانى البنطلون الثاني من أزمة مشابهة، ففي سنة واحدة طالت القامة وفُضّت بكارة الذقن.

الحقيبة تمتلئ. كل بنود اللائحة فيها. الأقارب يزورون للوداع، فقد كانت الرحلة إلى القدس والإقامة فيها شهوراً أمراً غير مألوف في ذلك الحين. سيتغرّب هذا الفتى، وفرحته غامرة بهذه المغامرة.

لشركة الباصات الوطنية في القدس خطّ من القدس إلى طبريا يقوم بالرحلة فيه باص واحد يخرج من القدس في الصباح الباكر ويعود من طبريا في الظهر فيجتاز الناصرة وجنين ونابلس ويلهث في طلوع اللبّن ثم يصل إلى البيرة فالقدس. والرحلة في كل اتجاه تستغرق أربع ساعات يقف الباص فيها في مقصف على طريق اللبّن. وأما السائق فلا يتغيّر. اسمه رشيد وهو العَلَم المعروف لكل المسافرين على هذا الخط.

تنهّد يحيى بعد أن استقر به المقام في الباص وحزمت حقيبته على السطح. وجد بين الركاب طلاباً آخرين ممن سبقوه إلى الدراسة في القدس، وممن كانوا في صفه ويقصدون مدارس

أخرى في تلك المدينة.

إنها القدس التي يحبها. قدس القباب والجرسيات، الصخرة الذهبية والأسوار والبوابات. فستق العبيد والسيارات الصغيرة خلف زجاج الدكان. عبق البخور في كنيسة القيامة والحشد الذي يستر عنه ما حوله فلا سبيل إلا إلى النظر فوق إلى السقوف المليئة برسوم الملائكة والقدّيسين.

والكلية على جبل المكبّر. من هناك أطلّ عمر بن الخطاب وكان دوره أن يسوق بعيره وعليه خادمه، فقد تناوبا على ركوب البعير في الرحلة من الحجاز إلى هنا.

يا قدس يا أفقاً ينفتح.

ستكون المنافسة هنا أشدّ. هنا الأوائل من كل فلسطين. سمع من طلاب الكلية السابقين كيف يتسللون في الليل إلى غرف الصف للدراسة بعد الساعات المقررة وقد غطّوا الشبابيك بالشراشف لئلا يصل الضوء إلى مدير القسم الداخلي، فيكون الإنذار..

لكنّ فرحة المغامرة وترقّب الجديد كانت أقوى من الاستدراكات..

القدس حلم يتحقق.



الحائز على جائزة فلسطين للسيرة الذاتية للعام ١٩٩٩

يغافل أبو الأمين جغرافيا البلاد وتاريخها ، ولا يغفل ولو عن عشبة أو حصاة أو حتّى ظلف عنزة ، فيقطّرها حكايات وأمثولات في سيرة نادرة تجمع نباهة الطرفة إلى وطأة الشهادة ، وتسوق ضحكة النبع إلى دمعة القلب . هكذا يصبح ظلّ الغيمة مرآة لنا كجماعة ، وله كشاهد متفرّد ، حيث يحمل حنّا أبو حنّا قناع يحيي ويعطيه الكتاب : يا يحيى خذ الكتاب بقوّة .. وإنّه لكتاب ممّا لا يجود به العمر مرّتين ..

أحمد دحبور

